المريـخ جنـة

مختارات قصصية

تأليف: ري برادبري
ترجمة: شاكر الأنباري

العنوان الأصلي للكتاب:

The Stories of

Ray Bradbury

Volume 1

With an introduction by the author

مقدمة

ولد ري برادبري في مدينة دوكيكان من مقاطعة الينويز الأمريكية عام 1920، وابتدأ كتابة القصص القصيرة منذ العام 1932، حيث نشر أكثر من خمسمائة قصة قصيرة، غير الروايات والمسرحيات والقصائد. وظهرت أولى مجاميعه القصصية (الحكايات السحرية) وكان عمره عشرين سنة. وري برادبري كاتب غزير الإنتاج، وعندما كان مكرساً حياته كلية للكتابة، خاصة في العقد الرابع من عمره، دأب على كتابة أكثر من ألف كلمة يومياً، أي ما لا يقل عن قصة قصيرة واحدة في الأسبوع، وطوال عشر سنوات متواصلة. زار المكسيك وكتب عدداً من القصص عن مومياء وطقوس الحياة فيها وعاش ستة أشهر في دبلن عاصمة أيرلندة، فاستوحى من أساطيرها المحلية كثيراً من القصص، أشهرها قصته (النائحة)، المترجمة ضمن هذه المجموعة.

وفضلاً عن القصة القصيرة والرواية، فقد كتب برادبري مجموعة من سيناريوهات الأفلام، أشهرها سناريو (موبي دك) عن رواية الكاتب الأمريكي ميلفيل، وأخرج الفيلم المخرج الأمريكي جون هيدسون، وكتب سيناريو فيلم (جاء من الفضاء الخارجي). تعتبر روايتا برادبري (درجة 451 فهرنهايت) و(نبيذ الهندباء البري)، أكثر أعماله شهرة، إذ حولت الأولى إلى فيلم سينمائي عام 1966، ثم إلى باليه عام 1988، أما الثانية فأطلق اسمها على فوهات أحد البراكين القمرية عندما حط فريق أبولو على القمر، تكريماً للرواية. وفي الثمانينات، طلب منه المساعدة على تصميم مدينة القرن الحادي والعشرين، التي ستبنى قرب طوكيو.

يمتلك ري برادبري خيالاً هائلاً، وذاكرة فذة، يستعيد عبرهما شريط حياته منذ الطفولة، ثم يستل من ذلك الشريط أفكار قصصه ورواياته غير المألوفة، فهي تستقرئ الجوانب الخفية من العابر واليومي، وتنفذ إلى أغوار الذهن بما تحتشد به من أساطير ومخاوف وأوهام، تتحكم في حياة البشر العادية في غفلة عنهم ودون تفسير أحياناً. كما يرتفع برادبري بخياله إلى السماء، فينحت قصصاً تدور في الأغوار البعيدة للكون، مع تفهم لمصطلحات الفضاء والآلات العلمية ودراسات المجرات التي وصل إليها تطور العلوم الحديثة. مع نبرة إنسانية عالية، عادة ترافق قصص الخيال العلمي لديه، فهو يدس رسالته الأخلاقية في تضاعيف القصص حتى وإن جاءت غير مباشرة.

يقول برادبري في مقدمته للمجلد الأول من قصصه القصيرة (سلكت في حياتي ثلاث طرق، كمستكشف مدينة، مسافر فضاء، وهائم مع أقارب الكونت دراكولا من الأمريكيين)، وهي محاور واضحة للعيان أمام قارئ برادبري، فهو كمكتشف للمدينة الحديثة ذات الأوجه غير المتناهية، ينقلنا عبر قصصه إلى عالم البشر فيها حيث تلعب المصادفات دوراً هائلاً في رسم مصائرهم، كما تشكل الأوهام والخيالات المترائية أثناء الوحدة ومواجهة العالم المادي الذي يبدو صلداً أحياناً، نسيجاً لا يمكن نكرانه في تكوين الشخصية المعاصرة.

أغلب الأحداث التي تدور في قصصه حول إنسان المدينة، أحداث عادية تجري كل يوم، لكن في لحظة من اللحظات، وبشكل مفاجئ تتشقق عادية ذلك الواقع لتشف عن الغريب والسري، اللذين لم يكونا مختبئين تحت قشرة الواقع ذاك فقط، إنما في الأذهان أيضاً. وهو حين يوصل الشخصيات تلك إلى لحظة تفتت الواقعي، وانهيار المألوف، فإنه يصور، بالمقابل، حالة الرعب المندفعة من الأعماق، وقد كونتها على مر التاريخ البشري، أساطير وأوهام وخيالات ومآس لا تحصى، عندئذ يتحول مسرح الحياة الدافئ المطمئن إلى ساحة متوحشة ترقص فيها الأشباح والحيوانات الأسطورية والهياكل العظمية وديناصورات ما قبل التاريخ والسحر المعتق في الروح البشرية طوال قرون. وأبلغ تعبير عن هذا المنحى قصته التابوت، حين يتحول إلى آلة مميتة لم يحسب لها بطل القصة حساباً، وفخ نصبه له أخوه العجوز الذي توفي، كي ينتقم منه.

أما غموض الفضاء وأسراره المستعصية على العقل البشري، رغم بلوغه درجة من النضج والتطور لا يستهان بهما، فقد هيأ لبرادبري مادة غنية يجرب عليها خياله الفذ. كتب عن الشمس وحرارتها، عن المريخ المتوهج بالحمرة في ليالي الأرض، عن ساتورن ذي الدوائر المتحجرة الشبيهة بعيون كونية ترقب المجهول، عن المجرات البعيدة التي استخدم في السفر إليها ورواية ما يدور فيها من أحداث، خياله البشري وحده مستنداً على معرفة واسعة بالرحلات الفضائية والدراسات العلمية والفرضيات التي يتفتق عنها ذهن الباحثين الفضائيين. وقد صنف ري

برادبري على هذا الأساس، ضمن كتّاب الخيال العلمي، وكرس روايته (الأحداث المريخية) لعالم ذلك الكوكب الأحمر الغامض.

ما بعد منتصف الليل، محركات المتعة، ص للصاروخ، ف للفضاء، التفاح الذهبي للشمس، تعتبر من أهم أعمال هذا الكاتب، إضافة طبعاً، لنبيذ الهندباء البري، ودرجة 451 فهرنهايت. ولم يشع مثل هذا النمطٍ منٍ الأدب في الثقافة العربية، وقلما ترجمت أعمال كاملة لروائيين يكتبون الخيال العلمي، أما الكتاب العرب فنادراً جداً ما خاضوا غمار هذا الحقل. ونظن أن غياب أدب الخيال العلمي مرده إلى ضيق الحيز العلمي في مجتمعاتنا العربية، وتكريس النخبة العلمية مجال عملها في المؤسسات العلمية دون أن تقترب من الثقافة بمعناها الإنساني والأدبي. إضافة إلى أن شيوع هذا النوع من الأدب يفترض قارئاً له إلمام بأبجديات الفضاء والكون والفيزياء والصناعات الدقيقة، الأمر الذي لم يشع لدينا حتى هذه اللحظة.

المترجم

رجل الصاروخ

ذبابات النار الكهربائية كانت تحوم فوق شعر أمي الداكن، لتضيء لها الحمام. وقفت في باب غرفة نومها ناظرة إليّ ما أن عبرت الممر الصامت. (سوف تساعدني في الاحتفاظ به هنا هذه المرة، أليس كذلك؟) سألتني. (أعتقد هذا.) قلت، (أرجوكِ...) ذبابات النار لازالت تلقي قليلاً من الضوء على وجهها الأبيض. (هذه المرة ينبغي أن لا يرحل ثانية). (حسناً)، قلت بعد أن وقفت هناك قليلاً. (لكن هذا لا ينفع، لا فائدة).

مضت مبتعدة ورفرفت خلفها الذبابات النارية بدوائرها الكهربائية كي تيسر خطواتها خلال الظلام. سمعتها تقول بهمس (يجب أن نحاول، على أية حال).

ذبابات نارية أخرى تبعتني إلى غرفتي. حين قطع ثقل جسدي الدوائر الكهربائية في السرير، وكان الظلام يفصلبين غرفتينا. بدأ السرير يهدهدني ويغني لي. لمست زراً فتوقفت الهدهدة والأغاني. لم أكن راغباً في النوم. لم أكن راغباً في النوم مطلقاً.

لم يكن الليل مختلفاً عن أي من آلاف الليالي الأخرى في حياتنا، كنا نستيقظ في ليال أخرى لنحس الهواء البارد يستحيل إلى حار، نحس النار في الريح، أو نرى الجدران تضاء بألوان براقة للحظات، لنعرف أن صاروخه فوق البيت، وأشجار السنديان تتمايل من الصدمة. أكون مستلقياً هناك، بعيون مفتوحة، لاهثاً، وأمي في غرفتها، صوتها يأتيني عبر الهاتف الداخلي متسائلة:

(هل تحس به؟)

وسوف أجيب (إنه هو، جيد.).

كانت مركبة أبي تعبر فوق مدينتنا، المدينة الصغيرة حيث الصواريخ لا تعود، وكنا نستلقي يقظين للساعتين القادمتين، مفكرين (حط أبي الآن في حقل الربيع، إنه على المدرج، الآن يوقع أوراقه، وهو الآن في الهيليكوبتر، إنه فوق النهر، فوق التلال، إنه يحط في المطار الصغير في القرية الخضراء...)، وحين يمر النصف الأخير من الليل،أمي وأنا، بسريرينا المنفصلين الباردين، نظل نصغي، ونصغي. (إنه يمر الآن في شارع بيل. ماشياً دائماً، لا يركب سيارة أبداً، وهو الآن يقطع الحديقة، يستدير إلى زاوية أشجار السنديان والآن...). أرفع رأسي عن المخدة. بعيداً في الشارع، تقترب الخطوات، قليلاً قليلاً، سريعة، بخفة، برشاقة. إنه يستدير إلى بيتنا، يصعد درجات الباب. نبتسم كلانا في الظلام البارد، لنسمع الباب الأمامي يفتح بوضوح تحية خافتة،إغلاق، الطابق الأسفل...

بعد ثلاث ساعات أدير أكرة الباب في غرفة نومهما بهدوء، حابساً أنفاسي، متوازناً، في ظلام شاسع يشبه الفضاء بين الكواكب. أمد يدي لأمسك الصندوق الأسود تحت قدمي سرير والدي. أخذه، أركض إلى غرفتي بصمت، أفكر، إنه لن يخبرني، لا يريدني أن أعرف.

ومن الصندوق المفتوح أرمي بدلته السوداء، الشبيهة بغيمة سوداء، النجوم تلمع هنا وهناك، بانتظام، في القماش. عجنت الظلام في يدي الدافئتين، شممت الكوكب المريخ، رائحة حديد، والكوكب فينوس، رائحة لبلاب أخضر، والكوكب ميركري، مشهد سلفات ونار، وكنت أستطيع شم القمر الحليبي وصلابة النجوم. أقذف البدلة في الماكنة الدوارة، التي بنيتها في مؤسستي تلك السنة، و أشغل الماكنة. المسحوق سرعان ما يترسب في الأنبيق. أضع المسحوق تحت المايكروسكوب. وبينما ينام والدي بسلام، والبيت مستكن، جميع العجانين الأوتوماتيكيين والخدم والروبوتات المنظفة تدخل في نعاس كهربائي. أنظر إلى الذرات اللامعة للغبار النجمي، وذيول المذنبات، وطن جوبيتر البعيد اللامع مثل عوالم بذاتها، كل ذلك يسحبني إلى داخل الأنبيق، بلايين الأميال في الفضاء بسرعة رائعة.

في الفجر، تعبا من رحلتي ورعب الاكتشاف، أرجع صندوق البدلة إلى غرفة نومهما.

ثم أنام، ولا أفيق إلا على صوت زمور التنظيف الجاف للسيارة الواقعة في الأسفل.

أخذوا صندوق البدلة معهما. شيء جيد أنني لم أنتظر، فكرت. فالبدلة ستعود خلال ساعة، نظيفة من قدرها ورحلتها.

نمت ثانية، مع قليل من غلالة الغبار السحري في جيبي بجامتي، فوق قلبي النابض.

حين نزلت إلى الأسفل، وجدت أبي جالساً على طاولة الفطور، منكباً على قطع الخبز المحمص. (هل نمت جيداً دوك؟) قال كما لو كان هنا في جميع الأوقات، ولم يغب عنا ثلاثة أشهر.

(حسناً) قلت.

(خبز محمص؟).

ضغط على زر فصنعت لي طاولة الفطور أربع قطع من الخبز المحمص، بنيّة مذهبة.

أتذكر أبي بعد الظهيرة تلك، يحفر في الحديقة ويحفر، مثل حيوان يبحث عن شيء. كان بذراعيه الطويلتين الداكنتين، يتحرك بخفة، يزرع، يجمع، يثبت، يقطع، يشذب، وجهه المعتم متجه إلى التربة دائما، عيناه تنظران دائما إلى ما يقوم به، لا ينظر إطلاقاً إلى السماء، لا ينظر إلي، أو إلى أمي حتى، إلا حين ننحني معه لنشعر برطوبة الأرض في ركبتينا، لنضع أيدينا في الطين الأسود دون النظر إلى السماء المشعة المجنونة. عندها يختلس إلينا النظر، إلى أمي أو إلي، ثم يعطينا إيماءة، ويستمر بالانحناء، وجهه إلى الأسفل، والسماء تحدق بظهره.

في ذلك الليل جلسنا في الأرجوحة الميكانيكية للممر التي أرجحتنا وغنت لنا وقذفت الهواء في وجوهنا. كان الطقس صيفاً، وثمة أنوار للقمر، وكنا نشرب الليمون بكؤوس باردة، وكان أبي يقرأ جريدة الكترونية موضوعة في قبعة خاصة يضعها المرء على رأسه وهي تدير الصفحات المايكروسكوبية أمام عدسات شفافة حين يضغط المرء ثلاث مرات متتالية. كان أبي يدخن السيجار ويحدثني عن الحياة حين كان طفلاً في العام 1997. بعد لحظة قال، كما دأب على القول دائما (لماذا لم تخرج للعب دوك؟).

لم أقل شيئاً، لكن أمي قالت (لقد كان يفعل في المساءات التي لم تكن فيها هنا.).

نظر أبي ثم وللمرة الأولى في ذلك النهار راح ينظر إلى السماء. راقبته أمي دائماً حين كان يحدق إلى النجوم. للنهار والليلة الأولى حين يعود إلى البيت لا ينظر إلى السماء كثيراً. فكرت به دائما وهو يفلح الأرض ويفلح بغضب، ووجهه مدفون تقريباً في التراب. لكنه في ليلة أخرى ينظر إلى النجوم أكثر مما سبق. أمي لا تخاف من السماء كثيراً أثناء النهار، لكن نجوم الليل هي التي ترغب دائماً بإطفائها، وفي بعض الأحيان أستطيع أن أراها تحاول الوصول إلى المفتاح في عقلها، لكنها لم تجده أبداً. وفي الليلة الثالثة عادة ما يخرج أبي إلى الممر حتى الوقت الذي نتأهب فيه إلى النوم، حينها أسمع أمي تناديه للدخول، تقريباً بالطريقة نفسها التي تناديني بها حين أكون خارجاً. بعدها أسمع أبي يثبت غلق الباب الالكتروني مع تنهيدة. وفي الصباح الثاني عند الفطور أنظر إلى الأسفل لأرى صندوقه الأسود الصغير قرب قدميه وهو يضع الزبدة على خبزه المحمص وأمي تكون نائمة.

(سأراك دوك، يقول، وسوف نتصافح).

(بعد ثلاثة أشهر؟)

(أجل).

ثم يمشي إلى الشارع، دون أن يأخذ هيليكوبتر أو باصاً أو سيارة أجرة، ماشياً فقط مع بدلته المخفية في صندوقه الصغير تحت إبطه، غير راغب لأي شخص بالتفكير بأنه مغرور كونه رجل صاروخ.

أمي تأتي لتناول إفطارها، وهو عادة قطعة من الخبز بالزبدة، بعد ساعة تقريباً.

في هذه الليلة، الليلة الأولى، الليلة الرائعة، وهو لم ينظر إلى النجوم كثيراً.

(دعنا نذهب إلى مهرجان التلفزيون) قلت:

(جيد) قال أبي.

ابتسمت أمي لي.

اندفعنا إلى المدينة بالهيليكوبتر، وأخذنا أبي إلى آلاف المعارض، كي نحتفظ بوجهه ورأسه معنا في الأسفل فلا ينظر إلى أي مكان آخر. ومع أننا ضحكنا للأشياء المضحكة، ونظرنا إلى الأشياء الجادة، فكرت، أبي يذهب إلى ساتورن وتبتون وبلوتو، إلا أنه لم يجلب لي أية هدية. آباء الأطفال الآخرين الذين يذهبون إلى السماء يجلبون معهم قليلاً من المعدن من كوكب كاليستو وقطعة من كويكب أسود أو رمل أزرق. لذلك كان علي أن أحصل على مجموعتي بالشراء من الأطفال الآخرين، صخور مريخية أو رمال زحلية، كانت تملأ غرفتي، إلا أن أبي لم يعلق على ذلك.

لحظة، تذكرت، لقد جلب شيئاً لأمي. لقد زرع زهوراً مريخية في الحديقة، لكن بعد رحيله بشهر وبعد أن نمت الزهور وكبرت، ركضت أمي إلى الخارج وقطعتها كلها.

دون تفكير، وبعد استراحة في معرض الأبعاد الثلاثة، سألت أبي السؤال الذي طالما سألته إياه:

(كيف تبدو الأمور في الفضاء الخارجي؟)

رمتني أمي بنظرة مروعة. جاءت نظرتها متأخرة.

وقف أبي في مكانه حوالي نصف دقيقة، محاولاً إيجاد جواب، ثم هز كتفيه.

(إنها أجمل شيء في الحياة) ثم تماسك ثانية وقال (آه، إنها لا شيء البتة. رتابة. لن تحبها) ونظر إلي بخوف.

(لكنك تعود دائماً).

(عادة).

(متى تذهب مرة أخرى؟).

(لم أقرر حتى الآن. أعتقد أن الأمر انتهى).

كان يعتقد دائماً أن الأمر قد انتهى. في هذه الأيام ملاحو الصواريخ نادرون لذلك يمكنه أن يختار ويقرر العمل الذي يريد. في الليلة الثالثة من عودته إلى البيت يمكن رؤيته وهو يختار ويفاضل بين النجوم.

(هيا، قالت أمي، يجب العودة إلى البيت).

عدنا إلى البيت باكراً. رغبت لو يرتدي أبي بدلته. لا ينبغي لي سؤاله عن هذا، فهو يجعل أمي تعيسة، لكنني لم أطق صبراً ومع أنني كنت ألح عليه دائماً إلا أنه كان يرفض. لم أره مرتدياً بدلته أبداً، لكنه في النهاية قال (آه، حسناً) انتظرنا في الردهة بينما مضى هو إلى الأعلى عبر مجرى الهواء. نظرت أمي إلي بكآبة، كما لو أنها لا تصدق أن ابنها يناكفها بهذا الشكل. حدقت جانباً. (أنا آسف) قلت.

(أنت غير مفيد، غير مفيد إطلاقاً).

كان ثمة همس في مجرى الهواء.

(أنا آت) قال أبي بهدوء.

نظرنا إليه مرتدياً بدلته.

كانت سوداء صقيلة، مع أزرار فضية، وحواش فضية أيضاً في نهايتي الحذائين الأسودين، بدت كما لو أن شخصاً قطع الذراعين والساقين والجسد من سديم أسود، مع نجوم صغيرة غضة تلمع خلاله. كانت مناسبة مثلما تناسب الكفوف يدين ناعمتين طويلتين، وكانت رائحتها رائحة هواء بارد وحديد وفضاء. فاحت برائحة النار والوقت.

وقفأبي مبتسماً ، مرتبكاً وسط مركز الغرفة.

(استدر) قالت أمي.

عيناها كانتا تتحركان، ناظرة إليه.

ما أن يمضي لا تتكلم عنه على الاطلاق. لم تتكلم عن أي شيءٍ سوى الطقس أو حالة رقبتي وحاجتها إلى ورق تنشيف، أو عن واقع أنها لم تنم الأيام. مرة قالت إن الضوء كان قوياً في الليل.

(لكن ليس هناك قمر في هذا الأسبوع) قلت.

(هناك ضوء نجوم) قالت.

مضيت إلى المخزن واشتريت لها واقيات خضراء داكنة. وحين نمت في سريري ليلاً، سمعتها تسحب الواقيات حتى الحافات الأخيرة من النوافذ. صنعت ضوضاء طويلة مزعجة.

مرة حاولت تشذيب المرج في الحديقة.

(كلا) قالت أمي وهي تقف في الباب. (ضع المنجل جانباً).

ظل العشب ثلاثة أشهر دون قص. لقد قصه أبي ما أن رجع إلى البيت.

لم تكن تسمح لي بعمل أي شيء، كإصلاح فرن الفطور الإلكتروني أو قارئة الكتب الميكانيكية. احتفظت بكل شيء كما لو كانت تجهزه لعيد الميلاد. بعدها كنت أرقبأبي وهو يطرق بالمطرقة أو يعبئ شيئاً ، مبتسماً لعمله، وأمي سعيدة تبتسم له.

كلا لم تعتد الحديث عنه حين يكون غائباً . وكذلك أبي لم يحاول إجراء أي اتصال عبر ملايين الأميال. قال مرة (إذا ما اتصلت سأرغب لو أكون معك. لن أكون سعيدا).

مرة قال لي أبي (أمك تعاملني بعض المرات كما لو أني غير موجود، كما لو كنت شبحاً).

كثيراً ما لاحظتها تقوم بذلك. عادة ما تنظر إلى الخلف منه، فوق كتفيه، إلى خديه أو يديه، لكن ليس في عينيه إطلاقاً . وحين يحدث وتنظر في عينيه تتغطى عيناها بغشاوة، مثل حيوان مقدم على النوم. كانت تقول نعم في الأوقات المناسبة، وتبتسم، لكن دائماً بعد نصف ثانية مما هو متوقع.

(أنا لست هناك لأجلها) قال أبي.

لكن في أيام أخرى، تكون هي هناك، ويكون لأجلها، يمسكون أيدي بعضهم البعض، يمشون حول البناء، أو يمتطون الجياد، شعر أمي يطير وراءها كأي فتاة صغيرة، وعادة ما توقف كل الأجهزة الميكانيكية في المطبخ لتعمل له قالب كيك أو حلوى أو بسكويت، ناظرة بعمق إلى وجهه، وابتسامة حقيقيةٍ بين شفتيها. لكن في نهاية هكذا أيام، حين يكون هناك لأجلها، عادة ما تبكي بصمت. يقف أبي بيأس، مستطلعاً الغرفة كما لو كان يبحث عن جواب، إلا أنه يفشل دائماً .

استدار أبي ببطء، ببدلته، إلينا لكي ننظر.

(استدر ثانية) قالت أمي.

* * *

في الصباح اندفع أبي إلى البيت مع كمشة من التذاكر. تذاكر الصواريخ الحمراء إلى كاليفورنيا، والتذاكر الزرقاء إلى المكسيك.

(تعال) قال. (سنشتري ثياباً مستعملة نحرقها بعد أن تلوث بالتراب. انظر، نأخذ صاروخ الظهيرة إلى لوس انجيلوس، وفي الثانية بعد الظهر نستقل الهيليكوبتر إلى سانتا باربارا، وطائرة التاسعة إلى اينسينادا، وننام طوال الليل!).

مضينا إلى كاليفورنيا صعوداً ونزولاً إلى ساحل المحيط الهادئ، لمدة يوم ونصف، واستقرينا في النهاية على رمال ماليبولنطبخ طوال الليل. أبي كان دائماً يصغي أو يغني أو يراقب الأشياء فيما حوله، ممسكاً بها كما لو كان العالم في دوران دائب، وسينفلش في أية لحظة بعداً عنا.

آخر ظهيرة في ماليبو، أمي كانت في غرفة الفندق. وكان أبي يستلقي بجانبي على الرمل تحت الشمس الحارة. (آه) تنهد. (هذا هو). عيناه أغلقتا بهدوء، واستلقى على قفاه مرتشفاً أشعة الشمس. (أنت تفتقد ذلك). قال.

عني إنه يفتقد ذلك في الصاروخ طبعاً. إلا أنه لم يشعر مطلقاً إلى كلمة صاروخ، أو أشار إلى الصاروخ أو أي شيء يفتقده المرء في الصاروخ. إنك لا تستطيع الحصول على الرياح الملحية في الصاروخ ولا السماء الزرقاء أو الشمس الصفاء أو طعام أمي. لا يمكن الكلام عن الصاروخ مع صبي عمره أربعة عشر عاماً.

(دعنا نسمع ذلك) قال.

عرفت أننا الآن سنبدأ الكلام، كما فعلنا دائماً، ثلاث ساعات متواصلة. طوال ما بعد الظهيرة سندردش رواحاً ومجيئاً تحت الشمس الكسولة حول مستواي الدراسي، كم الارتفاع أستطيع القفز، وما هي سرعتي في السباحة.

كان أبي يومئ كل مرة أتكلم فيها ويبتسم لي أو يضربني على صدري بخفة وحبور. تكلمنا دون أن نشير إلى الصواريخ أو الفضاء، تكلمنا عن المكسيك، حيث امتطينا سيارة قديمة، وعن الفراشات التي أمسكناها في الغابات المدارية للمكسيك الخضراء الحارة في الظهيرة، وحيث شاهدنا مئات الفراشات مشفوطة داخل براد الموتور ميتة هناك، أجنحتها القرمزية منقبضة، كانت جميلة وحزينة. تكلمنا عن تلك الأشياء بدلاً من الأشياء التي كنت راغباً بالحديث عنها. وكان يصغي إلي. هذا هو الشيء الذي فعله، كما لو كان يحاول ملء روحه بجميع الأصوات التي يستطيع سماعها. أصغى إلى الريح وأمواج المحيط وصوتي، دائماً باهتمام ذاهل، بتركيز يستثني الأجساد ذاتها ويحتفظ بالأصوات فقط. أغلق عينيه ليصغي. كنت غالباً ما أراه يصغي إلى صوت الحصاد حين يقطع العشب بواسطة اليد بدلاً من استخدام جهاز القطع ذاتي الحركة، وكنت أراه يشم العشب المقطوع حالما ينتثر عليه في المرج الأخضر.

(بوك) قال، في حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، بينما كنا نلتقط مناشفنا راجعين على طول الشاطئ قريباً من الموج (أريد منك أن تعدني بشيء).

(ما هو؟).

(لا تصبح رجل صاروخ على الاطلاق).

توقف.

(أنا أعني ذلك). قال: (لأنك حين تكون هناك تود لو كنت هنا، وحين تكون هنا، تود لو تكون هناك. لا تقم بذلك. لا تجعل الأمر يتلبسك).

(لكن).

(إنك لا تعرف. كل مرة أكون في الفضاء أفكر أنني إذا ما رجعت إلى الأرض سأبقى هناك. لن أخرج إلى الفضاء ثانية. لكنني أعود إلى الفضاء كل مرة، وأظن أنني سأعود إلى هناك دائماً).

(لقد فكرت منذ زمن طويل في أن أكون رجل صاروخ) قلت.

لم يسمعني. (أحاول البقاء هنا. السبت الفائت حين عدت إلى البيت بدأت أحاول بصلابة البقاء هنا).

تذكرته في الحديقة، متعرفاً، وجميع الرحلات والأعمال والإصغاء، وعرفت أنه قام بذلك ليقنع نفسه في أن البحر والمدن والأرض وعائلته، هي الأشياء الوحيدة الحقيقية والجميلة. وعرفت أنه الليلة سيكون في المدخل الأمامي للبيت مراقباً الألماس في كوكب أوريون.

(عدني أنك لن تكون مثلي) قال:

ترددت لحظة (أعدك) قلت:

صافحني ثم قال (إلى اللقاء).

كان العشاء لذيذاً تلك الليلة. تراكضت أمي في المطبخ مع قبضات من القرفة والرائحة والقدور والقلايات ذات الرنين، وثمة ديك رومي يتصاعد منه البخار على الطاولة، مغطى بصلصة الكرنب والحمص، وشرائح اليقطين.

(في وسط آب؟) قال أبي مستغرباً:

(لن تكون هنا في عيد الشكر).

(كلا).

شم الرائحة بعمق. رفع الغطاء عن كل طبق وترك البخار يجلل وجهه المحروق بالشمس. قال (آه) لكل واحدة منها. نظر إلى الغرفة ثم نظر إلى يديه. تطلع إلى الصور المثبتة في الجدران، وإلى الكراسي، والطاولة، إلي وإلى أمي. نظف حنجرته. رأيته يرتب أفكاره. (ليلي؟) (نعم؟) نظرت أمي خلال الطاولة حيث كانت تجلس كأنها فخ فضي رائع، حفرة عجائبية مميتة حيث، مثل الأزمنة القديمة عندما كان الحيوان يسقط في بركة من القار، ستمسك زوجها، رامقة من خلال صحون العظام، سالماً حتى النهاية.

(ليلي؟) سأل أبي:

استمر، فكرت بجنون. قلها بسرعة، قل إنك ستبقى في البيت هذه المرة، حسناً، ولن ترحل، قلها!

في اللحظة هذه هزت الغرفة هيليكوبتر عابرة، واهتزت أعمدة النافذة بصوت كريستالي. نظر أب من النافذة.

نجوم المساء الزرقاء كانت هناك، والكوكب الأحمر المريخ كان يرتفع في الشرق.

نظر أبي إلى المريخ دقيقة كاملة. ثم وضع يده بارتباك أمامي (هل تناولني قليلاً من الحمص؟) قال.

(آسفة، قالت أمي، أنا ذاهبة لجلب بعض الخبز).

اندفعت خارجة نحو المطبخ.

(لكن يوجد خبز على الطاولة) قلت.

لم ينظر أبي إلي حين بدأ يأكل.

* * *

لم أستطع النوم. نزلت إلى الأسفل في الواحدة صباحاً، وكان ضوء القمر يشبه الجليد على قمم البيوت، والندى يشع مثل الثلج فوق العشب. وقفت في المدخل بالبيجاما، شاعراً بحرارة الريح الليلية، وعرفت أن أبي كان يجلس في الأرجوحة الميكانيكية أمام البيت، يتمايل بخفة. كنت أستطيع رؤية ظله منسحباً إلى الخلف، وكان يراقب النجوم في السماء. عيناه تشبهان الكريستال الرمادي، وكان ثمة قمر في كل منهما.

مضيت إلى الخارج وجلست جنبه.

انزلقنا في الأرجوحة للحظات.

وفي الأخير قلت (كم طريقة للموت هناك في الفضاء؟).

(مليون).

(سم لي بعضها).

(تضربك الشهب. يتسرب الهواء من صاروخك. تأخذك المذنبات معها. تصادم. اختناق. انفجار. قوة طاردة. سرعة فائقة. سرعة بطيئة. الحرارة، البرد، الشمس، القمر، النجوم، الكواكب، التوابع، الكويكبات الإشعاع...)

(وهل يدفنونك؟).

(لا أحد يجدك).

(أين تذهب؟).

(على مبعدة بلايين الكيلومترات. قو مسافرة، يدعونها تصبح تابعاً أو كويكباً مسافراً خلال الفضاء إلى الأبد).

لم أقل شيئاً.

(شيء واحد) قال لاحقاً (الموت، إنه سريع في الفضاء. تنتهي هكذا. لا تتمهل. أغلب الأوقات لا تعرف به حتى. إنك ميت وهذا كل شيء).

مضينا إلى الأعلى للنوم.

* * *

كان الوقت صباحاً.

واقفاً في المدخل، كان أبي يستمع إلى الكناري الأصفر وهو يغني في قفصه الذهبي.

(حسناً، لقد قررت، قال أبي: عندما أعود في المرة القادمة إلى البيت سأبقى هنا).

(أبي!) قلت.

(خبر أمك حين تستيقظ) قال:

(هل أنت جاد؟).

هز رأسه بصلابة (سأراك بعد ثلاثة أشهر).

وهنا مضى إلى الشارع، حاملاً بدلته في صندوقه السري، مصفّراً وناظراً إلى الأشجار الخضراء الطويلة، ملتقطاً حبات الكرز من السياجات، قاذفاً بها من فوق رأسه، وكان يبتعد في ظلال الصباح اللامعة...

* * *

سألت أمي حول عدد من الأشياء ذلك الصباح، بعد ساعات من غياب أبي (قال أبي إنك بعض الأوقات تتصرفين كما لو إنك لا ترينه أو تسمعينه) قلت:

ثم شرحت لي كل شيء بهدوء.

(حين ذهب إلى الفضاء قبل عشر سنوات، قلت لنفسي لقد مات. أو إنه ميت. وبدأت أفكر به كميت وحين يعود ثلاث أو أربع مرات في السنة. لا يكن هو على الإطلاق، إنه فقط نفحة من حلم جميل أو ذاكرة وحين توقف الذاكرة أو الحلم فهما لا يؤذيان كثيراً. لذلك أغلب الأحيان أفكر فيه كميت...).

(لكن في الأوقات الثانية...)

(في الأوقات الثانية لا أستطيع الكف عن تلك المشاعر. أصنع الفطائر وأعامله كما لو كان حياً، وهذا يؤذي كثيراً. كلا، من الأفضل التفكير فيه على أنه لم يكن موجوداً لعشر سنوات وأنني لن أراه ثانية. هذا يجلب أقل قدر من الألم).

(ألم يحدث أن قال أنه سيبقى في المرة القادمة؟).

هزت رأسها ببطء وقالت (كلا، إنه ميت. أنا متأكدة من هذا).

(قبل عشر سنوات، قالت أمي، فكرت، ماذا لو مات فوق الزهرة، عندها لن نكون قادرين على رؤية الزهرة مرة أخرى. ماذا لو مات فوق المريخ؟ لن نستطيع النظر إلى المريخ ثانية، وكل ما هو أحمر في السماء، دون المضي إلى الداخل و غلاق الباب على أنفسنا. أو ماذا لو مات فوق جوبيتر أو ساتورن أو نبتون؟ في تلك الليالي عندما تكون هذه الكواكب عالية في السماء، لن نرغب بالتطلع أبداً إلى النجوم).

(أعتقد هذا قلت:

* * *

جاءت الرسالة في الصباح التالي.

أعطاها لي الرسول وقرأتها وأنا واقف في المداخل. كانت أمي تقف وراء حاجز الباب، تراقبني وأنا أطبق الرسالة وأضعها في جيبي.

(أمي؟) قلت:

(لا تقل لي أي شيء، أنا أعرف جيداً).

لم تبك.

حسناً، لم يكن المريخ، ولا الزهرة، لا جوبيتر ولا نبتون ما قتل أبي. لا ينبغي أن نفكر فيه كلما رأينا المريخ والزهرة وجوبيتر وساتورن ليلاً في السماء.

إنه الآن شيء آخر.

سفينته سقطت في الشمس.

والشمس كبيرة ونارية وخالية من الرحمة، وهي في السماء دائماً، ولن نستطيع الهرب منها.

بعد زمن طويل من موت أبي تعودت أمي على النوم في النهار ولم تخرج أبداً. كنا نتناول الفطور في منتصف الليلوالغداء في الثالثة صباحا، والعشاء في السادسة صباحاً قبل أن تشرق الشمس. كنا نذهب إلى العروض الليلية ونعود إلى البيت قبل الشروق.

ولزمن طويل جداً، لم نكن نخرج للمشي نهاراً إلا في الأيام التي تكون في السماء ماطرة وليس هناك شمس على الاطلاق.

النائحة

كانت ليلة من تلك الليالي، العابرة فوق إيرلندة، بين مقاطعات دبلن النائمة، حيث السديم غير المتوقع والضباب الذي يزيحها المطر، محولاً إياه إلى صمت مطبق. الريف كله هادئ وبارد ومنتظر. كانت ليلة توقعات غريبة في طرق متقاطعة خالية، تلفها أشباح عنكبوت، ورغم أن لا عنكبوت على امتداد مائة ميل.

بعيداً، صر ّت بوابات عبر الحقول، فيما خشخشت شبابيك بنور قمر سريع الزوال.

كان الجو جو سحر كما يقال. شعرت بهذا، عرفته لحظة ما كانت التاكسي تهمهم داخلة البوابة الأخيرة في بيت كورتون. كانت دبلن من البعد بحيث حتى لو ماتت خلال الليل، فلن يعرف بموتها أحد.

دفعت للسائق وراقبت التاكسي تستدير راجعة إلى المدينة الحية، تاركة إياي وحيداً مع عشرين صفحة في جيبي من سيناريو نهائي، ومخرج أفلام ينتظرني في الداخل. وقفت في صمت الليل، مستنشقاً إيرلندة ونافثاً غازات الفحم السامة من روحي.

ثم، قرعت الباب.

فاللحظة نفسها تقريباً، فتح الباب، وكان جون هامبتون هناك، وقد دس في يدي كأساً من الشر ّي ثم جذبني إلى الداخل.

(يا لله، ولد، لقدجعلتني فضولياً. اخلع معطفك. أعطني المخطوطة. أنهيتها، إيه؟ هكذا تقول. جعلتني فضولياً. أنا سعيد إنك اتصلت من دبلن. البيت فارغ كلارا في باريس مع الأطفال. سوف نقرأ المخطوطة جيداً، ننقحها، نشرب قنينة، نكون في الفراش عند الثانية... ماذا هناك؟)

لم يزل الباب مفتوحاً. خطا جون خطوة واحدة، أمال رأسه، أغلق عينيه، أصغى.

في الخارج هبت الريح على المروج. أحدثت في الغيوم صوتاً يشبه صوت أغطية سرير يقلبها شخص ما.

أصغيت.

كان هناك نواح وتنهد رقيقين، قادمين من مكان ما من الحقول المظلمة.

همس جون بعينين لا تزالان مغلقتين. (ولد، هل تعرف ماذا هناك؟).

(ماذا؟)

(أخبرك لاحقاً. هيا).

باصطفاق الباب، استدار الملاك الكبير للقصر الفارغ، وتخطاني بمعطفه المبتذل، وبنطاله القطني، وحذائه الملمع. شعره كعادته، مبعثر من السباحة برفقة التيار أو عكسه، مع نساء غريبات، في أسرة مألوفة.

زارعاً نفسه عند موقد المكتبة، واجهني بومضة من الضحك، كشفت عن أسنانه التي لمعت كأنها شعاع فنار برق ثم تلاشى، بينما كان يناولني الشر ّي الثاني نخب السيناريو.

(دعنا نرى، ما الذي أنتجه، مبدعي، بطيني الأيسر، بطيني الأيمن، أجلس. اشرب. راقب).

وقف منفرج الساقين أمام صخور الموقد، مدفئاً ظهره، مقلباً صفحات السيناريو، وكان يراقبني وأنا أشرب الشري بعجلة، مطبقاً عيني كل مرة يترك ورقة تسقط متأرجحة على السجادة. بعد انتهائه من القراءة ترك الورقة الأخيرة تطير، وأشعل سيجاراً صغيراً وراح ينفخ الدخان، محدقاً إلى السقف جاعلاً إياي أنتظر.

(يا ابن العاهرة) قال زافراً أخيراً (إنه جيد. عليك اللعنة، ولد. إنه جيد!).

انهار هيكلي العظمي كله في داخلي. لم أكن أتوقع هبة الإطراء تلك.

(هو بحاجة إلى قليل من التقطيع، طبعاً!).

عاد هيكلي العظمي إلى تجميع نفسه.

(طبعاً). قلت:

انحنى مثل شمبانزي هائل متدل ليجمع الأور اق ثم استدار. شعرت كما لو أنه يرغب بقذفها إلى النار. راقب اللهب وقبض على الصفحات.

(يوماً ما، ولد) قال بهدوء (عليك أن تعلمني الكتابة).

إنه الآن مسترخ، متقبل لما يحدث، مليء بإعجاب حقيقي.

(يوماً ما) قلت ضاحكاً (عليك أن تعلمني الإخراج).

("الوحش" سوف يكون فيلمنا، بني. فريق متكامل).

نهض وجاء لقرع الكأس معي.

(نحن فريق متكامل!) قال ثم غيّر الحديث (كيف حال الزوجة والأطفال؟).

(هم بانتظاري في سيسلي حيث الدفء).

(سنلحقك بهم، وبالشمس، عاجلاً! أنا).

تجمد باستثارة، أمال رأسه، وأصغى.

(هي، ما الذي يجري هنا...) همس.

استدرت وانتظرت.

هذه المرة، خارج البيت الكبير العتيق، كان هناك خيط صوت رقيق، أشبه بشخص يمرر أظفره على لوحة، أو شخص ينزلق نازلا من فرع شجرة جاف. بعدها جاءت زفرة من التنهد، متبوعة بشيء من الأنين.

انحنى جون بوضع مثير متخشب، مثل تمثال على مسرح صامت. صار فمه عريضاً كأنه يحاول السماح للأصوات بالوصول إلى إذنه الداخلية. عيناه الآن مفتوحتان واسعتان كبيضتي دجاجة ينث منهما توقع مفتعل.

(هل أخبرك عن ذلك الصوت، ولد؟ نائحة!).

(ماذا؟) صرخت.

(نائحة!) نعم. (أشباح النساء العجائز اللواتي يلازمن الطرق قبل ساعة من موت شخص ما. كان ذلك "هو" الصوت!).

خطا إلى النافذة، رفع الظلة، ثم أطل برأسه إلى الخارج. (شششش! ربما تقصدنا "نحن"!)

(توقف، جون!) ضحكت بهدوء.

(لا، ولد، لا.) ثبت نظراته بعيداً في الظلام، مستمتعاً بمسرحيته. عشت هنا عشر سنوات الموت هناك في الخارج. النائحة دائماً على "علم"! أين كنا!).

لك البساطة كسر أسار السحر. كر راجعاً إلى الموقد ثم رمق المخطوطة كما لو كانت صنفاً جديداً من الألغاز. لا تتصور، دوك، كم أن "الوحش" يشبهني كثيرا؟ البطل يركب البحار، يحرث النساء يميناً وشمالاً في كل أنحاء العالم، دون توقف. ربما لهذا سأعمله. لا تتخيل عدد النساء اللواتي عرفتهن؟ مئات! أنا).

توقف، لأن سطور مخطوطتي جذبت انتباهه مرة أخرى. راح وجهه يضيء بالنار، كلما غطست الكلمات في ذهنه.

(مدهش!).

انتظرت، قلقاً .

(لا، ليست المخطوطة!) قذف مخطوطتي جانباً ليقبض على نسخة من "التايمز" اللندنية موضوعة على رف الموقد.

(هذا! مراجعة مدهشة لمجموعتك القصصية الجديدة!).

(ماذا؟) قفزت من مكاني.

(اهدأ، ولد. "سأقرأ" عليك هذه المراجعة الرائعة. ستحبها. مدهش!).

غطس قلبي في صدري. ها هي نكتة أخرى قادمة، أو، الأسوء، الحقيقة الرمزية، على شكل نكتة.

رفع جون "التايمز" وراح يقرأ، كأنه آخاب الكتاب المقدس.

(قصص دوكلاس روجرز ربما ستكون الأوسع نجاحاً في الأدب الأمريكي...) توقف جون وغمز لي ببراءة قال (ما رأيك، ولد، ها؟).

(استمر، جون) قلت نائحاً . أفرغت كأسي. كانت ضربة النقد تلك قد انزلقت إلى الأسفل لتلاقي إرادة متداعية.

(لكن هنا في لندن) ترنم جون (نطلب من قصاصينا أكثر من الحكايا. بنزوعه لمنافسة أفكار كبلنج، أسلوب موكهام، ذكاء ووف، غرق روجرز في مكان ما من الأطلنطي. هذه المادة المتداعية، لم تكن تقريباً إلى ظلالاً للمؤلفين العظام. دوكلاس روجرز، عد إلى بلدك!)

وثبت واقفاً وجريت، لكن جون قذف بالتايمز إلى النار، بحركة كسولة من يده، إذ رفرفت مثل طير محتضر ثم همدت بين اللهب والشرر المتطايرين.

يتزن مختل، محدقاً إلى الأسفل، كنت راغباً في إخراج تلك الجريدة اللعينة، لكن في النهاية، داخلني السرور لضياعها.

درس جون وجهي ببهجة. كان وجهي يغلي، وأسناني منطبقة بعنف. يدي المتشبثة برف المدفأة، قبضة صخرية باردة.

عيناي تفجرتا بالدموع، طالما لم تستطع الكلمات الخروج من فمي المتشنج.

(ما الأمر، ولد؟)

أمعن جون النظر في ّ بفضول حقيقي، وكان مثل قرد يقترب بحذر من حيوان مريض آخر في القفص. (هل تشعر بالبؤس؟)

(جون، بربك!)، انفجرت غاضباً واستدرت لأحملق فيه بعينين طافرتين بالدموع (ما "الأمر" معك؟).

(اللعنة، لا شيء، دوك. كانت مراجعة عظيمة! أضفت إليها بعض الأسطر فقط، لأقع على طويتك!)

(لا يمكنني أن أعرف الآت مطلقاً). تباكيت. (انظر!)

ركلت الرماد ركلة أخيرة، مبعثرة.

(بإمكانك شراء نسخة غداً من دبلن، دوك. سوف ترى. إنهم يحبونك، يا إلهي، فقط لا أريدك أن تمتلئ بالغرور، صحيح. النكتة انتهت. ألا يكفي بني العزيز، أنك كتبت أرفع المشاهد بحق للسيناريو العظيم، لم تكتبها مسبقاً في حياتك؟)

وضع جو ذراعيه حول كتفي ّ .

ذلك هو جون: يركلك إلى الحضيض، ثم يسكب إليك أحلى العسل.

(تعرف ما هي مشكلتك، دوك؟ وضع بين أصابعي المرتعشة كأساً أخرى من الشرى (إيه؟).

(ماذا؟) لهثت مثل صبي متباكي، أحسست بالانتعاش ورغبت بالضحك مرة أخرى. (ماذا!)

(الأمر هو، دوك...) جعل جون وجهه يشع. عيناه تشبثتا بعيني. (أنت لا تحبني بقدر نصف حبي لك!).

(دعك من هذا الجنون...).

(ولد، أنا "أعني" ما أقول. يا إلهي، بني، بإمكاني أن أقتل من أجلك. أنت أعظم كاتب حي في العالم، وأنا أحبك، قلباً وروحاً. لهذا، فكرت أنك تحتمل قليلاً من المناكدة. أرى أنني كنت مخطئاً..).

(كلا، جون) احتججت، كارهاً نفسي، فهو الآن الذي جعلني أقدم اعتذاري. (كل شيء على مايرام).

(أنا آسف، ولد آسف فعلاً...).

(كفى!) قهقهت. (أنا لا أزال أحبك. أنا...).

(مرحى لك! الآن...) مضى جون دائراً، فاركاً راحتيه معاً، ثم راح يلخبط أوراق المخطوطة ويعيد لخبطتها، مثل لاعب ورق غشاش. (دعنا نمضي ساعة بتقطيع هذه المشاهد الرائعة، الفتنة التي كتبتها، ثم...)، للمرة الثالثة في هذه الليلة، تغير لون مزاجه وإيقاعه.

(هست!) صرخ. وبعينين تنظران شزراً، ترنح وسط الغرفة، كرجل ميت تحت الماء.

(دوك، هل تسمعه؟).

هزت الريح البيت. أظفر طويل حك عموداً من أعمدة مخبأ همس لاهث لغيمة غسلت القمر.

(لنائحة). هز رأسه وانحنى، منتظراً.

حدق إلى الأعلى، بصورة فظة. (دوك، إمض خارجاً و"انظر").

(اللعنة سأمضي).

(هيا، اذهب). إلخ جون. (إنها ليلة الاعتقادات الخاطئة، ولد. لقد شككت "بي"، لقد شككت "بوجودها". سأجلب معطفي من الردهة. هيا!).

نتر باب الخزانة وأخرج معطفه التويدي الضخم الذي تفوح منه رائحة تبغ وويسكي فاخر. قابضاً عليه بين يديه القرديتين، أومأ إلى المعطف كما لو كان رداء مصارع ثيران. (هه، ثور! هه!).

(جون) تنفست، بإرهاق.

(أم أنت جبان، دوك. هل أنت خائف؟ أنت...).

هنا، وللمرة الرابعة، سمع كلانا تنهيدة، بكاء، همهمة متلاشية خلف باب الشتاء الأمامي.

(إنها تنتظر، ولد!) قال جون بهيئة احتفالية. (أخرج إلى هناك. أركض إلى "الفريق"!)

كنت منزعجاً من رائحة التبغ والمسكرات التي تفوح من المعطف، وقد أسكتني جون بجلاله الملكي وأمسك أذني وقبل حاجبي.

(سوف أكون الشاهد، ولد أحييك من بعيد. أستطيع الذهاب معك، لكن النائحات خجولات. بوركت، بني، وإن لم ترجع – أحببتك مثل ابني!).

(يا يسوع). زفرت، وفتحت الباب على سعته.

لكن فجأة قفز جون وحال بيني وبين نور القمر البارد الفياض.

(جون) أبعدت يديه عني (أنت "تريدني" أن أذهب إلى الخارج. من المحتمل أنك دفعت كيلي، فتاة الإسطبل، لتقف هناك، تقوم بكل هذه الضجة لمجرد إضحاكك..).

(دوك!) بكى بطريقته الجادة التي يجيد تنفيذها، وأطبق عينيه، وهو يمسك بكتفي. (أقسم بالله!).

(جون) قلت نصف غاضب، نصف مندهش (إلى اللقاء).

ركضت خارج الباب مليئاً بأسى مفاجئ. صفق البوابة وأغلقها. هل كان يضحك؟ بعد ثوان رأيت خياله على لفذة المكتبة، بيده كأس الشرى، مطيلاً التحديق إلى مسرح الليلة، إذ كان فيها المخرج والمشاهد المرح معاً .

دو ّمت مع لعنة هادئة، جامعاً كتفي ّ في عباءة "قيصر" تجاهلت طعنات الريح الباردة. مشيت في خطى ثقيلة على الطريق المكسو بالحصى.

سأمضي عشر دقائق سريعة، فكرت، لأقلق جون، وأقلب نكتته بطناً لظهر، أدخل بعدها مترنحاً ، مشمر القميص ونازفاً ، مع حكاية مختلفة من عندي. نعم، يا الله، "تلك" كانت الحيلة...

توقفت.

ففي عقدة من الأشجار، خيل لي أنني رأيت شيئاً يشبه طيارة ورقية واسعة، تفتحت ثم تلاشت بين الأسيجة الشجرية.

أبحرت الغيوم على قمر شبه مكتمل، وأسقطت علي ّ جزراً من الظلام جللتني.

ثمكانت هناك مرة ثانية، على مبعدة، كما لو أن عنقوداً كاملاً من الأزهار تبعثر فجأة ليتطاير على طول الممر المعتم. في اللحظة نفسها، كان ثمة قبضة من تنهد ضئيل، وصر ير خافت من النواح.

جفلت، تراجعت، ثم نظرت بعيداً نحو البيت. كان وجه جون في النافذة، ضاحكاً ، أشبه بيقطينة، يرتشف الشري بدفء وانبساط.

(آووه) أعول صوت في مكان. (... يا إلهي...).

عند هذه اللحظة رأيت المرأة.

وقفت مستندة على شجرة، برداء طويل، قمري اللون غطته بشال صوفي ثقيل يمتلك حياته الخاصة، إذ كان يتلوى ويتطاير مع الهواء.

بدت كما لو أنها لم ترني أو أنها رأتني لكن لم تعر الأمر أهمية: أنا لا أستطيع إخافتها، لا شيء في الوجود يمكن أن يخيفها مرة ثانية أبدا . نظرتها الثابتة المطمئنة تنصب على البيت، على تلك النافذة، المكتبة، والصورة الظلية للرجل الواقف في النافذة.

كانت تمتلك وجهاً من الثلج، مقطوعاً من ذلك المرمر الأبيض البارد الذي تصنع منه أجمل نساء إيرلندة، رقبة بجعية طويلة، فم كريم، وعينان ذاتا خضرة نيرة. فائقتا الجمال كانت تلكما العينين، وكان أيضاً مظهرها الجانبي المقابل لأغصان الشجرة المتطايرة، أحسست بأن شيئاً ما في تهاوى، احتضر، ومات. أحسست بذلك العذاب القاتل الذي يشعر به الرجال حين يمر بهم الجمال مرة وإلى الأبد. تود أن تصيح: ابقي. أحبك. لكنك لا تستطيع الكلام. إلى أن يغادر الصيف جسدها، دون عودة.

غير أن المرأة الجميلة التي تحدق إلى النافذة فقط في البيت البعيد، راحت تتكلم الآن قائلة:

(أهو هناك في الداخل؟).

(ماذا؟) سمعت نفسي أقول.

(أنه هو، أليس كذلك؟) تساءلت متعجبة. (الوحش) قالت بغضب هادئ. (المسخ نفسه).

(لا...).

(الحيوان الكبير) مضت تقول، (الذي يمشي على ساقين، يبقى هو. جميعهن يمضين. يمسح يديه بالأجساد، الفتيات مناديله، النساء غداء منتصف الليل. إنه يحتفظ بهن في القبو مخبآت معتقات، يعرف أعمارهن لكن لا يعرف أسماءهن. يا يسوع الحبيب، و"هو" هناك أليس كذلك؟)

نظرت إلى حيث كانت تنظر، نحو الظل في النافذة، عبر ساحة لعبة الكركيت.

وفكرت بمخرجي في باريس، في روما، في نيويورك في هوليود، والنساء من مختلف الأعراق اللواتي رأيت جون يلهو بهن، يطبع على جلودهن قدميه. نساء سهلات كن يرقصن على الطاولات، متلهفات للإطراء، وجون في طريقه للخروج يقول (عزيزي، أعرني خمسة دولارات. ذلك الشحاذ عند الباب قتل قلبي..).

راقبت هذه المرأة الشابة، التي تطيّر الريح شعرها الفاحم، وسألت:

(من "يفترض" به أن يكون؟).

(هو) قالت (هو الذي يعيش هناك وكان يحبني ولم يعد كذلك الآن).

أغلقت عينيها لتدع الدموع تتساقط منهما.

(لم يعد يعيش هناك). قلت.

(نعم يعيش!) احتدمت، كما لو تريد الضرب أو البصق (لماذا تكذب؟).

(اصغي إلي). نظرت إلى الثلج الناصع لكن القديم، في وجهها (كان ذلك في زمن آخر).

(كلا ليس هناك إلا "الآن"). بدت كما لو أنها ستندفع نحو البيت. (ولازلت أحبه كثيراً، للحد الذي أستطيع أن أقتل من أجله، وأفقد روحي في النهاية!).

(ما هو اسمه؟) وقفت في طريقها. "اسمه"؟).

(لماذا؟ ويل، طبعاً. ويلي. ويليم).

تحركت. رفعت ذراعي وهززت رأسي.

(هناك جوني فقط الآن. جون)

(أنت تكذب! إنني أشعر به هناك. اسمه. تغيّر، لكنه "هو". انظر! تحسس!).

رفعت يديها لتلمس الريح القادمة من البيت، واستدرت أنا أيضاً ثم شاركتها اللمس، وكانت الريح ريح سنة أخرى، وزمان آخر. هكذا قالت الريح، قالت الليلة والقبس الملتمع في النافذة الكبيرة حيث يقف الظل. (إنه هناك!).

(واحد من أصدقائي). قلت برقة.

(هو ليس صديق أحد، مطلقاً!).

حاولت النظر خلال عينيها وفكرت: يا إلهي، هل كانت الأمور على هذهالشاكلة دائماً؟ دائماً ثمة رجل ما في ذلك البيت، لأربعين، ثمانين، مائة سنة قبل اليوم! لا الرجل نفسه، لكن كل من كان على تلك الصفة، وهذه الفتاة الضائعة على الطريق، بثلوج ذراعيها التواقتين للحب، وجمد قلبها الباحث عن الراحة. لا تفعل شيء سوى الهمس والدندنة والنواح والتنهد إلى أن يهمد نشيجها حال ارتفاع الشمس ثم تعود ثانية عند صعود القمر!

(ذلك هو صديقي في الداخل). قلت ثانية.

(إن كان ما تقول صحيحاً) همست بعنف (فأنت عدوي!).

نظرت أسفل الطريق، حيث بعثرت الريح الغبار حول بوابة المقبرة.

(ارجعي من حيث أتيت) قلت.

نظرت إلى الطريق نفسه والغبار نفسه، ثم قالت مرتعشة الصوت (ألا يمكن أن يحل السلام، إذاً؟ هل كتب علي الطواف هنا، سنة بعد سنة، من دون انتقام؟).

(إن كان الرجل هناك، هو ويل حقيقة، فماذا تطلبين مني أن أفعل؟) قلت.

(أرسله خارجاً إلي). قالت، بهدوء،

(ماذا ستفعلين به؟).

(استلقي معه) همهمت (ولن يفيق مرة أخرى. سيترك مثل صخرة في نهر بارد).

(آه) قلت، وهززت رأسي.

(هل يمكنك الطلب منه أن يأتي إذن؟).

(كلا. فهو ليس بصاحبك. يشبهه كثيراً. قريب الشبه. ويفطر بفتيات ثم يمسح فمه بحريرهن، قرن من القرون يدعى كذا، والقرن الآخر كذا...).

(ولا حب في قلبه، البتة؟).

(إنه يطلق الكلمات مثلما يلقي الصيادون شباكهم إلى البحر). قلت.

(آه، إلهي، وقد صادني أنا!)، وهنا أطلقت صرخة جعلت الظل في البيت الكبير يتقدم إلى النافذة ليطل منها إلى ساحة الكركيت. (سأظل في مكاني بقية الليلة)، قالت (سيشعر بوجودي لا محالة، سيذوب قلبه، لا يهم ماذا يدعى، وكم شريرة روحه. أية سنة هذه؟ ما طول المدة التي لبثتها منتظرة؟)

(لا أستطيع إخبارك، ستمزق الحقيقة قلبك). قلت.

استدارت ونظرت إلي ّ برقة. (أأنت واحد من الرجال الطيبين إذاً، الذين لا يكذبون أبداً، ولا يؤذون أبداً ولا يخفون شيئاً؟ يا إلهي الرحيم، ليتني تعرفت عليك أولاً!).

الريح تعالت، وتعالى هبوبها في حنجرتها، ودقت ساعة في مكان بعيد من الحقول المحيطة بالمدينة النائمة.

(ينبغي علي أن أذهب) قلت. أخذت نفساً وسألتها (ألا توجد طريقة ما أقوم بها لأعطيك الراحة؟).

(كلا، لأنك لست الشخص الذي قطّع أعصابي).

(أفهم.) قلت.

(لا تفهم لكنك تحاول. أشكرك جداً على هذا. ادخل. وإلا ستموت).

(وأنت...؟)

(هه!) بكت (أنا ميتة منذ فترة طويلة. لا موت بعد ذلك. امض!).

بسعادة مضيت. لأنني كنت مليئاً بالليل البارد والقمر الأبيض، مليئاً بالماضي والحاضر. دفعتني الريح على المرتفعات العشبية، وعند الباب، استدرت. لم تزل واقفة على الطريق الحليبي، شالها يخفق في الهواء، ويدها مرفوعة فوق رأسها.

(أسرع) فكرت أني سمعتها تهمس (خبره إنه محتاج إليه!).

صدمت الباب واندفعت إلى داخل البيت، وتداعيت في منتصف البهو، قلبي يخفق بعنف، صورتي في مرآة البهو الواسعة شاحبة مصعوقة.

وجدت جون في المكتبة يرتشف كأساً أخرى، فما كان منه إلا أن قدم لي كأساً من الشرى وقال (يوماً ما، سوف تتعلم أن تشتري ما أقوله لك بثمن أغلى من حبة الملح، يا يسوع، أنظر إلى نفسك! أنت بارد كالثلج. ابتلع خمرتك ها هي كأس أخرى جاهزة!).

شربت. سكب. شربت. (أكل ما يحدث نكتة، إذاً؟).

(هل يعدو الأمر "ذلك"؟).

من خارج البيت تصاعدت الدندنة مجدداً، النواح الضئيل، كما لو أن القمر يحك السطح بأظفره.

(تلك هي نائحتك). قلت ناظراً إلى شرابي غير قادر على الحركة.

(أكيد، ولد، أكيد، أووهو) قال جون (احتس شرابك، دوك، وسوف أقرأ عليك ثانية تلك المراجعة العظيمة حول كتابك في جريدة "التايمز".

(لقد أحرقتها، جون)

(أكيد، ولد، غير أني أتذكرها جيداً كما كتبت هذا الصباح، اشرب).

(جون) قلت وأنا أحدق إلى النار، وأنظر إلى الموقد حيث رماد الجريدة يتطاير بلهاث كبير. (هل كانت المراجعة موجودة حقيقية؟).

(يا إلهي، طبعاً، أكيد، نعم. في الواقع...) تمهل برهة وأعطى لنفسه هيئة عظيمة من التركيز. (التايمز كانت تعرف حبي لك، دوك، فسألتني كي أراجع كتابك)، مد جون ذراعه وأعاد ملء كأسي وقال (قمت بذلك، تحت اسم مستعار طبعاً، الآن هل كان في المسألة تبجح مني؟ لكن فضلت أن أكون عادلاً، لذلك كتبت عن الأشياء الجيدة في كتابك، والأشياء التي ليست بجيدة. انتقدته كما أفعل حين تسلمني مشهد سيناريو ركيك وأطلب منك العمل عليه من جديد. الآن، أليس الأمر مطلق النبل مني؟ ايه؟).

انحنى علي ّ، ووضع يده على خدي ورفعه إليه ثم نظر طويلاً بود في عيني.

(أنت لست قلقاً؟).

(كلا). قلت لكن صوتي تهدج.

(إن كنت قلقاً فأنا أعتذر. نكتة، ولد، نكتة فقط).

وهنا وجه لي ضربة ودودة على ذراعي.

عاد التنهد يلف البيت، خفيفاً كالسابق.

(أتمنى لو لم تختلق تلك النكتة، أتمنى لو كانت المقالة حقيقية). قلت.

(أنا أيضاً، ولد. تبدو مستاء. أنا...).

الريح دومت حول البيت. النوافذ خشخشت وهمست.

قلت فجأة، دون سبب أعرفه:

(النائحة. إنها هناك في الخارج).

(تلك نكتة كانت، دوك. عليك الحذر مني).

(لا) قلت ناظراً إلى النافذة. (إنها هناك).

ضحك جون. (رأيتها، أليس كذلك؟).

(فتاة لذيذة ترتدي شالاً وسط الليلة الباردة. فتاةٍ بشعر طويل وعينين واسعتين خضراوين وطلعة تشبه الثلج وحاجب فينيقي فخور. نوع من النساء لم تعرفه مطلقاً في حياتك، جون؟).

(آلاف). ضحك جون بهدوء فائق هذه المرة، وهو ينظر مدى جدية نكتتي. (يا للجحيم..)

(إنها بانتظارك عند نهاية الطريق).

بشك رمق جون النافذة.

(ذلك هو الصوت الذي سمعناه. لقد أعطت أوصافك، أو أوصاف آخر شبيه. يدعى ويلي. لكني "عرفت أنك المقصود).

اندهش جون... (شابة وجميلة تقول وهي هناك في هذه اللحظة؟).

(أكثر جمالاً من كل النساء اللواتي عرفتهن.)

(لا تحمل سكيناً ...؟).

(عزلاء).

زفر جون. (حسناً إذن، أعتقد أني سأمضي إلى هناك للحديث معها، إيه، ماذا تعتقد؟).

(إنها منتظرة).

مشى تجاه الباب الأمامي.

(ارتد معطفك، فالليلة باردة). قلت.

كان يرتدي معطفه حين سمعنا الصوت في الخارج، واضحاً جداً هذه المرة. النحيب ثم التنهد ثم بعدها النحيب أيضا .

(يا ربي) قال جون، ويده على مقبض الباب. نفذت الريح إلى الداخل، حاملة معها نواحاً متقطعاً .

وقف جون وسط الهواء البارد، ناظراً إلى الطريق الطويل الذائب في الظلام.

(انتظر!) صرخت في اللحظة الأخيرة.

انتظر جون.

(بقي أمر ينبغي لي إخبارك به. إنها هناك، أجل. وهي تمشي. لكن... إنها ميتة).

(لست خائفاً). قال جون.

(كلا، لكن أنا الخائف. لن تعود. على الرغم من كرهي لك اللحظة، لكن لا أستطيع أن أتركك تذهب. أغلق الباب، جون).

التنهد من جديد، ثم النواح بعده.

(أغلق الباب).

خطوت لأسحب يده عن مقبض الباب النحاسي، لكنه تلفسبه بقوة. هز رأسه، تطلع في ّ ثم تنهد.

(أنت بارع حقيقة، ولد. بارع كبراعتي تقريباً . سأضعك في فلمي القادم. ستكون نجماً).

بعد ذلك استدار. خطا خارجاً إلى الليل البارد، ثم أغلق الباب بهدوء.

انتظرت حتى سمعت خطواته على الممر الحصوي، فرتجت الباب، ثم سارعت لإطفاء الأضواء داخل البيت. حين خطوت عبر المكتبة، كانت الريح تعول في المدخنة، مبعثرة الرماد الأسود لـ "التايمز" عبر الموقد.

وقفت أتطلع إلى الرماد فترة طويلة، ثم أفقت إلى نفسي، فركضت صاعداً الدرج درجتين درجتين بقفزة واحدة، فتحت باب غرفتي المعلقة في البرج، صفعت الباب، خلعت ملابسي، وكنت في السرير والأغطية فوق رأسي حين دقت ساعة المدينة، بعيداً، معلنة الواحدة صباحاً.

وكانت غرفتي عالية جداً، ضائعة في البيت والسماء، لا يهم من وماذا يطرق أو يدق أو ينقر على الباب الأسفل لا يهم من يهمس أو يتوسل أو يصرخ...

فمن بإمكانه السماع؟

* * *

مخابرة المكسيك

وهكذا في ذلك النهار والجميع حولك، الجميع يسمع تساقط التفاح، واحدة بعد أخرى، من الأشجار. في البداية واحدة هنا وأخرى هناك، ثم أصبحت ثلاثاً ثم أربعة ثم تسعاً ثم عشرين، إلى أن تساقط التفاح مثل المطر.تسقط التفاحات مثل حصان يركض في حقل ناعم داكن من العشب، وأنت التفاحة الأخيرة في الشجرة، وأنت تنتظر الريح التي تحررك ببطء من السماء الممسكة بك، وتسقطك إلى الأسفل إلى الأسفل. قبل أن ترتطم بالعشب ستكون قد نسيت إن كان ثمة شجرة، أو تفاح آخر، أو صيف، أو عشب أخضر في الأسفل. سوف تسقط في الظلمة...

(كلا!).

حفتلكولونيل فرايلي عينيه سريعاً، وحر ّك كرسيه. مد يده الباردة محاولاً إيجاد التلفون. إنه لا يزال هناك. ضغطه إلى صدره لدقيقة، وغمز بعينيه.

(لا أحب ذلك الحلم) قال لغرفته الفارغة.

بعد ذلك، وبأصابع مرتجفة، رفع السماعة واتصل بعاملة البدالة التي تفصلها عنه مسافات طويلة، وأعطاها رقماً ولتنظر، مراقباً باب الغرفة كما لو أن عاصفة من الأبناء والبنات والأحفاد والممرضات والأطباء، ستحتشد في أية لحظة لتمسك رغبته الحيوية التي سمح بها لحواسه المتهاوية. عدة أيام، أو كانت سنة ماضية، حين أحس بطعنة خنجر في قلبه نفذت إلى أضلاعه ولحمه، وقد سمع الأطفال تحت... أسماؤهم، ماذا كانت تدعى؟ جارلس، شارلي، جوك، نعم! ودوكلاس! وتوم! تذكر! يستدعونه من بعيد، لكن الباب كان مغلقاً في وجوههم، الأولاد يغيبون. لا يمكنك أن تنفعل، قال الطبيب: لا زائرون، لا زائرون، لا زائرون. وسمع الأولاد يمضون في الشارع، رآهم، أشار لهم بيده. ثم ردوا التحية (كولونيل.. كولونيل..) وهو الآن يجلس وحيداً مع قلب اصطناعي يشبه ضفدعاً رمادياً يتمايل على هذا الجانب أو ذاك بين لحظة وأخرى.

(كولونيل فريلي) قالت مشغلة البدالة: (هذه مكالمتك. المكسيك، ايركسون. 3899).

والآن رغم المسافة البعيدة جاء الصوت واضحاً.

(مرحباً).

(جورج) بكى الرجل العجوز.

(السيد فريلي! مرة أخرى! هذا يكلف نقوداً!).

(دعه يكلف، أنت تعرف ماذا تفعل).

(نعم. النافذة).

(النافذة جورج، إذا سمحت).

(لحظة) قال الصوت.

ثم، على بعد آلاف الأميال، في بلد جنوبي، وفي مكتب يقع في بناية في ذلك البلد، كان ثمة وقع أقدام تبتعد عن التلفون. انحنى الرجل العجوز ممسكاً بالسماعة بقوة إلى أذنه التي بدأت تحكه انتظاراً للصوت القادم.

ارتفاع النافذة.

(آه) تنهد الرجل العجوز.

صوت مدينة المكسيك ارتفع في الظهيرة الصفراء الحارة من خلال النافذة المفتوحة نحو التلفون المنتظر. يمكنه أن يرى جورج واقفاً في النافذة ممسكاً السماعة خارجاً في النهار المشع.

(سيد).

(كلا، كلا رجاء، دعني اسمع).

أصغى إلى صياح العديد من الزمارات المعدنية، وأصوات الكوابح، ونداءات باعة الموز الأحمر والبرتقال البري الموضوع في السلال. قدم الكولونيل فريلي بدأت تتحرك، بينما هي مدلاة من حافة كرسيه المتحرك، كما لو كان يمشي. أطبق عينيه بقوة. قام باستنشاق عميق، كما لو كان يجمع رائحة اللحم المعلق في الخطافات الحديدية في أشعة الشمس، وهي مغطاة بالذباب مثل دثار من الزبيب، رائحة الأزقة الحجرية المشبعة بالمطر الصباحي. يمكنه أن يحس بالشمس تحرق فكيه المشعرين، إنه يعود إلى عمر الخامسة والعشرين مرة ثانية، ماشياً، ناظراً، شاماً، سعيداً إنه حي، متوفزاً، مغموراً بالألوان والروائح.

طرقات على الباب. أخفى التلفون سريعاً تحت ردائه.

دخلت الممرضة. (أهلاً، هل أنت بخير؟).

(نعم)، وكان صوت الرجل العجوز جافاً. كان بالكاد يرى صدمة الطرق البسيط على الباب، بعد أن ظل جزء من روحه في مدينة أخرى أزاحته بعيداً، انتظر أن يعود ذهنه إلى مكانه، ينبغي أن يكون هنا كي يجيب على الأسئلة، يتصرف بعقل، ويكون مؤدباً.

(أتيت لأقيس نبضك).

(ليس الآن) قال العجوز.

(لست ذاهباً إلى أي مكان، أليس كذلك؟) قالت الممرضة مبتسمة.

نظر إلى الممرضة بثبات. لم يمض إلى أي مكان منذ عشر سنوات.

(أعطني رسغك).

أصابعها، قاسية وثابتة، بحثت عن المرض من خلال نبضه مثل كماشة.

(ما الذي كنت تعمله لتثير نفسك بهذا الشكل؟) قالت آمرة. (لا شيء).

نظراتها توقفت على طاولة التلفون الخالية. في تلك اللحظة صاح زمور بخفة من بعد ألفي ميل.

أخذت السماعة من تحت ردائه وأمسكتها أمام وجهها. (لماذا تفعل ذلك بنفسك؟) وعدتني أن لا تفعل هذا، أليس كذلك. إنك توذي نفسك في المقام الأول، صحيح؟ تنفعل، تتكلمكثيراً. الأولاد في الأعلى يتقافزون حولك...).

(جلسوا بهدوء يصغون، قال الكولونيل، وأخبرتهم بأشياء لم يسمعوا بها مطلقاً. الجاموس الأميركي، أخبرتهم عن لبيسون. شيء قيم. أنا لا أهتم. كنت بحمى شديدة وكنت حياً. لا يهم إن كانت كثير من الحياة تقتل الرجل، إنه أمر جيد امتلاك حمى سريعة كل مرة. الآن ناوليني ذلك التلفون. إذا لم تسمحي للأولاد بالدخول إلي والجلوس بهدوء، فعلى الأقل أعطيني التلفون لكي أتكلم مع أحدهم خارج الغرفة).

(أنا آسفة كولونيل، حفيدك يجب أن يعرف هذا. أنا منعته من أخذ التلفون خارج الغرفة في الأسبوع الماضي. الآن يبدو أنني سأدعه يفعل ذلك).

(هذا بيتي، وهذا تلفوني، وأنا من يدفع لك الراتب).

(هذا لكي تكون أفضل،ومن دون انفعالات). قالت ودرجت الكرسي وسط الغرفة: (إلى الفراش أيها الشاب).

من الفراش نظر إلى التلفون وأطال النظر.

(أنا ذاهبة إلى المخزن لبضع دقائق). قالت الممرضة: (ولكي أتأكد من أنك لن تستخدم التلفون، سأضع الكرسي في الصالون).

أخلت الغرفة من الكرسي الفارغ. سمعها في الأسفل تتوقف لتدير التلفون الخارجي.

هل تطلب المكسيك؟ استغرب من الأمر. لا يمكن أن تجرؤ.

أغلق الباب الأمامي.

فكر في الأسبوع الماضي هنا، وحيداً، في غرفته، والاتصالات السرية المخدرة عبر القارات، والبرازخ، وبلدان الغابات المطرية، وانجاد الأوركيد، البحيرات والتلال... كلام... كلام... إلى بوينس آيرس... ليما... ريو دي جانيرو...

رفع جسده في السرير البارد. غداً ليس هناك تلفون! أي أحمق بخيل كان! انزل ساقيه العاجيين الهشين خارج السرير، إنهما ناشفتان. بدتا كما لو كانتا شيئين أُلصقا بجسده في ليلة من الليالي، بينما أخذت رجلاه الشابتان وأحرقتا في الفرن. طوال سنوات، حطموا كل شيء عنده، يديه المتحركتين، ذراعيه، أطرافه، وتركوه بأعضاء بديلة غير نافعة مثل قطع الجبنة. والآن يعبثون بشيء أكثر حساسية هو ذاكرته، يحاولون قطع الاتصالات التي تقود إلى سنيّه الماضية.

قطع الغرفة بخطوات عنيدة. أمسك التلفون وانزلق إلى الحائط بجانب الباب. اتصل بعاملة التلفون البعيدة، قلبه يكاد ينفجر في صدره، وثمة اسوداد في عينيه.

(أسرعي، اسرعي).

انتظر.

(مرحبا؟).

(جورج، لقد قطعوا الخط).

(ينبغي ألا تتصل جنرال). قال الصوت البعيد.

(ممرضتك اتصلت بي، قالت أنك مريض جداً، يجب أن أغلق الخط).

(كلا جورج، رجاء!) توسل الرجل العجوز وأكمل: (للمرة الأخيرة، أصغ إلي. سيأخذون التلفون غداً، ويتعذر علي الاتصال بك بعد ذلك).

لم يعلق جورج بشيء.

استمر العجوز بالحديث: (بربك جورج، من أجل الصداقة، الصداقة القديمة. لا تعرف ماذا يعني الاتصال لي؟ أنت بعمري ولكنك تستطيع المشي. لم أذهب إلى أي مكان طوال عشر سنوات).

أسقط التلفون وغدا صدره ثقيلاً من الألم. (جورج، لازلت هناك أليس كذلك؟).

(إنها المرة الأخيرة) قال جورج.

(أعدك).

وضع التلفون البعيد عن الطاولة. مرة أخرى، الأشياء المألوفة ذاتها، وقع الأقدام، فترة الصمت، وفي النهاية فتح النافذة.

(أصغ) همس الرجل العجوز لنفسه.

سمع آلاف البشر تحت ضوء الشمس، والموسيقى الخافتة لأرغن يعزف مقطوعة لا ماريمبا، صوت جميل وراقص.

بعينين مغلقتين، وضع الرجل العجوز يديه أمامه كما لو كان يود التقاط صور لكاتدرائية عتيقة، جسده أثقل مع اللحم، أكثر شباباً، وشعوره بحرارة الاسفلت تحت قدميه.

أراد أن يقول: (لازلتم هناك أليس كذلك؟ جميعكم أيها الناس في القيلولة المبكرة، الدكاكين مغلقة، الأطفال الصغار ينادون على أوراق اليانصيب. جميعكم هناك يا أبناء المدينة. لا أصدق أنني كنت معكم ذات يوم. حين تفارق المدينة تتحول إلى خيال. أي مدينة، نيويورك، شيكاغو، مع بشرها، تصبح غير أكيدة من بعيد. مثلما أنا غير أكيد في الينويز، في مدينة صغيرة قرب بحيرة هادئة. نحن جميعاً غير مؤكدين بعضنا لبعض لأننا غير حاضرين بعضنا لبعض. لذلك فمن الجيد سماع الأصوات، ومعرفة أن مدينة المكسيك لازالت هناك وأن الناس يتحركون ويعيشون...).

جلس وهو يضغط السماعة بقوة على أذنه.

في النهاية، وكان الأوضح، أكثر صوت غير مؤكد على الإطلاق، صوت تراموي، ذاهب حول الزاوية، محمل بأناس غرباء وجميلين وسمر، وصوت بشر آخرين راكضين، منادين بأصوات راعشة أثناء ما كانوا يصعدون العربة ليختفوا وراء الزاوية، تاركين نداءات ورعشات جاءت تطن في الأسلاك من بعد آلاف الأميال...؟

جلس الرجل العجوز على الأرض.

الوقت يمضي.

فُتح باب الطابق الأسفل ببطء. صوت أقدام خفيف جاء متردداً، ثم راحت الخطوات تصعد الدرج همهمة أصوات.

(ينبغي ألا نكون هنا).

(لقد اتصل بي أقول لك. إنه يحتاج إلى ازعاج الزوار لا نستطيع تركه على الأرض).

(إنه مريض).

(أكيد. لكنه طلب مني المجيء بعد رحيل الممرضة. سنبقى ثانية نحييه و...)

فتح باب الغرفة واسعاً. ثلاث صبيان وقفوا ينظرون إلى العجوز الراقد على الأرض.

(كولونيل فريلي؟) قال دوكلاس بصوت خافت.

ثمة شيء في صمته جعلهم يبقون أفواههم مغلقة.

اقتربوا بحذر.

انحنى دوكلاس وفصل التلفون عن أصابع الرجل العجوز الباردة. رفع السماعة إلى أذنه وراح يصغي. سمع من بعيد آخر صوت غريب.

سمع على بعد ألفي كيلو متر صوت إغلاق النافذة.

رجال الأرض

من كان يطرق الباب لم يكن يرغب بالتوقف عن الطرق.

فتحت السيدة تت الباب وقالت (حسناً؟).

(هل تتكلمين الإنجليزية؟) قال الرجل الواقف مندهشاً.

(أنا أتكلم ما أتكلم). قالت المرأة.

(إنجليزية رائعة) كان الرجل يرتدي بدلة. كان يرافقه ثلاثة رجال، متعجلين، قذرين، ومبتسمين.

(ماذا تريدون؟) سألت المرأة بخشونة.

(أنت مريخية!) ابتسم الرجل (وبالتأكيد فإن التسمية غير مألوفة لك. إنها تعبير أرضي). أومأ إلى رجاله. (نحن من الأرض، أنا كابتن وليم، وقد حططنا على المريخ منذ ساعة. وها نحن هنا، الرحلة الثانية. كان هناك رحلة أولى، لكننا لم نعرف ما حدث لها. إننا هنا على أية حال. وأنت أول شخص مريخي نلتقيه).

(مريخي؟) قالت ثم ارتفع حاجباها إلى الأعلى.

(ما أريد قوله أنكم تعيشون على الكوكب الرابع للشمس، صحيح؟).

(مبدئياً) ثم نظرت إليهم.

(ونحن) ثم ضغط يده الوردية الثخينة على صدره (.. من الأرض، صحيح أيها الرجال؟).

(نعم سيدي) أجابت المجموعة.

(هذا هو الكوكب تير، قالت، إن كنت راغباً باستخدام التسمية الصحيحة).

(تير، تير) ثم ضحك الكابتن بانفعال (أي اسم مناسب، ولكن سيدتي اللطيفة، كيف تتكلمين مثل هذه الإنجليزية الرائعة؟).

(أنا لا أتكلم، أنا أفكر، بالتخاطر! يوم سعيد) ثم أطبقت الباب.

بعد لحظة كان هناك الطرق المريع ذاته مرة أخرى.

شقت الباب وقالت (ماذا الآن؟) مع قليل من الدهشة.

الرجل لازال هناك يحاول الابتسام، ينظر باستغراب. أشار بيده وقال (أعتقد إنك لا تدركين الأمر...).

(ماذا؟) قالت بغضب.

نظر الرجل إليها بدهشة وقال (نحن من الأرض.).

(ليس لدي وقت، قالت، عندي طبخ هذا النهار وتنظيف وخياطة وكل شيء. ربما ينبغي لكم رؤية السيد تيت، إنه في الطابق الأعلى في مكتبه).

(نعم) قال الكابتن مضطرباً، غامزاً. (دعينا نرى السيد تيت بأية طريقة).

(إنه مشغول) قالت ثم أطبقت الباب مرة أخرى.

كان الطرق هذه المرة عالياً أكثر مما يجب.

(انظري إلي) قال الرجل متباكياً حين فتح الباب من جديد، وقفز إلى الداخل كما لو كان يريد مفاجأتها، (هذه ليست طريقة صحيحة في معاملة الزوار!)

(فوق أرضيتي النظيفة) بكت (طين، اخرجوا، إن أردتم الدخول إلى بيتي اغسلوا أحذيتكم أولاً).

نظر الكابتن بفزع إلى حذائه المطين وقال (ليس هناك وقت لمثل هذه التفاهات، أعتقد إنه ينبغي أن يحتفل بنا). حدق إليها لفترة طويلة، كما لو أن نظراته ستجعلها تدرك الوضع.

(إن تسببتم بسقوط فطائري الكرستالية في الفرن) قالت (سأضربكم بالعصا.). تطلعت في داخل فرن صغير ساخن. رجعت محمرة الوجه. كانت عيناها صفراوين حادتين، جلدها ناعماً وداكناً، وكانت نحيفة وسريعة مثل حشرة. صوتها كان معدنياً وحاداً. (انتظروا هنا، سأرى إن كنت أستطيع السماح لكم بدقيقة مع السيد تت، ماذا تريدون؟).

وقف الكابتن مكفهراً كما لو أن السيدة ضربت يده بمطرقة. (قولي له أننا من الأرض، وهذا لم يحدث سابقاً على الإطلاق).

(ما هو الذي لم يحدث سابقاً)، رفعت يدها البنية وأكملت (لا يهم سأعود سريعاً.).

صوت خطواتها كان يزحف على الأرضية الصخرية للبيت.

في الخارج، سماء المريخ الزرقاء الفسيحة كانت حارة، ساخنة مثل مياه البحر العميقة. صحراء المريخ كانت تغلي مثل قدر طيني لما قبل التاريخ، أمواج الحرارة ترتفع وتنخفض. كان هناك سفينة صاروخية صغيرة ت فوق التلة القريبة. آثار أقدام كبيرة جاءت من الصاروخ نحو البيت الصخري هذا.

سمعوا أصوات شجار في الطابق الأعلى. الرجال في الداخل تطلع بعضهم إلى البعض، خلعوا أحذيتهم، مسدوا أقدامهم، ووضعوا أيديهم في أحزمتهم. صياح رجل قادم من الأعلى. جاوبه صياح امرأة. وبعد خمس دقائق بدأ الرجال الأرضيون يتمشون في المطبخ وصالة الاستقبال دون أن يعملوا شيئاً.

(سيجارة؟) قال واحد منهم.

أخرج أحدهم علبة وراحوا يدخنون. نفخوا تياراً بطيئاً وشاحباً من الدخان. ضبطوا بذلاتهم ومسحوا ألوانها. الأصوات في الأعلى استمرت بالهمهمة والحديث. نظر الكابتن إلى ساعته.

(خمس وعشرون دقيقة، أتعجب ما الذي يفعلونه فوق.). مضى إلى نافذة وراح يتطلع إلى خارج.

(نهار ساخن). قال واحد من الرجال.

(أجل)، رد واحد آخر في حرارة الظهيرة البطيئة. انقلبت الأصوات إلى همهمات ثم خمدت. لا صوت في البيت. والرجال لا يسمعون سوى صوت تنفسهم.

مرت ساعة من الصمت. (آمل أننا لم نسبب أي مشكلة). قال الكابتن. مضى واستطلع غرفة المعيشة.

السيدة تيت كانت هناك، تسقي أزهاراً نمت وسط الغرفة.

(عرفت أنني نسيت شيئاً ما) قالت ما أن رأت الكابتن. مضت إلى المطبخ. (آسفة) قالت وناولته مجموعة من الأوراق (السيد تيت مشغول جداً) ثم عادت إلى طبخها وقالت (إنه ليس تيت من ترغبون مقابلته هو السيد آي. خذ الأوراق إلى الحقل المجاور، قرب القناة الزرقاء، وسوف يخبركم السيد آي عن أي أمر تودون معرفته).

(نحن لا نريد معرفة شيء.). قال الكابتن معترضاً، ماطاً شفتيه. (نحن نعرف كل شيء).

(عندك الأوراق، ماذا تريد أكثر من ذلك؟) سألته بشكل مباشر، ولم تضف كلمة أخرى.

(حقاً) قال الكابتن، متردداً في المغادرة. وقف كما لو ينتظر شيئاً. بدا مثل طفل يحدق في شجرة ميلاد عارية. (حسناً يا رجال، لنمض.) قال الكابتن.

وخطى الرجال خارجين نحو النهار الساخن والصامت.

* * *

بعد نصف ساعة وبينما كان السيد آي يجلس في مكتبته مرتشفاً ناراً كهربائية من فنجان حديدي صغير، سمع أصواتاً في الطريق العام. انحنى من النافذة وراقب الرجال الأربعة المرتدين بذلاتهم وهم يتجهون نحوه.

(هل أنت السيد آي؟) نادوا عليه.

(أجل.).

(السيد تيت أرسلنا إليك.) صاح الكابتن.

(لماذا فعل ذلك؟) سأل السيد آي.

(كان مشغولاً).

(أمر مخجل. هل يعتقد أنني لا أملك ما أفعله لكي يرسل لي أشخاصاً هو غير راغب بالحديث معهم؟).

(هذا ليس مهماً سيدي) صاح الكابتن.

(إنه مهم بالنسبة لي. عندي كثير من القراءات. السيد تيت غير محترم. ليست المرة الأولى التي يكون فيها عديم الشعور معي. توقف عن أرجحة يديك حتى أنتهي أيها السيد. اسمع. الناس عادة ما يصغون لي حين أتكلم. وأنت يجب أن تسمع بدقة وإلا فلن أتكلم.).

بصعوبة فتح الرجال أفواههم وأغلقوها، وأصبحت شرايين وجه الكابتن تنبض بقوة، ودمعت عيناه بضع قطرات.

(الآن) قال السيد آي محاضراً بهم (هل تعتقدون إنه من العدل للسيد تيت ليكون سيء التصرف هكذا؟).

تطلع الرجال الأربعة إلى الأعلى من خلال الحرارة. قال الكابتن (نحن من الأرض.).

(أعتقد إنه سوء تصرف منه) تابع السيد آي.

(سفينة صاروخية. جئنا فيها. إنها هناك.).

(ليست هي المرة الأولى التي يكون فيها السيد تيت غير منطقي، هل تعرف؟).

(كل المسافة من الأرض.).

(سأتصل به وأخبره بذلك.).

(فقط نحن الأربعة، أنا وهؤلاء الرجال، فريقي.).

(سأستدعيه إلى هنا، نعم سأفعل.).

(أرض. صاروخ. رجال. رحلة. فضاء.).

(سأستدعيه وأعطيه صفعة.) بكى السيد آي. وتلاشى عن المكان مثل لعبة. ولدقيقة كان هناك أصوات غاضبة، تأتي وتعود، بطريقة ميكانيكية. في الأسفل نظر الكابتن وفريقه باشتياق إلى السفينة الصاروخية المستلقية على التلة، كانت جميلة ومحببة وناعمة.

زحف السيد آي إلى النافذة، ممتلئاً بالغضب. (سأدعوه إلى مبارزة، يا إلهي، إلى مبارزة!).

(سيد آي) قال الكابتن ثانية وعاد للحديث بهدوء.

(سأطلق عليه النار، هل تسمعون؟).

(سيد آي، أود أن أخبرك، لقد جئنا من مسافة ستين مليون ميل.).

اهتم آي بالكابتن للمرة الأولى. (قلت من أي مكان قدمتم؟).

ابتسم الكابتن ابتسامة بيضاء. وهمس إلى رجاله (والآن سنحصل على مكان.). وللسيد آي صاح (لقد قطعنا ستين مليون ميل. من الأرض.).

غو السيد آي فاه. (إنه ليس سوى خمسين ميلاً في هذا الوقت من السنة.). ثم أمسك سلاحاً مرعباً وقال (حسناً، علّ الذهاب الآن. فقط خذوا الأوراق السخيفة، ر غم أنني لا أعرف ماذا ستنفعكم، امضوا إلى تلك التلة حيث قرية آيوبر واخبروا السيد لاي حولها. إنه الرجل الذي عليكم رؤيته. ليس السيد تيت، إنه غبي، أنا ذاهب لقتله. لست أنا. فأنت ليس في مجال عملي.).

(مجال العمل! مجال العمل!) ردد الكابتن. (أينبغي عليك أن تكون في مجال عمل محدد لكي تستقبل رجال الأرض؟!).

(لا تكن سخيفاً، الجميع يعرفون هذا!). ثم اندفع السيد آي إلى الأسفل. (وداعاً) قال ثم اندفع في الطريق مثل زوج من الكماشات المتوحشة.

وقف الرحالة الأربعة مصدومين. قال الكابتن أخيراً (حسناً سنجد أخيراً شخصاً يصغي إلينا.).

(ربما علينا الذهاب والمجيء مرة أخرى.) قال واحد من الرجال بصوت حزين. (ربما علينا الإقلاع والنزول ثانية، نعطيهم الوقت كي يميزوا القضية).

(إنها فكرة جيدة.) همهم الكابتن المتعب.

القرية الصغيرة كانت غاصة بالناس الذين يخرجون من الأبواب ويدخلون محيين بعضهم البعض، مرتدين أقنعة رمزية ومذهبة وزرقاء، أقنعة مع شفاه فضية وحواجب برونزية، أقنعة مبتسمة، وأقنعة منقبضة التعابير، طبقاً إلى حالة من يرتديها.

وقف الرجال الأربعة المتعرقون من شدة المشي، وسألوا فتاة صغيرة عن بيت السيد لي.

(هناك) أومأت الصغيرة.

انحنى الكابتن على الأرض بحذر، ناظراً إلى وجهها اللطيف. (صغيرتي إنني أود الحديث معك).

أجلسها على ركبته وجمع يديها السمراوين الصغيرتين بين يديه الضخمتين، كما لو كان جاهزاً ليقص عليها قصة في السرير، تلك القصة التي كان يرتبها في ذهنه ببطء مع سعادة غامرة في رواية تفاصيلها.

(حسناً أيتها الفتاة الصغيرة، القصة كالتالي. قبل ستة أشهر صاروخ آخر حط على المريخ. كان فيه رجل يدعى يورك، مع مساعديه. ما الذي حدث لهم، لا نعرف. ربما تحطم الصاروخ. جاءوا بصاروخ. وهكذا فعلنا نحن. يجب أن تريه. صاروخ كبير. وهكذا فنحن الرحلة الثانية، نتتبع الأولى. وجئنا كل هذا الطريق من الأرض...).

حررت الصغيرة يدها دون تفكير، وضربت القناع المذهب الخالي من التعابير الذي يغطي وجهها. ثم سحبت أربع لعب هي عناكب مذهبة وأسقطتها على الأرض بينما ظل الكابتن مستمراً في حديثه. تسلقت العناكب ركبتها نزولاً وصعوداً بامتثال، بينما كانت تراقبها ببرود عبر شقوق القناع الخالي من التعابير، وراح الكابتن يهدهدها بخفة محاولاً إكمال قصته.

(نحن من الأرض، هل تصدقينني؟).

(نعم) قالت الصغيرة وكانت ترمق الطريقة التي تحرك بها أصابعها في التراب.

(جيد) قرص الكابتن ذراعها، مرة بمرح ومرة بلؤم، كي يجعلها تتطلع إليه.

(لقد بنينا سفينتنا الصاروخية بأنفسنا، هل تصدقين ذلك؟).

أدخلت الصغيرة أصبعها في أنفها وقالت (نعم)

(حسناً، أخرجي إصبعك من أنفك أيتها الصغيرة، وأنا الكابتن و....).

(لم يحدث لأي شخص عبر التاريخ أن قطع الفضاء بسفينة صاروخية) قالت الفتاة وعيناها مغلقتان.

(رائع، كيف عرفت؟).

(آه، عبر التخاطر) ومررت إصبعاً على ركبتها.

(حسناً ، ألست مستثارة؟) تباكى القبطان. (ألست سعيدة؟).

(الأفضل لك الذهاب لرؤية السيد لي) ثم أسقطت لعبها على الأرض (السيد لي يرغب بالحديث معك)، وعدت راكضة وعناكبها تتقافز وراءها طائعة.

قرفص الكابتن في مكانه ناظراً إلى الصغيرة ويداه ممدودتان. عيناه كانتا تدمعان. كان ينظر إلى يديه الفارغتين. فمه مفتوح. وقف الرجال الثلاثة وراحوا يبصقون على صخور الشارع...

* * *

أطبق السيد لي بابه. كان في طريقه إلى محاضرة، لكنه يمتلك دقيقة واحدة، إن استطاعوا الإسراع بالدخول لإخباره عن رغباتهم...

(انتبه قليلاً) قال الكابتن متعباً وعيناه حمراوان. (نحن من الأرض، عندنا صاروخ، ونحن أربعة، فريق عمل وكل، نحن متعبون وجائعون، ونرغب بالحصول على مكان للنوم. نريد أحداً يعطينا مفتاحاً للمدينة أو شيئاً من هذا القبيل، نود أن يصافحنا شخص ما ويقول (أحسنتم) أو يقول تهانينا أيها الرجل العجوز، هذا ما نطمح إليه).

كان السيد لي طويلاً، مدخناً . نحيفاً مع بلورات زرقاء سميكة في عينيه. انحنى على طاولته وفرش أوراقاً أمامه، محدقاً بنفاذ إلى ضيوفه.

(حسناً ، أنا لا أمتلك الجداول هنا، أنا لا أعرف الآن أين وضعتها. في مكان ما. نعم إنها هنا) ناولهم الأوراق وقال (يجب أن توقعوها طبعاً).

(هل يجب علينا أن نقوم بكل هذا الهراء؟)

رمقه السيد لي بنظرة زجاجية ثقيلة. (تقول إنكم من الأرض، أليس كذلك؟ حسناً ، لا شيء هناك سوى التوقيع.).

كتب الكابتن اسمه. (هل تريد من فريقي أن يوقعوا أيضاً ؟).

نظر السيد لي إلى الكابتن ثم إلى الرجال الثلاثة، وانفجر بصوت ساخر (هم يوقعون! هاه، يا للعظمة؟ هم، هاه، يوقعون) وانفجرت الدموع من عينيه. ضرب ركبته وانحنى ليدع ضحكته تخرج من بين فكيه المفتوحين. اتكأ على الطاولة وقال (هم، يوقعون!).

(ما المضحك بالأمر؟) قال الرجال الأربعة عابسين.

(هم يوقعون!) همس السيد لي بجذل (مضحك جداً . يجب أن أخبر السيد أكس حول ذلك.)، تفحص الأوراق، ولما يزل يضحك. (كل شيء يبدو منتظماً ، حتى اتفاقية القتل الرحيم، إذا تطلبت القضية خطوة مثل هذه.).

(اتفاقية ماذا؟).

(لا تتكلم. عندي لك شيء هنا. خذ هذا المفتاح.).

(إنه شرف عظيم) قال الكابتن.

(ليس المفتاح إلى المدينة أيها الأحمق، إنه فقط مفتاح لبيت. انزلوا نحو ذلك المدخل، افتحوا الباب الكبير، ادخلوا واغلقوا الباب جيداً . يمكنكم قضاء الليل هناك. في الصباح سأرسل السيد أكس لكي يراكم.).

استلم الكابتن المفتاح بشكل ملتبس. وقف ينظر إلى الأرض. الآخرون لم يتحركوا. بدوا كما لو أفرغوا من دمائهم ومن الحمى الصاروخية. كانوا ناشفين.

(ما هناك. هل ثمة خطأ؟) تساءل السيد لي. (هل تنتظرون؟ هل ترغبون بشيء؟) اقترب قليلاً وتفرس في وجه الكابتن وقال (خذه وارحل).

(لا أتخيل أنك تستطيع... أعني، حاول، فكر، لقد عملنا الكثير، جئنا من مكان بعيد، على الأقل يمكنك هز أيدينا والقول: قمتم بعمل رائع، هل تفكر بذلك؟) قال الكابتن بتلكؤ.

مد السيد لي يده بتشنج وقال (تهانينا) ابتسم ابتسامة باردة ووردد (تهانينا) ثم استدار ماضياً وهو يقول (يجب أن أمضي الآن، استخدموا المفتاح).

دون أن يلتفت إليهم مرة أخرى، كما لو ذابوا وتغلغلوا في الأرض، تحرك السيد لي إلى داخل الغرفة ووضب صندوقاً مليئاً بالمخطوطات. لبث أكثر من دقائق دون أن يتطلع إلى الرباعي المهيب الواقف برؤوس منكسة، أرجلهم خائره، يتراقص الضوء في عيونهم.

حين غادر السيد لي الباب، ظل مشغولاً بالنظر إلى أظافره...

* * *

جروا خطواتهم في الممر في ظهيرة صامتة وناعسة. وجدوا باباً فضياً لامعاً، أدخلوا المفتاح وفتحوه. دخلوا، أغلقوا الباب، واستداروا. وجدوا أنفسهم في صالون فسيح مضاء بنور الشمس. رجال ونساء كانوا جالسين على طاولات أو واقفين بأحاديث جماعية. وبسبب صوت الباب لاحظ الجميع دخول الرجال ببذلاتهم الرسمية.

رجل مريخي خطى إلى الأمام وانحنى قائلاً (انا السيد أو).

(أنا الكابتن جوناثان وليم من مدينة نيويورك على الأرض) قال الكابتن دون تعابير.

انفجرت الضجة في الصالون فجأة.

اهتزت عوارض الصالون بسبب الصرخات والبكاء. مندفعين إلى الأمام، حيى الموجودون الرجال الأرضيين، بضوضاء، ورفعوهم فوق الأكتاف بخفة، مع قرع متواصل على الطاولات. داروا في الصالون ست مرات، ست مرات رسموا فيها دائرة رائعة، قافزين متواثبين مغ

الرجال الأرضيين كانوا مشلولين لدرجة أنهم لبثوا دقيقة قبل أن ينفجروا بالضحك ويحيون بعضهم البعض.

(هلو، هذا ما ينبغي أن يكون!).

(هذه هي الحياة! شباب! أعلى!).

تبادل الحشد التحايا، وفرشوا راحاتهم للقبض على الهواء. صاحوا (هالو).

أجابهم الفريق بالصيحة ذاتها.

وضعوا الرجال الأرضيين على الطاولة. انتهى الصياح.

كاد القبطان أن ينفجر بالبكاء. (شكراً، هذا حسن، هذا حسن.).

(خبرونا عن أنفسكم؟) اقترح السيد أو

نظف الكابتن حنجرته.

وبينما كان الكابتن يتكلم كان الحشد يطلق الهمهمات. قدم فريقه، وكل واحد منهم تحدث قليلاً، وأشاد بالاستقبال الحافل.

ربت السيد أو على ظهر الكابتن وقال (جيد أن يرى المرء رجلاً آخر من الأرض. أنا من الأرض أيضاً).

(كيف يحدث هذا؟)

(هنالك عدد منا جاؤا من الأرض.)

(أنت؟ من الأرض؟) قال الكابتن باندهاش. (هل هذا ممكن؟ جئتم بصاروخ؟ هل الرحلات الفضائية مستمرة منذ قرون؟) صوته كان محبطاً . (من أي بلد أنتم؟).

(توريول، جاءت روحي إلى هنا منذ سنتين.)

(توريول) تمطق الكابتن بالكلمة وقال (أنا لا أعرف ذلك البلد. ماذا عن روح الجسد؟).

(السيدة آر هناك جاءت من الأرض كذلك، أليس كذلك سيدة آر؟)

وافقت السيد آر وضحكت بغرابة.

(كذلك السيد آو والسيد كيو والسيد في!).

(أنا من جوبيتر) أوضح رجل عارضاً نفسه.

(أنا من سارتون) قال آخر بعينين مشعتين.

(جوبيتر، سارتون) همهم الكابتن غامزاً .

كان هناك هدوء، وقف الحضور أو جلسوا حول الطاولات والغريب أن الطاولات كانت خالية من أي طعام. عيونهم الصفراء تشع، وكان هناك ظلال داكنة تحت ذقونهم. لاحظ الكابتن للمرة الأولى أن ليس هناك نوافذ، وبدا الضوء كما لو كان يخترق الجدران. وكان هناك باب واحد فقط. همس الكابتن قائلاً (هذا شيء يشوش الذهن. أين تقع تلك التوريول على الأرض؟ هل هي قرب أميركا؟).

(ما هي أميركا؟)

(لم تسمع مطلقاً بأميركا؟ تقول أنك من الأرض ومع ذلك لا تعرف أميركا؟).

مط السيد آو جسده إلى الأعلى غاضباً . (الأرض مكان للبحار وليس هناك سوى البحار. ليس هناك يابسة. أنا من الأرض أعرف هذا).

(انتظر دقيقة، جلس الكابتن وتابع، أنت مريخي نموذجي، عيون صفر وجلد أسمر).

(الأرض مكان للغابات) قالت السيدة آر (أنا من أوري، على الأرض، الحضارة مشادة من الفضة).

نقل الكابتن رأسه بينهم، ورأى عيونهم الصفر تشع في الضوء، تركز أو تفقد التركيز. بدأ الكابتن يرتعش. أخيراً استدار إلى رجاله وقال (هل تدركون الأمر؟).

(ماذا؟).

(هذا ليس احتفالاً، قال الكابتن تعباً ، إنه ليس وليمة. ليس هناك ممثلون للحكومة. هذا ليس حفلة مفاجئة. انظروا إلى عيونهم. اصغوا إليهم).

لم يتنفس أحد. ليس هناك سوى الحركة الخفيفة لبياض العيون في الغرفة المغلقة.

(الآن أدرك لماذا أعطانا كل شخص ملاحظات أوصلناها إلى شخص آخر، حتى التقينا السيد لي الذي أعطانا المفتاح وأرسلنا إلى هذه الغرفة المغلقة. والآن نحن هنا).

(أين نحن سيدي الكابتن؟)

زفر الكابتن وقال (نحن في مصح عقلي).

* * *

كان الوقت ليلاً. الصالون الواسع هادئ، مضاء بنور شاحب قادم من مصدر مخفي في الجدران الشفافة. جلس الرجال الأرضيون حول طاولة خشبية، رؤوسهم الكابية منحنية على وشوشاتهم. على الأرضية استلقى الرجال والنساء بفوضى. كان هناك حركات ضئيلة في الزوايا المعتمة، رجال ونساء متوحدون يحركون أيديهم. كل نصف ساعة يحاول واحد من رجال الكابتن فتح الباب الفضي ثم يعود بعدها إلى الطاولة.

(لا شيء يحدث، أظن أننا مسجونون).

(يعتقدون أننا مجانين، سيدي؟).

(الضبط. لذلك لم يكن هناك ضوضاء لتحيتنا. إنهم تسامحوا فقط، مع ما يدعونه، وضعا نفسياً متكرراً بثبات). أوماً إلى الأشكال الداكنة المتناثرة حوله. (بارانويا، كل واحد منهم. أي استقبال كان. للوهلة الأولى فكرت أننا سنحصل على استقبال حقيقي). ثم لمعت وانطفت في عينيه جذوة من النار. (كل ذلك العواء، والغناء، والكلام. جيد جداً، أليس كذلك؟ لقد انتهى).

(كم سيبقوننا هنا سيدي الكابتن؟).

(إلى أن نثبت لهم أننا لسنا مجانين).

(ذلك يبدو سهلاً).

(آمل ذلك).

(تبدو غير متأكد سيدي؟).

(كلا، انظر إلى تلك الزاوية).

تحرك رجل وحيد في العتمة. ظهرت على فمه شعلة زرقاء سرعان ما اتخذت شكلاً مدوراً لامرأة عارية. طارت في الهواء بخفة في بخار الضوء الكوبلتي، هامسة مغنية.

أشار الكابتن إلى زاوية أخرى. وقفت امرأة ثانية تغير ملابسها. كانت في البدء مغطاة بعمود من البلور، ثم ذابت لتتحول إلى تمثال ذهبي، واخيراً قضبان أرز لامعة، ثم عادت امرأة مرة أخرى.

طوال منتصف الليل كان الموجودون في الصالون يقذفون شعلات بنفسجية، يتغيرون، يراوغون، لأن الليل كان وقتاً للتغير والعذاب.

(سحرة، عرافون). همس واحد من الرجال الأرضيين.

(كلا، إنها هلوسة. ينقلون جنونهم إلينا كي نرى هلوساتهم نحن أيضاً. تخاطر. إيحاء وتخاطر).

(هل هذا ما يقلقك سيدي!).

(نعم. إن كانت الهلوسة يمكن أن تظهر لنا، أو لأي كان كحقيقة، إن كان يمكن امساك الهلوسة وتصديقها، فلا عجب إذا ما ظنونا مجانين. إن كان ذلك الرجل يستطيع خلق امرأة زرقاء صغيرة، وتلك المرأة تحولت إلى قضبان، فمن الطبيعي أن يفكر المريخيون الطبيعيون إننا أنتجنا سفينتنا الصاروخية عبر أفكارنا).

(آه!) قال فريقه من خلال الظلال.

حولهم، في الصالون الفسيح، قذفت الشعلات زرقاء، ماجت، وتبخرت، عفاريت صغيرة من رمل أحمر تحركت بين أسنان رجال نائمين. نساء تحولن إلى ثعابين نفطيه، كان هناك رائحة زواحف وحيوانات.

في الصباح وقف الجميع نضرين وسعداء وطبيعيين. ليس هناك لهب أو عفاريت في الغرفة. وقف القبطان وفريقه قرب الباب الفضي آملين أن يفتح عاجلاً.

وصل السيد أكس بعد أربع ساعات. كان لديهم شك بأنه كان ينتظر قبل الدخول، خلف الباب يتجسس عليهم منذ ثلاث ساعات على الأقل. أشار إليهم وقادهم إلى مكتبه الصغير.

نكالطيفاً ومبتسماً، إذا ما صدق الواحد قناعه، إذ كان مرسوماً عليه لا ابتسامة واحدة بل ثلاث. خلف قناعه كان صوته لايبدو عليه أنه صوت معالج نفسي مرح. (ما هي المشكلة؟).

(أنت تعتقد أننا مجانين، ولكننا لسنا كذلك) قال الكابتن.

(بالعكس، أنا لا أعتقد أنكم جميعاً مجانين). أشار المعالج إلى القبطان بعصا (كلا، أنت فقط سيدي. الآخرون لديهم هلوسة ثانوية).

ضرب الكابتن ركبته وقال: (هنا مسألة! هذا هو السبب الذي جعل السيد لي يضحك حين اقترحت عليه أن يقوم رجالي بتوقيع الأوراق!).

(نعم، السيد لي أخبرني). ضحك المعالج من خلال فمه الجامد المبتسم. (نكتة جيدة. أين كنت أنا؟ هلوسة ثانوية، نعم. نساء يأتين إلي مع ثعابين تجري من آذانهن، حين أشفيهن تختفي الثعابين).

(سنكون سعداء إذا ما شفيتنا، استمر).

بدا السيد أكس مندهشاً. (شيء غير طبيعي، ليس هناك كثير من الناس يرغبون بالمعالجة. العلاج سيكون قاسياً كما تعرف).

(ابدأ العلاج، أنا واثق أننا جميعاً أصحاء).

(دعني أنظر أوراقك لأتأكد من أنك صالح للشفاء). فتش الملف. (نعم. قضية مثل قضيتك بحاجة إلى علاج خاص.الناس الذين في الصالون قضاياهم بسيطة. لكن بما أنك بلغت هذا الحد، سأشخص الحالة الابتدائية والثانوية والفحصية والشمية والشفهية للهلوسات، كذلك التخيلات البصرية واللمسية، وهذا عمل سيء كفاية. ينبغي أن نلجأ إلى القتل الرحيم).

نهض الكابتن بغضب (انظر هنا، لقد وقفنا ما فيه الكفاية! افحصنا، انقر على ركبنا، افحص قلوبنا، اعمل لنا تمارين، اسألنا!).

(أنت حر بالكلام).

هذر الكابتن ساعة كاملة. وكان المعالج يصغي.

(شيء لا يصدق، إنه من أغرب الأحلام التفصيلية الخيالية التي أسمعها).

(يا للعنة، سوف نريك السفينة الصاروخية!) صاح الكابتن.

(أرغب جداً برؤيتها. هل تستطيع تجسيدها هنا في الغرفة؟).

(نعم، بالتأكيد. إنها في ذلك الملف تحت حرف س).

حدق السيد أكس جدياً في ملفه. أغلق الملف بهدوء وقال: (لماذا تطلب مني النظر؟ الصاروخ ليس هنا).

(طبعاً ليس هناك أيها المغفل، كنت أمزح. هل يمزح المجنون؟).

(عندك مزاج غريب. الآن خذني إلى الخارج، حيث صاروخكم. إنني أرغب برؤيته).

* * *

كان الوقت ظهراً، حين وصلوا الصاروخ.

(هكذا) ثم اقترب المعالج من الصاروخ ونقر عليه. رن بصوت خافت. (هل يمكنني الدخول؟).

(أجل يمكنك).

خطى السيد أكس إلى الداخل ولبث فترة هناك.

(يا للأشياء المغيظة والسخيفة)، وكان الكابتن يعلك سيجارة أثناء ما كان ينتظر. (ما أن أعود إلى الوطن سأخبر الناس ألا يعلقوا مع المريخ، يا لهم من شعب شكاك مزعج).

(استنتج أن كمية كبيرة من السكان مجانين، سيدي. هذا على ما يبدو هو السبب الرئيسي لشكوكهم).

(على أية حال، كل ذلك يدعو إلى الازعاج).

خرج المعالج من السفينة بعد نصف ساعة من الفحص والنقر والاصغاء والشم والتذوق.

(الآن هل تصدق؟) صاح الكابتن كما لو كان أطرش.

أغلق المعالج عينيه وحك أنفه. (إنه أكثر مثال لا يصدق على الهلوسة الحسية والأفكار التنويمية التي تعاملت معها. لقد دخلت في صاروخكم كما تسمونه، فانتازيا خارجية. شممته. هلوسة شفهية، مجسدة بالتخاطر الحسي. قبل السفينة وقال: (تذوقها، إنها تخيلات ذوقية.!).

صافح الكابتن وقال: (هل يمكنني تهنئتك؟ أنت مجنون عبقري. قمت بعمل متكامل. مهمة إسقاط خيالاتك المريضة على ذهن أحدهم من خلال التخاطر، والاحتفاظ بالهلوسة متجسدة دون ضعف حسي عمل مستحيل تقريبا. الناس الموجودون في الصالة عادة ما يركزون على خيالات بصرية، أو بصرية ذهنية مركبة. أنت وازنت كل تلك الكتلة. جنونك رائع التكامل).

(جنوني)؟. صار الكابتن شاحباً.

(نعم، نعم، أي جنون جميل. حديد، مطاط، جاذبات، طعام، ملابس، وقود، أسلحة، جلود، عزقات، قذائف، ملاعق. تفحصت عشرة آلاف مادة منفصلة في صاروخكم. لم أشاهد مطلقاً هذا التعقيد. هناك أيضاً ظلال تحت كل شيء. أي تركيز للإرادة. وكل شيء، لا يهم كيف ومتى، كل ما فحصته له رائحة، صلابة، ذوق، صوت. دعني أعانقك!).

وقف جانباً وأكمل. (سأكتب ذلك في مقالة ستكون الأعظم، سألقيها في أكاديمية المريخ في الشهر القادم. انظر إلى نفسك! كيف؟ حتى أنك غيرت لون عينيك من الأصفر إلى الأزرق، وجلدك من الأسمر إلى الوردي. وتلك الملابس، ويدك تمتلك خمسة أصابع بدلاً من ستة! ظواهر بايلوجية من خلال اللاتوازن النفسي! وأصدقاؤك الثلاثة...).

اخرج بندقية صغيرة. (غير قابل للشفاء، طبعاً. أنت أيها الرجل الرائع المسكين. ستموت سعيداً. هل عندك كلمات أخيرة تقولها؟).

(توقف بحق الله، لا تطلق النار!).

(أيها المخلوق الحزين. سأنقلك خارج هذا البؤس الذي جعلك تتخيل هذا الصاروخ وهؤلاء الرجال الثلاثة. سأكون أكثر استغراقاً لمراقبة اختفائك أنت وأصدقائك وصاروخك حالما اقتلك. سأكتب صفحة كاملة عن تلاشي الخيالات المختلة التي رأيتها هنا هذا النهار).

(أنا من الأرض! اسمي جوناثان وليم، وهؤلاء...).

(نعم أعرف). همس السيد أكس وأطلق النار.

سقط الكابتن مع رصاصة في قلبه. صرخ الرجال الثلاثة.

حدق السيد أكس بهم (ألا زلتم موجودين؟ هذا فخم، هلوسة ذات زمن وثبات فراغي!)، وجه البندقية إليهم (سوف أرعبكم حتى تختفوا).

(كلا!) تباكى الثلاثة.

(مناشدة ذهنية، حتى عند موت المريض)، لاحظ السيد أكس بينما كان يطلق النار عليهم.

استلقوا على الرمال، تأمين، دون حركة.

ركلهم، ثم نظر إلى السفينة.

لازالت ثابتة في مكانها، وهم أيضاً. أطلق على الجثث أكثر من مرة. تراجع إلى الخلف، وسقط القناع المبتسم عن وجهه.

تغير وجه المعالج الصغير ببطء. انحرف فكه. وسقطت البندقية من أصابعه. عيناه كانتا ثقيلتين وفارغتين. رفع يديه إلى الأعلى وصار يدور حول الجثث، وكانت السلفا السائلة تملؤ فمه.

(هلوسة، مذاق، بصر، رائحة، صوت، مشاعر). حرك يديه وكانت عيناه تومضان. فمه صار يقذف زبدا ناعماً.

(امضوا!) صرخ على الجثث. (امض) صرخ على السفينة. تفحص يديه المرتعشتين. (عدوى!)، همس عالياً. (نقلوها إلى، تخاطر، تنويم. الآن أنا مجنون. الآن أصبت بالعدوى. هلوسة بكافة أشكالها الحسية). توقف وراح يبحث عن البندقية. (علاج واحد فقط. طريقة واحدة لجعلهم يختفون).

دوت طلقة، سقط السيد اكس.

كانت الأجساد الأربعة ملقاة تحت الشمس. وسقط السيد اكس في مكانه.

الصاروخ كان يربض على التلة المشمسة. لم يختف.

حين وجد أبناء المدينة الصاروخ عند المغيب، تعجبوا عما يمكن أن يكون. لم يعرف أحد سبب وجوده، لذلك بيع إلى رجل خرداوات ليكسر ويحو ّل إلى قطع من الحديد.

السيرك الأخير

وقف جوركس اللسان الأحمر – أطلقنا عليه الاسم لأنه اعتاد التهام الشوكلاته الحمراء كل يوم – تحت نافذتي في صباح بارد من شهر أكتوبر وصاح نحو الديك المعدني الواقف أعلى بيتنا. أخرجت رأسي من النافذة وزفرت البخار قائلاً (أهلاً أحمر اللسان!).

(تعال! السيرك!).

خرجت بعد ثلاث دقائق ماسحاً تفاحتين بركبتي، وكان اللسان الأحمر يرقص لتدفئة جسده. اتفقنا على أن آخر من يصل محطة القطارات عجوز أحمق.

وهكذا هرولنا، قاضمين التفاح، خلال المدينة الصامتة.

في المحطة وقفنا على القضبان متنصتين إلىهمهمتها. بعيداً في صباح الريف، البارد المعتم، أدركنا أن السير ك قادم. كان صوته يرتعش على السكة، فوضعت أذني على الحديد متسمعاً سفره. (آش). قلت.

بعد وقت قصير كانت القاطرة تتقدم نحونا مصحوبة بالضوء والنار كما لو أنها عاصفة سوداء.

خارج المقطورات كانت المصابيح الزرق والخضر تنوس، وفي الداخل شخير وزعيق وصياح. أنزلت الفيلة ودحرجت الأقفاص ثم اختلطت الأشياء فيما بينها، وعند الشروق كان الرجال والحيوانات يزحفون، معهم اللسان الأحمر وأنا، خلال المدينة متجهين إلى المروج، حيث كل ورقة عشب بلورة بيضاء وكل شجيرة محملة بالمطر.

(فكر فقط، ل أ، قبل دقيقة لم يكن هنا شيء عدا الأرض. أنظر الآن).

نظرنا، تفتحت الخيمة الكبيرة مثل زهرة يابانية في ماء بارد. الأضواء شعت، وخلال نصف ساعة، كانت الفطائر تقلى والناس يضحكون. وقفنا نحدق بكل شيء. وضعت يدي على صدري وشعرت بقلبي يدق عالياً من الانفعال. كل ما أردت عمله هو النظر والشم.

(إلى البيت لتناول الفطور!) صرخ ل أ وضربني منبهاً ثم شرع بالركض.

* * *

(ابلع لسانك واغسل وجهك) قالت أمي ناظرة إلي من فوق الطبَّاخ.

(فطائر!) هتفت متعجباً من حدسها.

(كيف كان السيرك؟) قال أبي وهو يخفض جريدته وينظر إلي من فوقها.

(رائع، مدهش!).

غسلت وجهي من ماء الحنفية البارد ومسحت كرسيي وكانت أمي تضع الفطائر على الطاولة. ناولتني إناء الشيرة وقال (شربـ ها).

أثناء ما كنت ألوك، عدل أبي الجريدة بيده وتنهد (لا أعرف ما الذي سوف يحدث).

(ينبغي أن لا تقرأ الجريدة في الصباح، إنها تفسد شهيت

(انظر إلى هذا) تشكّى أبي ناقراً الجريدة بإصبعه (حرب جرثومية، قنبلة نووية، قنبلة هيدروجينية. ذلك كل ما تقرأ!).

(شخصياً عندي غسيل كثير هذا الأسبوع) قالت أمي.

(ذلك هو الخطأ مع العالم، ينجز البشر غسيلهم على برميل من البارود).

عبس أبي ثم اعتدل بجلسته وانحنى إلى الأمام قائلاً (ماذا تقول الجريدة هذا الصباح، لقد حصلوا على قنبلة ذرية بإمكانها إزالة شيكاغو من الخارطة. أما مدينة مثل مدينتنا، فلن يبقى منها سوى الدخان. الغار هو الشيء الذي أفكر به دائما).

(ماذا؟) تساءلت.

(لكي نصبح كما نحن عليه اليوم، تطلب الأمر منا مليون سنة. بنينا المدن والعواصم من لا شيء. قبل مائة سنة لم يكن لهذه المدينة وجود. وقت وعرق وصعاب، والآن، بعد أن أنجزناها حجراً فوق حجر، ما الذي يحدث؟ بم!).

(أراهن أن ذلك لن يحدث لنا) قلت.

(كلا؟ سخر أبي لماذا؟).

(اخرجا كلاكما) أومأت أمي (أنك كبير كفاية لكي تدرك أفضل، وأنت صغير جداً على الفهم).

أكلنا بصمت، ثم التفت أبي متسائلاً:

(ما كان المكان يشبه قبل أن تبنى المدينة؟).

(لا شيء على الإطلاق. بحيرة وتلال لا غير).

(هنود؟).

(لا يوجد منهم الكثير هنا. غابات فارغة وتلال، فقط).

(احذر الشيرة). قالت أمي:

* * *

(بووووم!) صرخ ل أ (أنا قنبلة ذرية! بووم!).

كنا نقف في الصف منتظرين أمام المسرح. إنه أعظم يوم في السنة، لقد بعنا الذرة في السيرك طوال الصباح لنربح ثمن الدخول. سنتفرج على الهنود الحمر ورعاة البقر في شاشة المسرح، ثم هذا المساء، سنرى السيرك نفسه!

كنا نحس بالغنى وكنا نضحك طوال الوقت ل أ ظل طوال الوقت ينظر شذراً خلال حلقته الذرية ويصيح (بوم، أنت محطم! بوم، أنت محطم!).

على الشاشة، كان رعاة البقر يطاردون الهنود الحمر، وبعد نصف ساعة رد الهنود الحمر رعاة البقر إلى الجانب المعاكس، وبعد أن نال الإرهاق من الجميع، حلت أفلام كرتون، أعقبتها الجريدة السينمائية.

(انظر، القنبلة الذرية!) صاح ل أ ثم هدأ للمرة الأولى.

ارتفعت الغيمة الرمادية الضخمة على الشاشة، ورأينا السفن الحربية تتمزق والطرادات تتشظر والماء يتساقط أمسك ل أ يدي بشدة، محدقاً إلى البياض المحترق.

(ألا يثيرك هذا؟ هه؟) وخز أضلاعي.

(إنها كذبة ضخمة على أي حال. ليتني أمتلك قنبلة ذرية! بوم، فتختفي المدرسة!).

(بوم! وداعاً كلارا هولكوست!).

(بانك! سلاماً على الضابط اوروركي!).

* * *

على العشاء كانت ثمة كرات لحم سويدية، وكعك ساخن، وفاصولياء بوستنية، مع سلطة خضراء. بدا أبي جاداً كثيراً ومتعباً وغريباً، وحاول التطرق إلى بعض الحقائق العلمية المهمة، التي كان يقرأها في مجلة ما، لكن أمي هزت رأسها مستنكرة ما يقول.

(هل أنت على مايرام، أبي؟).

(أنا عازمة على إلغاء اشتراكنا في الجريدة. إنك تقلق روحك للحد الذي ستصاب فيه بالقرحة، هل تسمعني؟).

(يا إلهي! أي فيلم كان. القنبلة الذرية حطمت سفينة حربية برمتها، على المسرح).

أسقط أبي شوكته وحدق إلي (بعض الأوقات، دوغلاس، تملك قدرة خارقة على قول الشيء الخطأ في الوقت الخطأ).

رمقتني أمي بنظرة تأنيب وقالت (تأخرت. من الأفضل لك الإسراع إلى السيرك).

وبينما كنت أعد قبعتي ومعطفي، سمعت أبي يقول بصوت واطئ متأن (ما رأيك لو نصفي أعمالنا؟ تعرفين، كنا دائماً نرغب في السفر، نذهب إلى المكسيك ربما. مدينة صغيرة. نستقر).

(إنك تتكلم مثل طفل). همست أمي. (لا أرغب سماعك تتحدث بهذه الطريقة).

(أدرك إنه حمق، لا تؤاخذينني. لكنك على حق، الأفضل إلغاء الجريدة).

* * *

كانت الريح تعصف في الشجر والنجوم طالعة، وكان السيرك يجثم على التلال، وسط المرج، كأنه فطر عملاق. في أيدينا، أنا ول أ ذرة وشوكولاته، وعلى خدينا تبعثرت خيوط شعر البنات. (انظر لحيتي!) صاح ل أ. كان الجميع يتكلمون ويتدافعون تحت أضواء المصابيح اللماعة، ثم راح رجل يضرب بقبضة بامبو قماشة ضخمة ويتكلم عالياً حول (الهيكل العظمي) و(السيدة السمينة) و(الرجل المرقش) و(الصبي القمة) بينما كنا أنا ول أ، نتعثر أمام السيدة التي تناولت بطاقتي الدخول وشقتهما نصفين.

وجدنا مكاناً للجلوس في اللحظة نفهسا التي انفجرت بها الطبول وخرجت الأفيال المزركشة وهي تجر أجسادها بتثاقل. عند الأضواء المتغامزة الساخنة، كان ثمة رجال يطلقون النار من مدافع ملتهبة، وسيدات معلقات من أسنانهن البيض يقلدن الفراشات في الأعلى، وسط غيوم السجائر. كان البهلوانات يتقافزون بين الحبال والعوارض، أماماً وخلفاً، والأسود تهرول بخفة حول قفص أرضيته مغطاة بنشارة الخشب، وثمة مدرب يطلق الدخان واللهب عليها من مسدس فضي. (انظر!) صرخنا. غمزة هنا، تثاؤب هناك، تهريج، تنهد، نحنحة، عجب، غرابة، دهشة، ملهاة، ضيق تنفس، عيون دهشة، أفواه مفتوحة، مركبات تدور حول الحلبة، مهرجون يتقافزون من فنادق محترقة، شعورهم طويلة سرعان ما يتحولون من عمالقة إلى أقزام، وسط صندوق بخاري.

كانت الأضواء والحرارة والإلتماعات في كل مكان. وكان الحشد يغلي أشد ما يكون الغليان.

طوال نهاية العرض كنت ناظراً إلى أعلى، وهناك خلفي، كان ثقب صغير في قماش الخيمة، ومن خلال ذلك الثقب أمكن لي رؤية المرج القديم، تهب عليه الريح والنجوم متلامعة متوحدة. برقة كانت الريح تنقر الخيمة. حين استدرت إلى الصخب المثير حولي، شعرت بالبرودة، وكان ل أ يضحك بجانبي، ثم لمحت رجالاً يمتطون الدراجات الفضية على خيط نحيف عال، بعيد، والطبول بضرباتها المتوالية، تا تا تا، قد فرضت الصمت على الجميع. عقب ذلك برز مئتا مهرج يضربون رؤوس بعضهم البعض بعصي غليظة، أوشك ل أ على السقوط من كرسيه من الانفعال. كنت جالساً بلا حراك، وفي الأخير استدار ل أ ونظر إلي ثم قال (دوك، أأنت على مايرام؟).

(لا شيء) قلت. تململت في مقعدي، تطلعت إلى زوايا السيرك الحمر وخطوط الحبال والأضواء المتلامعة. نظرت إلى المهرجين المطليين بالخارصين وافتعلت الضحك (انظر هناك، ل أ، ذلك الرجل البدين!).

غنت الفرقة الموسيقية (المالكة العجوز ليست كما اعتادت أن تكون)، وقال ل أ مبهور الأنفاس (لقد انتهى كل شيء).

لبثنا جالسين، وكان آلاف البشر يخطرون خارجين، ضاحكين متهامسين، يزاحم بعضهم البعض. كانت الخيمة متخمة بدخان السجائر والأجهزة الموسيقية مهجورة على الدكة الخشبية، حيث أتحفتنا الفرقة قبلئذ بعصفها النحاسي. لم نتحرك، فلا أحد منا يرغب بالمضي.

(أظن أن علينا الذهاب). قال ل أ مطرقاً.

(دعنا ننتظر). قلت بخفوت دون النظر إلى أي شيء. وشعرت بصلادة رقائق الخشب تحت مؤخرتي بعد ساعة طويلة غريبة من الموسيقى والأضواء. ثمة رجال مشغولون بتجميع الكراسي المتساقطة لكي تنقل خارجاً، ولاحظت تهدل شرائط قماش تدل على أن السيرك في طريقه إلى الزوال.

أصبحت الخيمة فارغة.

وقفنا في المنتصف، تذر الريح الغبار في عيوننا، وتسقط الأوراق من الشجر. كانت تحمل الأوراق الميتة بعيداً، والناس أيضاً. انطفأت مصابيح العرض. مشينا إلى قمة الجبل المجاور، ثم وقفنا هناك في الظلام العاصف، أسناننا تصطك، مراقبين المصابيح الزرق وهي تتناثر في الظلام، وأطياف الأفيال وهي تطفو، وأصوات لعنات الرجال أثناء ما كانت تتأهب إلى الرحيل.

بعد ذلك، هوت الخيمة مثل زفرة عميقة.

وما أن مضت ساعة حتى كان الطريق الترابي يموج بالسيارات والناقلات والأقفاص المذهبة. بدا المهرج الشاحب فارغاً. ارتفع القمر في السماء وكسا الصقيع كل ما هو رطب. ل أ وأنا نزلنا التلة ببطء. كنا نتشمم ما تخلف من نشارة الخشب.

(نشارة) قال ل أ (هذا كل ما خلفوه وراءهم).

(هنا أثر وتد، وهناك آخر).

(لا نستطيع أبداً الجزم أنهم كانوا هنا).

(كأنهم من صنع الخيال).

الريح هبت على المرج ووقفنا نراقب اهتزاز الشجر. لا صوت ولا ضوء. حتى رائحة السيرك تلاشت بعيداً في النهاية.

(حسناً) قال ل أ مجرجراً حذائيه (ينبغي لنا الرجوع إلى البيت). ثم ابتسم.

* * *

مشينا سوية في الطريق المتوحد، الريح في ظهرينا، أيدينا في الجيوب، ورؤوسنا منكسة. اجتزنا الوديان العميقة الصمت ثم سلكنا طريق المدينة الصغير. عبرنا البيوت النائمة حيث كنا نقع بين فترة وأخرى على مذياع لا يكاد يذيع، وتناهت إلينا ضجة لعبة الكركيت، فيما كانت أعقابنا تتطرق الحجارة الصلدة للشارع الطويل، تحت المصابيح المتأرجحة المغبشة المنتصبة في كل زاوية.

نظرت إلى جميع البيوت وجميع السياجات المتكسرة وجميع السقوف المائلة والنوافذ المضاءة ونظرت إلى كل طابوقة تحت قدمي. نظرت إلى حذائي ونظرت إلى ل أ وهو يمشي متلكئاً جنبي مصطك الأسنان. ثم رأيت ساعة المحكمة على بعد ميل، وجهتها البيضاء الرطبة ترتفع في ضوء القمر، وكانت أبنية البلدية سود ضخمة.

(تصبح على خير، دوك). لم أجب ومضى ل أ ماشياً الشارع ببطء مخترقاً البيوت حيث التهمته إحدى الزوايا. انسللت إلى الأعلى عبر الدرج ودخلت الفراش في دقيقة واحدة، رحت أتطلع نحو المدينة من خلال نافذتي. لابد أن

يكون أخي سكب قد استمع إلى بكائي فترة طويلة قبل أن يضع يده فوق ذراعي. (ما الأمر، دوك؟) (لا شيء). تنهدت بهدوء وعيناي مغمضتان. (السيرك فقط). انتظر سكب، وهبت الريح حول البيت.

(ما شأنه؟)

(لا شيء – عدا لن يعود ثانية).

(أكيد أنه سيعود). قال.

(كلا، لقد مضى. ولن يعود ثانية. كله مضى إلى حيث كان، ولن يترك وراءه شيئاً).

(حاول أن تنام) قال سكب ثم أدار لي ظهره.

توقفت عن البكاء. في مكان ما من المدينة، كانت ثمة نوافذ قليلة لازالت تضيء. أسفل، عند المحطة، قعقعت قاطرة ثم أقلعت مندفعة بين الهضاب. انتظرت في الغرفة المظلمة، ماسكاً أنفاسي، فيما كانت النوافذ البعيدة، في البيوت الصغيرة، تنطفئ بصمت، واحدة إثر الأخرى.

عربة توينبي

(جيد، عظيم، مرحى لي).

قذف روجر شاموى بنفسه إلى المقعد، ثبت جسده بالأحزمة، دو ّر المراوح ثم وجه طائرته الهيليكوبتر سوبر - 6، لتحلق في السماء الصيفية نحو الجنوب، إلى لاجولا.

(كم أنت محظوظ؟).

كان في طريقه إلى لقاء لا يصدق.

مسافر الزمن، بعد مائة سنة من الصمت، وافق على إجراء حوار. إنه في هذا اليوم، بعمر 130 سنة، وفي هذه الظهيرة، الساعة الرابعة بالضبط، بالتوقيت الباسفيكي، ستكون الذكرى السنوية لسفرته الأولى والوحيدة في الزمن. أجل، قبل مائة سنة، لوح كريج بنيت ستايلز، دلف إلى "ساعته الهائلة" كما سماها، ثم تلاشى من الحاضر. كان الرجل الوحيد في التاريخ، وظل كذلك، الذي سافر في الزمن. وكان شاموي الصحفي الأول والوحيد، بعد تلك السنين، الذي دعي لشاي ما بعد الظهيرة. ثم؟ الإعلان المحتمل لرحلة ثانية وأخيرة عبر الزمن. مسافر الزمن ألمح إلى رحلة مثل تلك.

(أيها العجوز) قال شاموي (سيد كري بينيت ستايلز، أنا قادم!).

مستسلمة للانفعالات، قبضت الطائرة على الريح وامتطها متجهة إلى الشاطئ.

كان الرجل العجوز منتظراً إياه فوق سطح (دير الزمن) على حافة الجرف الشراعي في لاجولا. الهواء محتشد بطائرات شراعية قرمزية، زرق وليمونية، حيث كان رجال شبان يصيحون، بينما تنادي عليهم نساء شابات من حافة الأرض.

لم يكن ستايلز العجوز، رغم سنواته ال 130، إذ كان وجهه، الناظر إلى الهيليكوبتر، أكثر إضاءة من وجوه الطيارين الشراعين الحمقى الذين غيروا اتجاهاتهم أثناء ما كانت الطائرة تغطس إلى الأسفل.

حو ّم شاموي بطائرته لحظة طويلة، مستمتعاً بالتأخير.

تحته كان الوجه الذي امتلك تصاميم الأحلام. الأهواء التي لا تصدق، مشاريع الغرائب لثوان، ساعات، أيام، الذي قذف روحه فيها ليسبح ضد التيار عبر القرون. وجه مشرق يحتفل بعيد ميلاده الشخصي. ففي ليلة فريدة، قبل مائة سنة، عاد كري بينيت ستايلز من الزمن مفعم النشاط، ليحد ث ملايين البشر في العالم عبر التلستار، عن مشاهداته، وليخبرهم عن مستقبلهم.

(قمنا بها!) قال. (عملناها! المستقبل ملكنا. أعدنا بناء المدن، وجددنا المدن الصغيرة، نظفنا الأنهار والبحيرات، نقينا الهواء، أنقذنا الدولفينات، ضاعفنا أعداد الحيتان، أوقفنا الحروب، وضعنا محطات شمسية عبر الفضاء لتضيء العالم، استعمرنا القمر، تحركنا نحو المريخ، ثم مجرة ألفا سنتورى. قضينا على السرطان وأوقفنا الموت. عملناها، يا ربي، كثير الشكر – عملناها. آه، إشعاع المستقبل، وذرى الجمال، يهللان).

عرض عليهم صوراً، جلب لهم نماذج، أعطاهم أشرطة وتسجيلات، فلماً وأشرطة صوتية حول رحلته العجيبة. جن العالم من السعادة. ركض للقاء وصنع ذلك المستقبل، ومعانقة المدن الموعودة، إنقاذ الكل ومشاركة الأرض مع مخلوقات البر والبحر.

صيحة الاستقبال التي أطلقها الرجل العجوز قدمت خلال الريح.

رد شاموي التحية وترك الطائرة تهبط إلى الأسفل حيث الجو الصيفي. خطى كري بينت ستايلز، بسنواته المئة وثلاثين إلى الأمام برشاقة، ثم بشك لا يصدق، ساعد الصحفي الشاب على الخروج من طائرته، فقد أصبح شاموي فجأة مصعوقاً أمام حرارة الاستقبال.

(لا أستطيع التصديق أني هنا) قال شاموي.

(إنك هنا الآن).

بشكل استعراضي تقدم ستايلز في ظل المراوح المرفرفة التي جعلته يبدو جريدة سينمائية لمستقبل مضى بصورة من الصور.

(ما الذي تود معرفته؟) سأل الرجل العجوز وهما يقطعان السطح عدة مرات.

(أولاً همس شاموي، مواصلاً حديثه (لماذا كسرت الصمت بعد مائة سنة؟ ثانياً، لماذا لي بالتحديد؟ ثالثاً، ما هو الإعلان الكبير الذي سوف تقوم به لما بعد الظهيرة هذه عند الساعة الرابعة، الساعة المحددة لوصول ستيلز الشاب من الماضي، حيث ولبرهة خاطفة، ستظهر أنت في مكانين اثنين، المفارقة، الشخص الذي كنته، والرجل الذي أنت عليه الآن، يتقاطعان بساعة بهية نحتفل بها؟)

(يا للروعة، استمر!) ضحك الرجل العجوز.

(آسف) تورد وجه شاموي (كتبت ذلك الليلة الماضية. حسناً، تلك هي الأسئلة).

(سوف تحصل على أجوبتك). هز العجوز كوعه برقة. (كل شيء، في الوقت المناسب).

(اغفر لي انفعالاتي) قال شاموي (فضلاً عن ذلك، إنك غامض. كنت شهيراً، محط أنظار العالم. ذهبت، رأيت المستقبل، ورجعت، أخبرتنا، ثم دخلت العزلة. آه، مؤكد، لبضع أسابيع، جلت العالم بعروض التلغراف الإخبارية، أظهرت نفسك في التلفزيون، كتبت كتاباً، أتحفتنا بفيلم تلفزيوني رائع استغرق ساعتين، ثم أغلقت على نفسك هنا. نعم، عربة الزمن في الأسفل، والجموع مسموح لها رؤيتها ولمسها ظهيرة كل يوم، لكن أنت نفسك رفضت الشهرة...).

(ليس كذلك) قاده العجوز على طول السطح. أسفل في الحديقة، لا تزال الهيليكوبترات تصل، حاملة أجهزة التلفزيون من كل أنحاء العالم لتصوير المعجزة في السماء، تلك اللحظة التي ستصل بها عربة الزمن من الماضي، تومض، ثم تغادر لزيارة مدن أخر قبل أن تتلاشى نحو الماضي. (لقد كنت مشغولاً، كمصمم، أساعد في بناء ذلك المستقبل الذي رأيته شاباً خلال وصولي إلى غدنا الذهبي).

وقفا برهة يراقبان الاستعدادات في الأسفل. طاولات واسعة جهزت للأكل والشرب. وجهاء من كل أقطار الأرض في طريقهم للوصول وتقديم الشكر -للمرة الأخيرة ربما - لهذا الأسطورة، للمسافر الخرافي خلال السنين. (تعال) قال العجوز. (هل ترغب في الجلوس في عربة الزمن؟ أنت تعرف، لم يقم بهذا أحد قبلك. هل ترغب أن تكون الأول؟).

لم يكن الجواب ذا أهمية، فبإمكان العجوز رؤية عيني الشاب مشعتين ومبتلتين.

(هناك، هناك) قال العجوز (آه، رفقاً بي، هناك).

غطس بهما مصعد زجاجي نازلاً إلى الأسفل ليستقر على أرضية قبو أبيض، في المركز منه كان يقف – الجهاز الأسطوري.

(هناك). مس ستايلز زراً فما كان من الغطاء البلاستيكي الذي غلف عربة الزمن مائة سنة إلا الانفراج نحو الجانبين. هز العجوز رأسه وقال (امض. اجلس).

تحرك شاموي نحو المركبة ببطء.

لمس ستايلز زراً آخر فملأت المركبة كما لو أنها كهف من خيوط العنكبوت. لقد تنفست السنين وهمست بالذكريات. في عروقها الكريستالية أشباح. عنكبوت ضخمة نسجت خيوطها بليلة واحدة. كانت مفكرة وكانت حية. أمواج غير مرئية تأتي خلال محركاتها. شموس وأقمار أخفت مواسمها فيها. هنا، طير الخريف أسماله، قدمت شتاءات بالثلوج التي أخرجت أزهار ربيع فألقتها إلى حقول صيف.

جلس الشاب في المركز من هذا كله، غير قادر على الكلام، متمسكاً بذراعي مقعد القيادة.

(لا تخف) قال العجوز برقة. (لن أدعك تسافر).

(لن أعارض). رد شاموي.

تمعن العجوز بوجهه، وقال (كلا أرى أنك لست خائفاً. أنت اليوم تشبهني قبل مائة سنة. إنك بحق بمثابة ابني الفخري).

أطبق الشاب عينيه لهذا الإطراء، وتلألأت أجفانه بأنفاس الأشباح في العربة وهي تعده بالغد.

(حسناً، ما رأيك بعربتي هذه، "عربة توينبي؟" قال العجوز برشاقة ليكسر الانسحار المستولي على الشاب.

فصل العجوز الكهرباء وفتح الشاب عينيه.

(عربة "توينبي"؟ لماذا...)

(مزيد من الأسرار، هاه؟ توينبي العظيم، المؤرخ الرائع الذي قال: أية مجموعة، أي قوم، أي عالم لا يجري للقبض على المستقبل سيحكم عليه بالموت والنسيان).

(هل قال ذلك؟)

(أو شيء من هذا القبيل. أجل لذا، أي اسم أفضل من هذا لعربتي، هاه؟ توينبي، أينما تكون، هذا هو جهازك، ماسك المستقبل!).

قبض العجوز على كوع الشاب وقاده خارج العربة.

(يكفي هذا. تأخر الوقت. اقتربت لحظة الوصول العظيم، إيه؟ والإعلان النهائي الذي هز الأرض، الإعلان الذي أطلقه مسافر الزمن العجوز ستايلز! اقفز!).

* * *

بعودتهم إلى السطح، رأيا الحدائق في الأسفل، مكتظة بالمشاهير وأشباه المشاهير من جميع أقطار الأرض. كانت الطرق القريبة مزدحمة، والسماء مليئة بطائرات الهيليكوبتر وطائرات أصغر حجماً. توقف السباحون الشراعيون منذ فترة طويلة، وهم الآن واقفون على طول المنحدر كأنهم طيور عملاقة مشعة، الأجنحة مطبقة، الرؤوس إلى الأعلى، محدقة إلى الغيوم منتظرة.

(كل هذا) دمدم العجوز (يا إلهي، بسببي).

أحدّ الشاب بصره.

(الرابعة إلا عشر دقائق. الوقت الوشيك للوصول العظيم. عفواً، ذلك ما أطلقت عليه حين كتبت تقريراً عنك إلى الجريدة. لحظة الوصول والمغادرة، برمشة عين، عندما غيرت مستقبل العالم أجمع، بعبورك الزمن، من ليل إلى نهار، من ظلمة إلى ضياء. كنت أعجب دائماً ...).

(ماذا؟)

تفحص شاموي السماء وقال (عندما مضيت قدماً خلال الزمن، هل رأى وصولك أحد؟ هل صادف أن تطلع "شخص ما" إلى الأعلى، كما تعرف، ورأى جهازك محلقاً وسط الهواء، هنا وفوق شيكاغو بعد ذلك، ثم نيويورك وباريس؟ ولا شخص؟).

(حسناً) قال مخترع عربة توينبي (لا افترض أن أحداً ما كان يتوقع ظهوري! حتى لو نفترض أنهم رأوا، فهم بالتأكيد لن يدركوا كنه الشيء الذي ينظرون إليه. كنت حذراً على أية حال، من المكوث طويلاً. احتجت الوقت المناسب فقط لتصوير المدن الحديثة، البحار والأنهار النظيفة، الهواء النقي، الخالي من الدخان، الشعوب المطمئنة، لحيتان المحبوبة التي تم إنقاذها. سريعاً تحركت، برشاقة صورت وعدت أدراجي خلال السنين إلى البيت. اليوم، على النقيض من ذلك، الأمر يختلف. ملايين ملايين العيون المحتشدة سوف تنظر إلى الأعلى مع أعظم التوقعات. كلهم سيرمقون الأفق، لم لا، من ذلك الشاب الأحمق المحترق في السماء، إلى العجوز الأحمق هنا، الذي لا يزال سعيداً لانتصاره؟)

(سيفعلون، آه، حقاً سيفعلون!) قال شام

فرقعة قنينة صرفت انتباه شاموي عن الناس المحتشدين في الحقول القريبة والطائرات الدائرة في السماء، فأبصر ستايلز وهو يحمل قنينة الشمبانيا.

(نخبنا نحن الاثنين واحتفالنا الشخصي).

أمسكا قدحيهما، بانتظار اللحظة الحاسمة والمناسبة للشرب.

(الرابعة إلا خمس دقائق، لماذا لم يسافر أي واحد آخر في الزمن عداك؟) قال الصحفي الشاب.

(لقد وضعت حداً لهذا بنفسي)، أجاب العجوز وهو يضغط على السطح، ناظراً إلى الحشد في الأسفل.

(أدركت خطورة الأمر. كنت شخصاً يمكن الاعتماد عليه، لكن، يا إلهي، فكر بالأمر –لو تحكم بالزمن كائن من كان، مروعاً الأمم، موقعاً الذعر بين السكان، مستغلاً معرفته بتفاصيل حياة نابليون أو هتلر، فماذا ستكون الحصيلة؟ لا، لا. وافقت الحكومة طبعاً – كلا، أصرت – على وضع "عربة توينبي" في مكان مغلق. كنت اليوم، الأول والأخير الذي ترك بصماته على محركها. ظلت الحراسة مشددة ومستمرة، عشرات الآلاف من الأيام، لدفع السرقة عنها. كم الساعة الآن؟).

(الرابعة إلا دقيقة واحدة).

واصلا العد. رفعا كأسي الشمبانيا.

(تسع ثوان، ثمان، سبع -).

كان الصمت مطبقاً على الحشد همست السماء بالتوقعات، ووجهت الكاميرات التلفزيونية إلى الأعلى لتفحص وتبحث.

(ست،خمس، -)

(أربع، ثلاث، اثنتان -)

شربا

(ثانية واحدة!)

شربا الشمبانيا وهما يضحكان. نظرا إلى السماء. حتى الهواء فوق خط ساحل لاجولا كان ينتظر. إنها هنا، لحظة الوصول العظيم.

(الآن!) صاح الصحفي كساحر يصدر الأوامر.

لاشيء.

مرت خمس ثوان.

ظلت السماء فارغة.

مرت عشر ثوان.

كانت الآفاق منتظرة.

مرت عشرون ثانية.

لاشيء.

أخيراً، استدار شاموي ليحدق بعجب إلى الرجل العجوز الواقف جنبه.

بادله ستايلز النظرات وتنحنح وقال:

(أنا كذبت).

(أنت ماذا؟!) صرخ شاموي.

تحرك الحشد في الأسفل بصعوبة.

(كذبت) قال العجوز ببساطة.

(كلا!)

(أجل، صحيح. لم أذهب لأي مكان. لبثت في بيتي وجعلت القضية تبدو كذلك. ليس هناك عربة زمن – شيء شبيه لها فقط).

(لكن لماذا؟) صرخ الشاب متحيراً، وهو يمسك الحاجز على حافة السطح. (لماذا؟)

(أرى أنك تحمل جهاز تسجيل. شغله. نعم. تماماً. أريد الكل أن يسمعوا ما أقول. الآن).

أنهى العجوز كأسه ثم قال:

(لأني نشأت في وقت، لم يعد البشر يؤمنون بأنفسهم: الستينات، السبعينات، الثمانينات، ورأيت ذلك الحجود، وهو سبب كف عن إعطائنا أسباباً للعيش، فتحركت يائساً غاضباً لذلك.

في كل مكان، رأيت وسمعت الشك. في كل مكان، تعلمت الانهيار. في كل مكان كان ثمة سأم مهني، عقم ثقافي، سخرية سياسية، وما لم يكن عقماً وسخرية فشكوكية مفرطة وعدمية بدائية).

توقف العجوز، متذكراً شيئاً ما. انحنى وتناول من تحت الطاولة قنينة (بوركيندي) حمراء عليها علامة 1984. بدأ خلال الحديث، يعالج فلينتها برقة.

(سمّ لي أي شيء أقول لك إنه كان موجوداً. الاقتصاد كان بزاقة. العالم حمأة. الاقتصاديات بقيت سراً لا يفسر. السوداوية كانت الطرق. استحالة التغير كانت الموضة. نهاية العالم الشعار.

لا شيء يستحق العمل. تمضي إلى الفراش في الحادية عشرة متخماً بالأخبار السيئة، وتستيقظ صباحاً في السابعة على أخبار أسوأ. خلال النهار تمشي مجهداً، وفي الليل تغرق بموج من الوباءات والطاعون).

بسلاسة انقذفت الفلينة. الشراب المعتق منذ 1984 جاهز للعرض. شمه مسافر الزمن وهز رأسه.

(لم يفد فرسان القيامة الأربعة فقط، الذين امتطوا الفضاء إلى مدننا، كان الفارس الخامس، الأسوأ بينهم جميعاً، راكباً معهم: اليأس، ملفعاً بحجب من الهزيمة، صارخاً بنسخ مكرورة من كوارث الماضي، من اخفاقات الحاضر وتوجسات المستقبل.

كانت النفايات السود تهمي فوقي ولا من بذور مشعة، فأي نوع من الحصاد كان هناك لرجل يعيش في الجزء الأخير من القرن العشرين الخرافي؟

منسياً كان القمر، منسية مناظر المريخ الحمراء، عين جوبيتر العظيمة، الحلقات العظيمة، حلقات ساتورن المتصلبة رفضنا الراحة، ووقفنا ننشج على قبير وليدنا، وكان الوليد "نحن").

(هكذا كانت الأمور، قبل مائة سنة؟) سأل شاموي.

(نعم). أمسك العجوز بقنينة الخمرة كما لو كانت تحتوي على البرهان.

سكب بعض الشراب في الكأس، نظره، شهق، ثم تابع. (لقد رأيت الجريدة السينمائية، وقرأت كتب ذلك الوقت. أنت تعرفها جميعاً.

أوه، طبعاً، كان هناك عدد من اللحظات المضيئة. حين أسلم "سلك" أطفال العالم إلى الحياة أو ذلك الليل عندما حط "ايكل"، وخطى الجنس البشري خطواته العظيمة على القمر. لكن في الأذهان، وعلى أفواه الكثيرين، ظل الفارس الخامس محتفى به بإصرار. مع آمال عالية، أو هكذا بدت، بانتصاره. حيث الجميع كانوا مقتنعين بكآبة، إن أحكام توقعاتهم صادقة منذ اليوم الأول. حيث النبوءات الشخصية قد أعلنت. نحن حفرنا قبورنا ونحن جهزنا أنفسنا للاستلقاء).

(ولم تكن تسمح بذلك؟) تساءل الصحفي الشاب.

(تعلم إني لا أسمح).

(ولهذا بنيت "عربة توينبي"....)

(ليس في مرة واحدة. تطلب الجلوس فيها سنين من العمل).

توقف العجوز ليرج الخمرة المعتقة، تطلع فيها وراح يرتشف مغمض العينين.

(تلك الفترة، كنت مارقاً، يائساً، أبكي أواخر الليالي بصمت، وأفكر، ما الذي يمكنني عمله لإنقاذنا من أنفسنا؟ كيف أنقذ أصدقائي، مدينتي، ولايتي، بلدي، جميع العالم، من هذا اليأس؟ حسناً، في منتصف ليلة من الليالي كنت داخل المكتبة، وبينما كنت أبحث في الرفوف، لامست يدي كتاباً رائعاً ل هـ.ج. ويلز. شبيه الشبح، سميت آلته الزمنية على مر السنين. "سمعت". فهمت. أصغيت حقاً. ثم صممت. بنيت. سافرت، أو هكذا "بدا". البقية تاريخ، كما تعلم).

شرب مسافر الزمن من خمرته، وفتح عينيه.

(يا إلهي العجب، العجب...) همس الصحفي هازاً رأسه.

في الحديقة السفلى والحقول وراءها وعلى الطريق وفي الهواء، كان الهياج هائلاً. ملايين لا تزال تنتظر. أين مضى المسافر العظيم؟

(حسناً، والآن) قال العجوز وهو يملأ كأساً ثانية من الخمر للصحفي الشاب. (ألست بارعاً صنعت المحركات، بنيت نماذج مصغرة للمدن، البحيرات، البرك، البحار. أنشأت تصاميم للسموات جعلتها شفيفة كالكريستال، تكلمت إلى الدلافين، لعبت مع الحيتان، زورت أشرطة، أسطرت أفلاماً. آه، تطلب العمل مني أعواماً من العرق والتجهيزات السرية قبل أن أعلن سفري، ذهابي وغيابي بالأخبار الجيدة).

شربا بقية الخمرة المعتقة. كان هناك همهمة من الأصوات. الناس المحتشدون في الأسفل، كانوا كلهم ينظرون إلى السطح.

لوح لهم مسافر الزمن واستدار ليواصل الحديث:

(الأمر يعود لك منذ الآن. أنت تملك الشريط عليه صوتي، طازجاً تماماً. هذه ثلاثة أشرطة إضافية، مع كامل التفاصيل. هنا كاسيت فيلم يروي كل حيلتي الملهمة. ها مخطوطة نهائية. خذ، خذها جميعاً، تسلمها. أرشحك لتكون ابني كي تزيل غموض الأب. سريعاً).

شعر شاموي بالعالم ينهار من حوله، وكان يرافق العجوز الذي جر ّه جراً إلى المصعد ثانية. لم يكن يعرف، هل يضحك أم يبكي، لذلك أطلق في النهاية صوتاً صاخباً عظيماً.

مندهشاً، جاوبه الشيخ بصرخة مماثلة، وكانا يخطوان خارج المصعد متقدمين نحو "عربة توينبي".

(إنك تدرك المسألة، بني، أليس كذلك؟ الحياة كانت دائماً كذباً على أنفسنا! كأطفال، رجال شيوخ. كصبابا، فتيات، عجائز، تكذب بنعومة ثم نحيل الكذب حقيقة. ننسج الأحلام ونسخر لها الأذهان والأفكار والأجساد وكل المستلزمات. كل شيء، في النهاية، وعد. ما يبدو كذبة هو في الحقيقة حاجة متداعية، راغبة بالولادة. هنا. هكذا الأمر).

ضغط على الزر فانفتح الغطاء البلاستيكي، وضغط آخر فابتدأت ماكينة الزمن بالدوران ثم دلف سريعاً ليقذف بنفسه على مقعد العربة.

(أدار المفتاح الأخير، أيها الشاب!)

(لكن...)

إنك تفكر، إذا كانت ماكينة الزمن خدعة، فلن تعمل، ما فائدة إدارة المفتاح، صحيح؟ أدره على أية حال. "هذه" المرة، "سوف" تعمل!)

استدار شاموي، وجد مفتاح السيطرة، أمسك به، ثم نظر إلى كرى بينت ستايلز.

(لا أفهم. إلى أين تذهب؟)

(لماذا؟ لأتوحد مع الأزمان. لأنوجد الآن، في الماضي العميق فقط).

(كيف "يكون" ذلك؟)

(صدقني، سوف يحصل الأمر هذه المرة. وداعاً، عزيزي الشاب اللطيف، الرقيق).

(وداعاً).

(الآن. خبرني عن اسمي).

(ماذا؟)

(انطق اسمي وأدر المفتاح).

(مسافر الزمن؟)

(نعم الآن).

سحب الشاب المفتاح. اهتزت الآلة، دارت، توهجت بالطاقة.

(آه) قال العجوز مطبقاً عينيه. كان فمه يبتسم برقة. (نعم). وسقط رأسه على صدره.

أعول شاموي، نقر المفتاح غالقاً إياه ثم تقدم إلى الأمام لينزع السيور التي تربط العجوز إلى آلته.

توقف وسط انشغالاته تلك ولامس رسغ مسافر الزمن. وضع أصابعه تحت الرقبة متفحصاً النبض ثم تأوه. بدأ يبكي. كان العجوز، قد رجع في الحقيقة، إلى الزمن، الذي كان اسمه الموت. إنه الآن مسافر في الماضي إلى الأبد.

تراجع شاموي إلى الوراء وشغل الآلة مرة أخرى. إذا كان العجوز قد مضى في سفره، دع الآلة -صورياً على الأقل - تذهب معه. أطلقت الآلة همهمة تعاطف.

نارها، نارها الشمسية المشعة، سرت في جميع أسلاكها ومحولاتها العنكبوتية وأضاءت خدي وحاجبي المسافر العتيق الواسعين، الذي بدأ رأسه يهتز باهتزاز الآلة، وابتسامته، وقد سافر إلى الظلمة، كانت ابتسامة طفل فائق الرضى. وقف الشاب ماسحاً خديه بقفى كفيه فترة طويلة، بعدها استدار تاركاً الآلة، قاطعاً الغرفة. ضغط على زر المصعد الزجاجي، وبينما هو في الانتظار، أخذ أشرطة مسافر الزمن وأفلامه من جيوب السترة ودفعها واحداً بعد واحد إلى فتحه النفايات الموجودة في الجدار.

انفتح باب المصعد، خطى إلى الداخل، انطبق الباب. همهم المصعد، للحظة، كأي آلة زمن أخرى، صاعداً به إلى عالم مصعوق، منتظر، رافعاً إياه إلى قارة لامعة، إلى أرض مستقبل، إلى كوكب حي عجيب....

كان رجل واحد قد خلقه بكذبة واحدة.

المدينة

انتظرت المدينة عشرين ألف سنة.

سطع الكوكب في الفضاء ونمت زهور الحقل ثم تلاشت، ولازالت المدينة في انتظارها: تدفقت أنهار الكواكب ثم جفت واستحالت إلى غبار. لازالت المدينة في انتظارها. الريح التي كانت هائجة ومتوهجة استدارت لترق وتصفو، والغيوم التي كانت يوماً مكتنزة ماطرة لم تلبث أن تحولت إلى غيوم هائمة في السماء غارقة في البياض.

لازالت المدينة بشبابيكها وجدرانها البركانية السود وأبراجها العالية وبريجاتها الخالية من الأعلام، وشوارعها المهجورة، وقبضات أبوابها التي لم تمسها طبعات الأيدي ولم تلامسها نفايات الورق انتظرت المدينة وهي تقتل في الفضاء متبعة مدارها حول شمس بيضاء مزرقة، فيما كرت الفصول من جليد إلى نار ثم لترجع جليدية وبعدها حقول خضر ومروج صيف مصفرة.

كانت ما بعد ظهيرة الصيفية في منتصف الألف العشري حين كفت المدينة عن الانتظار.

ظهر صاروخ في السماء.

حوم الصاروخ، استدار، رجع، ثم حط على أرض المرج مسافة خمسين متراً عن جدار بركاني.

كانت خطوات لأقدام ثقيلة على الحشائش الرقيقة ونداءات أصوات رجال داخل الصاروخ إلى آخرين خارجه.

(جاهر؟)

(حسناً أيها الرجال. انتبهوا! إلى المدينة. جيسن، أنت وهوشنسون راقبوا المقدمة. افتحوا عيونكم).

عبر جدرانها السود فتحت المدينة خياشيم سرية، سحبت أوردة ماصة مدفونة عميقاً في جسد المدينة عاصفة من الهواء خلل القنوات، دافعة إياها إلى مصاف مهذبة وجامعات غبار وسلسلة من الملفات والأنسجة التي كانت متألقة بضوء فضي. تكرر المص الهائل عدة مرات، وتسربت الروائح من المرج نحو المدينة.

رائحة نار، رائحة نيزك متهاو، ومعدن ساخن. سفينة قادمة من عالم آخر. رائحة نحاس، رائحة مسحوق محترق، كبريت، مخلفات صاروخية.

تلك المعلومات دونت على أشرطة ثم نقلت بمسننات إلى شقوق، لتنزلق أخيراً عبر ألسنة إلى آلات ثانية.

كلاك كلاك كلك. كلاك كلاك كلك.

كان صوت الحاسوب أشبه بصوت بندول. خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة رجال! طابعة سريعة كتبت الرسالة على شريط منزلق اختفى في مكان ما.

كلاك كلاك كلك. كلاك كلاك كلك.

كانت المدينة تترصد الوقع الناعم لجزماتهم المطاطية.

اتسعت خياشيم المدينة العظيمة مرة أخرى.

رائحة زبدة، في هواء المدينة، من الرجال المتسللين، سرت بشكل غامض مويجات شذى خفيف إلى الأنف الكبير لتنحل بعدها إلى ذكريات حليب، وجبنة و آيس كريم وزبدة: البخار غير المرئي للعصور الزراعية.

كلك كلك.

(بحذر يا رجال!)

(جونز، اخرج بندقيتك. لا تكن أحمق!)

(المدينة ميتة، لم القلق؟)

(لا تستطيع الجزم).

في هذه اللحظة، وعلى ضجيج الكلام، استيقظت آذان المدينة، بعد قرون من التنصت إلى الريح وهي تهب ثم تهمد، تساقط الأوراق من الشجر، نمو العشب برخاء بعد ذوبان الثلوج. زيتت الآذان نفسها وشدت أوتارها وراحت تتسمع لخفقات قلوب الدخلاء: الخفقات الشبيهة بارتعاش جناحي فراشة. الآذان أصغت والأنف تنشق كتلة هائلة من الروائح.

نز العرق من الرجال الخائفين. كانت ثمة بحيرات من العرق تحت الأذرع، وتندت أيضاً أيديهم الماسكة للبنادق.

تنشق الأنف الهواء وتفحصه، مثل خبير في الخمور المعتقة.

كلك كلك كلاك.

انحدرت المعلومات إلى الأسفل نحو أشرطة موازية. تعرق، كلور بنسبة كذا، كبريت، نايتروجين، أمونيا، نترات، وهكذا، عضويات، سكو، حامض اللبنيك، هناك!

دقت أجراس قفزت أرقام صغيرة.

زفر الأنف، طارداً الهواء المفحوص. الآذان العظيمة تنصتت.

(كابتن، أعتقد أننا يجب أن نعود إلى الصاروخ).

(أنا أعطي الأوامر أيها السيد سميث!)

(نعم، سيدي).

(أنت، هناك! هل ترى شيئاً ؟)

(لا شيء سيدي. يبدو أنها ميتة منذ وقت طويل!)

(أنظر سميث! لا شيء يخشى منه).

(أنا لا أحبها. لا أدري لماذا. ألا تشعر أنك رأيت المكان سابقاً ؟ حسناً ، المدينة مألوفة جداً).

_(لا يمكن. إن هذا النظام الشمسي يبعد بلايين الأميال عن الأرض، من المستحيل أننا كنا هنا قبلئذ. صار صاروخنا، هو الصاروخ الضوئي الوحيد في الكون).

(هذا ما أحسه سيدي، على أي حال. أعتقد أننا يجب أن نغادر).

الخطى بدت مترددة. ثمة فقط، صوت تنفس الغرباء في الهواء الساكن.

الآذان سمعت وتأهبت. انزلقت الدوارات، والسوائل سرت في شقوق ناعمة نحو صمامات ومراوح. المعادلات والاستنتاجات، تبعت إحداهما الأخرى. بعد دقائق، واستجابة لإيعازات الأنف والأذن، وعبر فتحات عملاقة في جدران المدينة تدفق على الغرباء بخار طازج.

(شم ذلك، سمث! هاه. عشب أخضر. هل شممت شيئاً أطيب منه قبل اليوم؟ يا إلهي، أريد أن أبقى هنا لأجل ذلك فقط).

تسلل إلى الرجال الواقفين كلوروفيل غير مرئي.

(آآآآه).

خطى الأقدام تلاحقت.

(ليس في الأمر ما يريب، هاه، سمث؟ هيا!)

الأذن والعين حررتا بلايين الكسور، نجحت الكسور المضادة. العمليات في طريقها إلى الإنجاز.

العيون الغائمة للمدينة تحركت خارج الضباب والسديم.

(كابتن، الشبابيك!)

(ماذا؟)

(شبابيك البيت هناك! رأيتها تتحرك!)

(لم أرها).

(انحرفت. غيرت ألوانها. من السواد إلى البياض).

(إنها بالنسبة لي كأي شبابيك عادية).

ثمة أشياء نظمت بؤرتها. في البرك الميكانيكية لمدينة غطست أذرع مزيتة، ودارت دواليب وتحركت مغاطس ملأت بالنفط. تثنت إطارات النوافذ. راحت النوافذ تومض.

أسفل، في الشارع سار الرجلان في المقدمة، تبعهم على مسافة قصيرة، سبعة آخرون. كانت ملابسهم بيضاء، وجوه وردية كما لو أنها مصفوعة، وعيونهم زرقاً ، مشوا باستقامة، حاملين فوق أفخاذهم أسلحتهم المعدنية. كانوا يرتدون الأحذية. كلهم رجال بعيون، وآذان، وأفواه، وأنوف.

النوافذ اهتزت. النوافذ شفت. اتسعت بشكل غير محسوس، مثل حدقات عيون لا تحصى.

(إنني أقول لك كابتن، إنها النوافذ)

(استمر).

(أنا راجع سيدي).

(ماذا؟)

(أنا راجع إلى الصاروخ).

(سيد سم)

(لاأريد أن أسقط في أي فخ!)

(هل تخشى من مدينة فارغة؟)

ضحك الآخرون بصعوبة.

(هيا، اضحكوا!)

كان الشارع مرصوفاً بالحجارة، كل حجارة بعرض ثلاثة أنجات وطول ستة أنجات. بحركة غير مميزة سجل الشارع أوزان الغرباء.

في خلية ميكانيكية سجل ذراع أحمر أوزان الرجال 178000 باوند، 210، 154، 210، 198، ثم انزلق شريط التسجيل إلى الظلام الدامس.

المدينة اللحظة مستيقظة تماماً.

الأوردة امتصت الهواء ولفظته، رائحة التبغ من أواه الغرباء، عطور الصابون الأخضر من الأيدي، حتى كرات العيون بدت لها رائحة خاصة.

المدينة دققت في ذلك، وشكلت أرقماً شكلت هي الأخرى أرقاماً ثانية. الشبابيك الكريستالية أومضت. الأذن وترت أجهزتها السمعية، كل حواس المدينة احتشدت مثل تساقط ثلج غير مرئي، حاسبة التعرق وضربات القلب، مصغية، مراقبة، متذوقة.

الشوارع كانت مثل الألسنة، وأينما مر ّ رجال، ينغل طعم أعقابهم بين الصخور ليسجل على الأصباغ. الحسابات الكيميائية تلك، راحت تجمع بحذق، لتلحق بالنتائج الكلية التي تنتظر الحساب النهائي بين دواليب دائرة وأذرع هاس ة.

خطى. ركض.

(ارجع! سمث!)

(كلا، الرحمة!)

(أمسكوه، يا رجال!)

الخطى تندفع.

الفحص الأخير. المدينة، وقد أصغت، راقبت، تذوقت، شعرت، وزنت، ورازت، ينبغي أن، تنجز المهمة الأخيرة.

قذف شرك عريض في الشارع. الكابتن، ومن غير أن يراه أحد، اختفى أثناء الجري.

معلقاً من رجليه، احتزت شفرة رقبته، وأخرى فتحت صدره، ثم أفرغت أحشاءه الداخلية وعرضت على طاولة تحت الشارع. مات الكابتن في غرفة سرية. حدقت مايكروسكوبات كرستالية عظيمة في جدائل العضلات الحمر. أصابع غامضة سبرت القلب الذي لم يزل ينبض. رزم القطع الجلدية صفت على الطاولة بينما كانت الأيدي تزيل أجزاء من الجسد بخفة لاعب شطرنج، مستخدمة أذرعاً حمراً وقطعاً حمراً.

أعلى في الشارع تراكض الرجال. ركض سمث وتعالت خلفه الصيحات. صرخ سمث، وتحت في الغرفة السرية راح الدم يتدفق إلى أوان، خضته، دومته، ثم دفعته إلى شرائح شفافة موضوعة تحت ميكروسكوبات أخرى، حيث أجريت مزيد من الحسابات، وأخذت درجات الحرارة، أما القلب فقطع إلى سبعة عشر قطعة، الكبد والكليتان نصفتا إلى نصفين بخبرة فائقة. أفرغ الدماغ من الجمجمة، وسحبت الأعصاب مثل أسلاك قديمة، العضلات اقتلعت، وخلال ذلك، وفي القبو الكهربائي للمدينة أجرى العقل الأكبر حساباته النهائية ثم بدأت الآلات تهمد بعدها شيئاً فشيئاً.

النتيجة.

إنهم رجال. رجال من عالم بعيد، من كوكب بعينه، لهم عيونهم الخاصة، آذانهم الخاصة، ويمشون على أرجل بطريقة معينة ويحملون أسلحة. إنهم يفكرون ويقاتلون، ولهم قلوبهم الخاصة وكل الأعضاء الأخرى كما جاء بالضبط في السجل المدون منذ زمن بعيد.

في الأعلى، ركض الرجال في الشارع متجهين إلى الصاروخ. ركض سمث أيضاً،

النتيجة.

إنهم أعداؤنا. إنهم من انتظرنا عشرين ألف سنة لرؤيتهم مرة ثانية. انتظرناهم كي ننتقم. كل شيء واضح. رجال الكوكب البعيد الذي يدعى الأرض، الذين أعلنوا الحرب على كوكب تولان قبل عشرين ألف سنة، وأبقونا في الأسر وجروا علينا الخراب وحطمونا بالوباء العظيم. لقد هربوا إلى مجرة أخرى خوفاً من ذلك الذي نشروه هم أنفسهم بعد أن نهبوا عالمنا. لقد نسوا تلك الحرب وذلك الزمن، ونسونا نحن أيضاً ولكننا لم ننسهم، هؤلاء أعداؤنا. هذا أكيد. انقضى انتظارنا.

(سمث، عد!)

سريعاً على الطاولة الحمراء، ومن جسد الكابتن الشبيه بنسر محلق، راحت أياد جديدة تباشر عملها. في الجوف الرطب وضعت أعضاء من النحاس، الرصاص، الفضة، الألمنيوم، المطاط والحرير.

عناكب حاكت أنسجة ذهبية وثبتتها على الجلد، وفي القحف ثبت دماغ من البلاتين يومض بنيران زرقاء، ثم مدت الأسلاك خلال الجسد إلى الذراعين والأطراف. في لحظة قصيرة خيط الجسد، ودهنت الحزوز بالشمع، حول الرقبة والحنجرة والقحف. تمام، طازج، جديد.

جلس الكابتن وثنى ذراعيه.

(توقف!)

عاد الكابتن إلى الظهور في الشارع، رفع بندقيته وأطلق النار.

سقط سمث، رصاصة في قلبه.

استدار الرجال الآخرون.

(ذلك الأحمق! يخاف من مدينة!)

حدقوا في جسد سمث تحت أقدامهم.

حدقوا في قبطانهم، وأعينهم تتسع وتضيق.

(اصغوا إلي!) قال الكابتن. (عندي أمر مهم سأخبركم به).

الآن المدينة التي وزنت وتذوقت وشمت الغرباء، المدينة التي استخدمت كل طاقاتها المخزونة، جهزت نفسها لاستخدام قدرتها الأخيرة، طاقة الحديث. لم تتكلم مع جدرانها الصماء أو أبراجها، ولا مع أزقتها الحجرية أو حصونها الميكانيكية. تكلمت بصوت هادئ على لسان رجل واحد.

(إنني لم أعد قبطانكم). قال. (كما أنني لم أعد بشراً).

تراجع الرجال.

(أنا المدينة) قال مبتسماً. (انتظرتكم عشرين ألف سنة، انتظرت عودة أبناء أبناء أبناء الأبناء).

(سيدي القبطان!)

(دعني أكمل. من بناني؟ الناس الذين ماتوا بنوني. الجنس القديم الذي عاش هنا. البشر الذين تركهم أبناء الأرض يموتون بوباء أشبه بالطاعون، لا شفاء منه. أبناء ذلك الجيل المنقرض، حالمين بعودة الرجال الأرضيين، بنوا هذه المدينة، كان اسمها ولايزال الانتقام، القائمة على كوكب الظلمة، قرب ساحل بحر القرون، تحت جبال الموت. أريد من المدينة أن تكون آلة مضبوطة، كياناً شفافاً، قرون استشعار لتفحص مسافري الفضاء. لم يحط على الكوكب، وخلال عشرين ألف سنة سوى صاروخين. الأول من مجرة بعيدة تدعى آنت، رواد تلك السفينة سرعان ما وزنوا، وفحصوا، وتبين أنهم غير مذنبين، فأطلق سراحهم من غير أذى. وكذلك مع زوار المركبة الثانية. لكن اليوم وبعد انتظار طويل، جئتم. الانتقام سينفذ حتى أدق التفاصيل، أولئك الرجال كانوا قد ماتوا منذ عشرين ألف سنة، لكنهم تركوا المدينة بانتظار .

(سيدي القبطان، إنك لست على مايرام. ربما ينبغي لك العودة إلى السفينة).

اهتزت المدينة.

انفتح الشارع وسقط الرجال، صاروخين.

بسقوطهم رأوا الشفرات اللامعة تومض لملاقاتهم.

الوقت مرّ . فتعالت النداءات:

(سمث؟)

(حاضر)

(بنسن؟)

(حاضر)

(جونسن، هوشنسون، سبرنكر؟)

(حاضر حاضر حاضر)

وقف الجميع بجانب باب الصاروخ.

(سنعود إلى الأرض حالاً).

(نعم، سيدي).

كانت رتوق رقباتهم لا ترى، وكذلك القلوب النحاسية والأعضاء الفضية والأسلاك الذهبية الناعمة لأعصابهم. كان هناك هسيس كهربائي ينبعث من رؤوسهم.

(إلى البديل)

تسعة رجال تعاونوا على وضع قنابل الوباء المذهبة في بطن الصاروخ.

(هي جاهزة لإسقاطها على الأرض).

(نعم سيدي)

اصطفقت نفاثات الصاروخ. قفز الصاروخ إلى السماء.

كما تضمحل الزوابع، استلقت المدينة على الحقول الصيفية. عيونها الزجاجية أغلقت. استرخت الأذن. وتوقفت حركة الأنف، وكفت الشوارع عن الوزن أو الروز، فيما استراحت المكائن في برك الزيت.

غاب الصاروخ في السماء.

ثم استقبلت المدينة فخامة الموت، ببطء ومتعة.

* * *

باركني، أبانا، إنني أخطأت

استيقظ الأب ميلون، قبل منتصف ليلة عيد الميلاد بالضبط، حيث لم ينم إلا بضع دقائق فقط. كان لديه دافع غريب للنهوض، الذهاب، وفتح باب كنيسته الأمامي ليدع الثلج يدخل، وليجلس على كرسي الاعتراف وينتظر.

ينتظر ماذا؟ من يستطيع القول، من يعرف؟ لكن الدافع من القوة حيث لم يتمكن من تجاهله.

(ما الذي يجري هنا؟) غمغم بهدوء لنفسه وهو يرتدي ملابسه.

(إنني في طريقي إلى الجنون، أليس كذلك؟ في هذه الساعة من يجرؤ على الرغبة أو الحاجة لشيء، ثم لماذا ينبغي لي...).

إلا أنه نزل بعد ارتداء ملابسه إلى الأسفل وفتح باب الكنيسة الأمامي ووقف فيه مدهوشاً، إذ أنه أمام مشهد فني عظيم، أعظم من أي صورة في التاريخ. سجادة من الثلج منسوجة بالتخاريم تربت على السقوف وتظلل المصابيح وتدثر بالشالات البيض كتل السيارات الجاثمة قرب الحاجز الحجري. لامس الثلج الأرصفة ثم رموش عينيه، فقلبه. ووجد نفسه يحبس لهاثه انبهاراً بذلك الجمال الثائر، فما كان منه إلا العودة إلى كرسي الاعتراف ليختبئ هناك، وبقية من الثلج تتشبث بظهره.

شيخ أحمق. أخرج من هنا! عد إلى فراشك!

عندما حدث الأمر، صوت على الباب وخطى أقدام تصرف على البلاط أرضية الكنيسة وأخيراً، حفيف كئيب لغريب حط في الجانب الآخر من كرسي الاعتراف. كان الأب ميلون ينتظر.

(باركني) همس صوت الرجل (لأنني أخطأت!). ولعجالة الطلب، لم يستطع الأب ميلون سوى القول مصعوقاً: (كيف أمكنك معرفة أن الكنيسة ستكون مفتوحة وأنني سأكون هنا؟)

(ابتهلت، أبانا، الله جعلك تأتي لتفتح).

بدا أن لا جواب لهذا، فالقس العجوز، وطالب المغفرة العجوز، جلسا فترة طويلة باردة فيما كانت الساعة تغذ الخطى صوب انتصاف اليل. وأخيراً ردد الغريب من الظلام:

(بارك هذا الخاطئ أبانا!).

لكن عوضاً عن مرهم الكلمات وبلسمها، ومع تواثب الميلاد السريع خلال الثلج، انحنى الأب ميلون نحو النافذة المشبكة ولم ينفع قوله:

(لابد أن يكون حملاً مرهقاً من الأخطاء ذلك الذي ساقك خارجاً بمثل هذه الليلة لمهمة مستحيلة صارت ممكنة فقط لأن الله استجاب ودفعني خارج الفراش).

(قائمة مرهقة أبانا، كما سوف تكتشف!).

(تكلم إذن بني، قبل أن نتجمد كلانا).

(حسناً، هكذا هي...) همس الصوت الشتائي من خلف الألواح النحيلة (قبل ستين سنة...).

(ستون؟ تكلم! ذلك الماضي الطويل؟ استمر). لهث القس خجلاً من المقاطعة.

ستون سنة هذا الأسبوع، أول تسوق للميلاد مع جدتي، في مدينة صغيرة تقع آخر الشرق. مشينا كل الشوارع، من كان يملك سيارة تلك الأيام؟ مشينا، ثم عدنا نحو البيت مع رزم الهدايا. قالت جدتي شيئاً ما نسيته منذ فترة طويلة، أغاظني، فركضت بعيداً عنها، هارباً. بعيد جداً، وكنت أسمع نداءها وعويلها وهي تدعوني للرجوع. ارجع، كانت تولول. إلا أنني لم أرجع. عرفت أنني آذيتها، الأمر الذي جعلني أشعر بالقوة والسعادة، فركضت أكثر ضاحكاً، وسبقتها إلى البيت. حين دخلت البيت كانت تلهث وتتشنج كما لو أنها لن تتوقف أبداً. أحسست بالخجل وركضت للاختباء...).

(أهذا كل شيء؟) قال القس مستحثاً).

(القائمة الطويلة). غمغم الصوت خلف القضبان النحيلة.

(استمر). قال القس مطبق العينين.

(أقدمت على أمر شبيه مع أمي، قبل رأس السنة. أغضبتني، ركضت، سمعتها تبكي ورائي. ابتسمت وركضت أسرع. لماذا؟ لماذا، يا إلهي، لماذا؟)

لم يجد القس جواباً.

(أهذا كل شيء إذاً؟) تمتم القس ومن ثم تحرك مقابل الرجل الخفي، بمشاعر غريبة.

(في نهار صيفي، ضربني بعض الأشقياء. وبعد أن مضوا رأيت في أجمة فراشتين جميلتين مذهلتين. كرهت سعادتهما. أمسكتهما بقبضتي وسحقتهما. حولتهما إلى تراب. آه، العار، أبانا).

في هذه اللحظة هبت الريح من باب الكنيسة وحدق كلاهما إلى الأعلى لرؤية أشباح الميلاد الثلجية وهي تتلوى خلال الباب لتسقط بعيداً على شكل ركام أبيض يتجمع على الأرصفة.

(هناك شيء أخير مزعج) قال الرجل العجوز معتزلاً مع حزنه، ومن ثم مواصلاً:

(عندما كنت في الثالثة عشرة وفي أسبوع الميلاد أيضاً، هرب كلبي بو وضاع ثلاثة أيام بلياليها. أحببته أكثر من الحياةنفسها، كان فريداً ورقيقاً ومحبوباً. غاب الحيوان، هكذا، في لحظة، مع كل جماله. انتظرت، بكيت، انتظرت، ابتهلت، صحت حتى تقطعت أنفاسي، أدركت أنه لن يعود، على الإطلاق.

وبعدها، آه، بعدها، في ليلة الميلاد عند الثانية صباحاً، وكان الجليد على الأرصفة ودوالي الثلج فوق السقوف والثلج يتساقط، وسمعت خلال النوم صوتاً، فأفقت كي أسمعه يخمش الباب! غادرت الفراش سريعاً حتى كدت أن أقتل نفسي! فتحت الباب وكان هناك، كلبي التعس، مرتجفاً مستثاراً مغطى برقائق الثلج القذرة، أعولت، سحبته إلى الداخل، صفقت الباب، وسقطت على ركبتي. أمسكته وبكيت أي هدية، أي هدية ناديت اسمه مرة ومرة، وبكل أنين المتعة بكى معي هو أيضاً. ثم توقفت بعدها، هل تعلم ماذا فعلت؟ هل تخمن الشيء المروع؟ ضربته، نعم ضربته، بقبضتي، بيدي، براحتي، ثم بقبضتي مرة أخرى، ناشجاً: كيف تجرؤ على هجري، كيف تجرؤ على الهرب، كيف تجرؤ على فعل ذلك معي، كيف تجرؤ، كيف؟ ثم ضربت وضربت حتى انهدت قواي وكان علي التوقف لأنني رأيت ما صنعت، وكان هو واقفاً فقط، تقبل الأمر كما لو أنه يستحقه فعلاً، خذل حبي وأنا الآن أقوم بالمثل، ثم انسحبت بدموع تسيل من عيني وأنفاسي مختنقة. بعدها أمسكته ثانية وطوقته باكياً: سامحني بو، آه بو، رجاء سامحني. لم أقصد ما فعلت، آه بو، سامحني.

لكن، أبانا، لم يستطع مسامحتي. ما هو؟ دابة، حيوان، كلب. ثم نظرني بعينين عميقتي السواد أغلقتا قلبي، وسيظل مغلقاً على العار إلى الأبد. لم أستطع المغفرة لنفسي بعد ذلك. كل تلك السنين، ذكرى حبي له وخذلاني، وفي كل عيد ميلاد بعدها، لا بقية السنة إنما في ليلة عيد الميلاد، يعود شبحه. أراه، أسمع الضربات، فأتذكر خطيئتي).

صمت الرجل نشجاً، ثم تفوه القس المسن قائلاً:

(ولذلك أنت هنا؟).

(نعم أبانا. أليس الأمر مريعاً ومزعجاً؟).

لم يجب القس، فالدموع راحت تسح على وجهه هو الآخر، ووجد روحه مختنقه الأنفاس بلا حدود.

(هل يغفر لي الله، أبانا؟)

(نعم).

(أبانا، هل تغفر لي أنت؟).

(نعم، لكن دعني أخبرك شيئاً يا بني. عندما كنت في العاشرة حدث معي الأمر نفسه. والدي طبعاً، ثم كلبي، حب حياتي الذي هرب فكرهته لأنه تركني، وحين عاد أنا أيضاً أحببته وضربته، ثم رجعت إلى حبه. حتى هذه الليلة لم أخبر أحداً. ظل الخجل متوهجاً طوال تلك السنوات. اعترفت للقسيس بكل شيء، عدا هذا لذلك -) (لذلك – أبانا؟).

(الرب، الرب عزيزي، سوف يغفر لنا. في الختام نجحنا بالبوح، جرؤنا على القول. وأنا، أنا أسامحك. لكن أخيراً -) لم يستطع القس مواصلة الحديث، فيما دموع جديدة راحت تسيل خفيفة على وجهه وتهطل إلى الأسفل. خمن الغريب ما يفكر به القس فتساءل بحذر شديد (هل ترغب بمغفرتي أبانا؟)

أومأ القس بصمت، وأغلب الظن أن الآخر لمح ظل الإيماءة، فقال بسرعة (آه، حسناً، منحتها لك).

ثم جلس كلاهما في الظلام فترة طويلة، فتحرك شبح آخر على الباب، غطس بعاصفة الثلج ثم تبعثر في البعيد.

(قبل أن ترحل) قال القس (تعال نرتشف قدحاً من النبيذ).

في الساحة المقابلة للكنيسة، أشارت الساعة الضخمة إلى انتصاف الليل.

(إنه ميلاد، أبانا) قال الصوت من خلف الألواح.

(أعتقد أنه الميلاد الأحلى، على الإطلاق).

(الأحلى).

نهض القس ثم خطى خارج مكعب الكرسي. انتظر لحظة لسماع شيءٍ من الضجة، من الحركة في الجانب المعاكس لكرسي الاعتراف. ما كان هناك أي صوت. مشى إلى الباب عابساً، فتحه ثم أنعم النظر في المهجع. لا شيءٍ هناك، لا أحد. تهدل فكه وزحف الثلج إلى مؤخرة رقبته. مد يده إلى الخارج وتحسس الظلام. كان المكان فارغاً ..... حدق إلى باب المدخل وأسرع إلى هناك ليلقي نظرة.

كان الثلج يتساقط والشوارع مهجورة.

استدار عائداً، رأى المرآة الطويلة التي تنتصب في مدخل الكنيسة. كان هناك رجل عجوز منعكساً في الزجاج البارد. رفع يده ودون تفكير تقريباً، رسم علامة الغفران، فما كان من الشبيه المنعكس عن المرآة إلا أن رسم الحركة نفسها.

استدار القس العجوز، للمرة الأخيرة، ماسحاً عينيه، ثم مضى باحثاً عن النبيذ.

في الخارج، كان عيد الميلاد، مثل الثلج، في كل مكان.

المريخ جنة

جاءت السفينة من الفضاء، من النجوم والسرع السوداء، والحركات المشعة، وخلجان الفضاء الصامتة. كانت سفينة جديدة، ثمة نار فيها، وكان الرجال في خلاياهم الحديدية، وكانت تتحرك بصمت ناصع، خفيفة وساخنة. في داخلها كان هناك سبعة عشر رجلاً مع الكابتن. كان الحشد في حقل أوهايو يصرخ ويومئ بأياديه نحو ضوء الشمس، حين أطلق الصاروخ ورودا عملاقة من الحرارة واللون ثم توجه إلى الفضاء، في رحلة هي الثالثة إلى المريخ.

الآن خفض سرعته بكفاءة معدنية فوق جو المريخ. كانت السفينة شيئاً جميلاً وقوياً. لقد تحركت في مياه منتصفات الليالي الفضائية أشبه بحوت بحر شاحب، مرت حول القمر القديم، ثم قذفت نفسها متقدمة خلال فراغ تلو فراغ. كان الرجال في الداخل مهمشين، خاضوا بمرض إثر آخر ثم شفوا، وقد توفي واحد منهم أثناء الرحلة، لكن الرجال الستة عشر المتبقين، بعيونهم الصافية في وجوههم، والذين يضغطونها على البوابة الزجاجية، كانوا يراقبون المريخ وهو يتأرجح تحتهم.

(المريخ!) صاح الملاح لوستي.

(أهلاً أيها المريخ!) قال الاركيولوجي صموئيل هنكستون.

(حسناً) قال الكابتن جون بلاك.

حط الصاروخ في حقل من العشب الأخضر. في الخارج، جوار الحقل، وقف وعل حديدي. وأبعد من ذلك انتصب بيت داكن على الطراز الفيكتوري، هادئ تحت ضوء الشمس، مغطى بالأدراج والزخارف، شبابيكه مصنوع من زجاج أزرق ووردي وأصفر واخضر، أمام سقيفة الباب كان ثمة ورود من الجيرانيوم، وأرجوحة عتيقة معلقة السقيفة، تتحرك أماماً وخلفاً، أماماً وخلفاً في النسيم الخفيف. في قمة البيت كان هناك قبة بشبابيك ماسية ذات زجاج مطلي بالرصاص، وسقف ثقيل. من خلال النافذة الأمامية يمكن رؤية قطعة موسيقية بعنوان أوهايو الجميلة، موضوعة على محل موسيقي.

حول الصاروخ وبالاتجاهات الأربعة انتشرت مدينة صغيرة، خضراء وساكنة في الربيع المريخي. كان هناك بيوت بيضاء، أو مبنية من الطابوق الأحمر وأشجار دردار طويلة تتمايل في الريح أشجار قيقب عالية وجوز بري، وأبراج كنيسة بنواقيس ذهبية صامتة.

نظر رجال الصاروخ إلى الخارج ورأوا كل ذلك. تبادلوا النظرات فيما بينهم ثم تطلعوا إلى الخارج ثانية. أمسك كل واحد كو ع الآخر وفجأة تعسر عليهم التنفس. أصبحت وجوههم شاحبة.

(أمر سيء) قال لوستي وفرك وجهه بأصابعه (أمر سيء).

(لا يمكن) قال صاموئيل هنكستون.

(يا إلهي) قال الكابتن جون بلاك.

كان هناك نداء من المختبر. (سيدي الجو خفيف غير ملائم للتنفس. لكن هناك أوكسجين كاف. اطمئنوا).

(لهذا سوف نخرج). قال لوستي.

(توقف) قال الكابتن جون بلاك. (كيف لنا أن نعرف ماذا هناك؟)

(إنها مدينة صغيرة فيها هواء خفيف لكنه قابل للتنفس).

(وهي مدينة صغيرة تشبه مدن الأرض) قال هنكستون الاركيولوجي (غير معقول. لا يمكن، لكنها كذلك).

نظر الكابتن جون بلاك إليه بكسل. (هل تعتقد أن حضارتين من كوكبين مختلفين يمكنهما التطور بالمعدل نفسه النشوء بالطريقة ذاتها... هنكستون؟).

(لا أستطيع الجزم بذلك سيدي).

وقف الكابتن جون بلاك في البوابة. (انظروا هناك. الجيرانيوم نبتة خاصة. هذا النوع المختلف لم يعرف على الأرض إلا من خمسين سنة فقط. فكروا بآلاف السنين التي تطلبت لإنشاء النبات. ثم أخبروني إذا كان من المنطقي أن المريخين يمتلكون أولاً شبابيك مزجة ثانياً قبابا، ثالثاً أراجيح سقائف، رابعاً جهازاً يشبه البيانو وربما هو يانو، خامساً، إذا ما نظرتم عن قرب بواسطة عدسات التيليسكوب هنا، هل من المنطقي أن عازف موسيقيا مريخيا قد طبع قطعة موسيقية بعنوان غريب بما فيه الكفاية هو أوهايو الجميلة؟ كل الدلائل تشير إلى أننا على ضفة نهر أوهايو لا في المريخ!.

(كابتن وليم، طبعاً!) صاح هينكستون.

(ماذا؟)

(الكابتن وليم مع فريقه المكون من ثلاثة رجال! أو ناثانيال يورك ورفاقه. هذا يفسر كل شيء).

(هذا لايفسر شيئاً على الإطلاق. كما استطعنا أن نعرف لاحقاً، بعثة يورك انفجرت في اليوم الذي وصلت فيه المريخ، وقتل يورك ورفاقه. وكذلك الكابتن وليم ورجاله الثلاثة. سفينتهم انفجرت في اليوم الثاني من وصولهم. على الأقل نبضاتهم الراديوية توقفت منذ ذلك الوقت، لو ظل الرجال أحياء لأمكنهم الاتصال بنا. وعلى أية حال، بعثة يورك كانت منذ سنة، بينما بعثة الكابتن وليم حطت هنا في آب الماضي. افتراضياً أنهم بقوا أحياء، هل يستطيعون حتى بمساعدة جنس ذكي كالمريخيين بناء مدينة مثل هذه وجعلها عتيقة خلال وقت قصير؟ انظر إلى المدينة في الخارج، لماذا كانت هنا واقفة منذ سبعين سنة. انظر إلى خشب السقيفة، انظر الأشجار، بعمر قرن، جميعها. كلا وإنه ليس عمل يورك أو وليم. إنها شيء آخر. أنا لا أحبها. ولن أغادر السفينة حتى أعرف ما هي).

قال لوستي (طبقاً لذلك، وليم ورجاله، وايضاً يورك، حطوا في الجانب المعاكس من المريخ. كنا حذرين جداً في النزول على هذا الباب).

(نقطة رائعة. في حالة وجدوا قبيلة معادية من المريخيين قتلوا وليم ويورك، نحن نملك تعاليم للنزول في منطقة ثانية، لتفادي وقوع كارثة مثل تلك. هنا نحن، بعيداً كما نعرف، في أرض لم يرها وليم أو يورك مطلقاً).

قال هينكستون (يا للجحيم، أرغب بالذهاب إلى المدينة سيدي، بعد موافقتك. ربما هناك تشابه في نماذج التفكير، مشتركات حضارية في كافة المجموعة الشمسية. ر بما نحن على عتبة أعظم اكتشاف نفسي وميتافيزيقي يحدث في عصرنا).

(أرغب بالانتظار لحظة). قال الكابتن جون بلاك.

(ربما سيدي، نحن أمام ظاهرة ستثبت للمرة الأولى وجود الله).

(هناك أناس كثيرون لديهم الإيمان دون هكذا برهان سيد هنكستون).

(أتكلم عن نفسي سيدي، بالتأكيد مدينة مثل تلك لا يمكن أن تنشأ دون تدخل إلهي. التفاصيل. إنها تملؤني بمشاعر لا أعرف معها أأضحك أم أبكي).

(اعمل ما يحلو لك، بعدها سوف نعرف ما نحن في مواجهته).

(مواجهة ماذا؟ مواجهة لا شيء كلبتن. إنها جيدة، مدينة خضراء هادئة، تشبه كثيراً النمط القديم الذي ولدت فيه. إنني أحب منظرها).

(متى ولدت لوستي؟).

(ألف وتسعمائة وخمسون).

(وأنت هينكستون؟).

(تسعمائة وخمس وخمسون. كرينيل، ايوا. وهذه تبدو مثل بلدتي).

(هينكستون، لوستي، أنا بقدر عمر أبويكما. ولدت في الينويز عام 1920، لكن برحمة الرب والعلم الذي استطاع خلال الخمسين سنة الأخيرة أن يعرف كيف يعيد الشباب إلى المسنين، أنا هنا على المريخ، لست تعباً أكثر من البقية، لكن بتأكيد مطلق أكثر شكاً . هذه المدينة التي في الخارج تبدو هادئة وباردة، وهي تشبه مدينة كرين بلف أو الينويز، وهذا ما يرعبني. إنها تشبه كرين بلف جدا). ثم استدار إلى رجل الراديو. (راديو الأرض. خبرهم إننا نزلنا على المريخ. وهذا كل شيء، قل لهم إننا سنقدم تقريراً راديوياً شاملاً في الصباح).

(أجل سيدي).

نظر الكابتن بلاك خارج الصاروخ وكان وجهه لا يشبه وجه رجل في الثمانين بل في الأربعين. (أقول لكم ما الذي علينا عمله، لوستي وهنكستون وأنا سنرى المدينة. الرجال الآخرون سيبقون في السفينة. إن حدث أي شيء سيغادرون فوراً . فقدان ثلاثة رجال أسهل من فقدان السفينة. إذا حدث شيء سيء فريقنا سينذر الصاروخ القادم. صاروخ الكابتن وايلدر كما أعتقد ينبغي أن يكون جاهزاً للانطلاق في رأس السنة القادمة. إن كان هناك شيء عدواني في المريخ ينبغي بكل تأكيد على الصواريخ القادمة أن تتسلح جيدا).

(وهكذا نحن. جلبنا أسلحة نظامية معنا).

(خبر الرجال الآخرين أن يكونوا مسلحين. هيا لوستي وهنكستون).

مشى الرجال الثلاثة معاً نحو مخرج السفينة.

* * *

كان يوماً ربيعياً جميلاً.

هزار وقف على شجرة تفاح يانعة أطلق صوته بالغناء. زخات من بتلات ثلجية كانت تتساقط كلما لامست الريح الأغصان الخضراء، والأزهار كانت ترسل عطرها في الهواء. من مكان ما في المدينة ثمة شخص يعزف على البيانو، وصوت الموسيقى، يأتي ويذهب، ناعماً وسناناً. كان اسم الأغنية الحالم الجميل. وفي مكان آخر، عزف على كرامافون أغنية لهاردي لاودر اسمها رومن ان ذا كلومن.

مشى الرجال الثلاثة خارج السفينة، مصوا الهواء الخفيف وتنشقوه بصعوبة، مشوا ببطء كما لو أنهم يحاذرون من إتعاب أجسادهم.

الآن، أغنية الكرامافون تلعب في الآذان:

آه، امنحني ليلة من حزيران

ضوء القمر وأنت.

بدأ لوستي يرتعش. وكذلك صاموئيل هنكستون.

كانت السماء ساحرة وهادئة، وفي مكان ما تيار من الماء كان يجري خلال كهوف باردة وظلال أشجار المنحدرات. في مكان ما أحصنة وعربة تكرج بضوضاء.

(سيدي، لابد، أو بالتأكيد، كان ذلك الصاروخ الذي بدأ رحلته إلى المريخ قبل سنة من الحرب العالمية الأولى). قال هنكستون.

(الحرب العالمية؟).

(كلا).

(كيف تفسر إذا تلك البيوت، الوعل الحديدي، البيانو، الموسيقى؟). أمسك هنكستون بكوع الكابتن ونظر في وجهه. (لنقل إنه وجد أناس كرهوا تلك الحرب في 1905 فأخذوا بعض العلماء وبنوا صاروخاً ثم جاءوا إلى المريخ...).

(كلا، كلا هنكستون).

(لم لا. كان العالم مختلفاً في عام 1905. الاحتفاظ بسر تلك الرحلة كان سهلاً).

(شيء معقد مثل الصاروخ! لا لا يمكن الاحتفاظ بسر مثل ذاك).

(ثم جاؤوا للعيش هنا، ومن الطبيعي أن تكون البيوت التي بنوها مشابهة للبيوت على الأرض، لأنهم جلبوا الحضارة معهم).

(وعاشوا هنا كل تلك السنوات؟) قال الكابتن.

(بسلام وهدوء، نعم. ربما قاموا بعدد من الرحلات، ملائمة لجلب بشر كافين إلى هنا لمدينة صغيرة، ثم توقفوا لخوفهم من الانكشاف. هذا هو السبب الذي يجعل المدينة تبدو تقليدية. أنا نفسي، لا أرى شيئاً أقدم من العام 1927، وأنت؟ وربما سيدي، رحلات الصواريخ أقدم مما نتخيله. ربما ابتدأت لقرون خلت في بعض بقاع العالم، واحتفظ بها سراً، من قبل عدد صغير من البشر لا يزورون الأرض إلا لماماً).

(إنك تجعل الأمر مقبولاً تقريباً).

(ينبغي هذا. نحن نملك الدليل هنا أمامنا. كل ما علينا القيام به إيجاد بعض البشر والتحقق من ذلك).

أحذيتهم كانت تخمد كافة الأصوات في العشب الأخضر الكثيف. رائحتها رائحة حقول طازجة. وعلى الرغم من توجساته، شعر الكابتن جون بلاك بسلام عميق يلفه. مضت ثلاثون سنة منذ أن كان في مدينة صغيرة، وأزيز النحل الربيعي في الهواء جعله يحس بالطمأنينة، ومنظر الأشياء الطازجة كان مثل بلسم للروح.

وضعوا أقدامهم على ممر يقود إلى بيت. أصداء نداءات كانت تأتي من طاولات كلما تقدموا من حاجز الباب. في الداخل استطاعوا رؤية ستارة مصنوعة من حبات مسبحة، معلقة في مدخل الصالون، وثريا كرستالية ولوحة مكسيكية مؤطرة على أحد الجدران فوق مقعد أندلسي. البيت ذو رائحة عتيقة، وفسيح، ومريح بشكل لا يوصف. وتستطيع أن تسمع دوران الثلج في كأس من الليمون. وفي المطبخ البعيد، وبسبب حرارة النهار، كان هناك شخص ما يحضر وجبة باردة للغداء. شخص يدندن عالياً وجميلاً بصوت مسموع.

قرع الكابتن جون بلاك جرس البيت.

خطوات، وسيدة أنيقة ونحيفة جاءت من خلال الصالون، كانت ذات وجه لطيف وفي الأربعين من عمرها، ترتدي ملابس تعود إلى العام 1909. نظرت إليهم وقالت:

(هل أستطيع مساعدتكم؟)

(آسف، قال الكابتن بتردد، نحن نبحث عن...، هل يمكنك مساعدتنا في...) توقف الكابتن.

نظرت إليه المرأة بعينين سوداوين متعجبتين.

(إن كنتم تبيعون شيئاً ما...). قالت، فقاطعها الكابتن.

(كلا، كلا، أي مدينة هذه؟)

نظرت إليه من الأعلى إلى الأسفل (ماذا تعني بسؤالك أي مدينة هذه؟ كيف تكون في مدينة لا تعرف اسمها؟).

بدا الكابتن كما لو تراوده رغبة في الجلوس تحت شجرة تفاح ظليلة. (نحن غرباء هنا، نريد أن نعرف كيف جاءت المدينة إلى هنا، وكيف جئت أنت إلى هنا؟).

(هل أنت رقيب معلومات؟).

(كلا).

(أي واحد هنا يعرف أن هذه المدينة بنيت في عام 1868، هل هذه لعبة تلعبها؟).

(كلا ليست لعبة. نحن من الأرض).

(من تحت التراب، تعني؟).

(كلا، جئنا من الكوكب الثالث، الأرض، بسفينة. ونزلنا على الكوكب الرابع المريخ).

(هذه) قالت كما لو كانت ترشد طفلاً (كرين بلف، الينويز، في قارة أميركا، مطوقة بالمحيطين الهادئ والأطلسي، في مكان يدعى العالم، أو الأرض بعض الأحيان. امضوا الآن).

استدارت نحو الصالون وتركت أصابعها تمر على الستارة المفضضة.

نظر الرجال الثلاثة بعضهم إلى بعض.

(دعنا ندخل البيت). قال لوستي.

(لا يمكننا فعل ذلك. إنها ملكية خاصة. يا إلهي).

مضوا للجلوس على درجات الممر.

(هل يدهشك هينكستون، ربما حملنا أنفسنا بطريقة ما، خارج الاتجاه، وبصدفة رجعنا ونزلنا على الأرض؟).

(كيف يمكن لنا القيام بهذا؟).

(لا أعلم، لا أعلم. يا إلهي دعوني أفكر).

قال هينكستون (لقد تفحصنا كل ميل خلال الرحلة. عداد المسافة سجل الكثير من الأميال. درنا خلف القمر ثم خرجنا إلى الفضاء، وهكذا نحن هنا. بثقة أقول أننا على المريخ).

قال لوستي (لكنه افترض، صدفة، في الفضاء، في الزمن، تهنا في الأبعاد الكونية وحططنا على الأرض قبل ثلاثين أو أربعين سنة).

(آه، ابتعد لوستي!!).

ذهب لوستي إلى الباب، قرع الجرس، وصاح نحو الغرف الباردة المعتمة (أي سنة هذه؟).

(1926 طبعاً) قالت السيدة، وهي جالسة على كرسيها الهزاز تشرب كأساً من الليمون.

(هل تسمع هذا؟) استدار لوستي إلى الآخرين بوحشية. (1926! لقد سافرنا إلى الوراء في الزمن، هذه هي الأرض!).

جلس لوستي على الأرض، فيما راحت الفكرة المرعبة والعجيبة تتغلغل في الآخرين. أياديهم تصلبت على بهم. قال الكابتن (لم أسمع إلى شيء مثل هذا. شيء يدخل الرعب إليّ كيف يمكن لشيء مثل هذا أن يحدث؟ ليتني استطعت جلب آينشتاين معنا).

(هل يمكن لأي شخص في هذه المدينة أن يصدقنا؟ هل نحن نلعب مع أمر خطر؟ الزمن، أقصد. ألا ينبغي علينا التحليق والرجوع إلى الوطن؟) قال لوستي.

(كلا، ليس قبل أن نحاول مع بيت آخر).

مشوا متجاوزين ثلاث بيوت إلى أن وصلوا إلى كوخ تحت شجرة سنديان. (سأحاول أن أكون منطقياً قدر استطاعتي، لا أصدق أننا وضعنا أصابعنا على الأمر. كما كنت تفترض بأصالة هينكستون، سفرة ذلك الصاروخ حدثت قبل سنين، وحين عاش ناس الأرض سنين على المريخ بدأوا يحنون إلى الأرض، في البداية مرض حنين خفيف، ثم هوا، ثم جنون، فماذا تعمل لو كنت معالجاً نفسياً مع هذه المشكلة؟).

فكر هينكستون (حسناً، سوف أعيد بناء الحضارة على المريخ لتشبه يوماً بعد يوم الحضارة على الأرض. إن كان هناك إمكانية لإعادة إنتاج كل نبتة، كل طريق، كل بحيرة، وحتى محيط، سوف أفعل ذلك. ومع شيء من التنويم والإيحاء سوف أجعل كل شخص في مدينة صغيرة مثل هذه يصدق أنها الأرض وليس المريخ أبداً).

(جيد جداً هينكستون. أظن أننا في الاتجاه الصحيح. تلك المرأة في البيت تفكر فقط أنها تعيش على الأرض. وهذا ينقذها من الجنون. هي وجميع القاطنين هنا في المدينة مرضى لأكبر تجربة في الهجرة والتنويم، لن تشهد مثلها عيناك طوال حياتك).

(هذا هو الأمر سيدي!) تباكى لوستي.

(بالضبط). قال هينكستون.

تنهد الكابتن وقال (حسناً، وصلنا إلى شيء ما، أشعر بتحسن الآن. كل ذلك منطقي كثيراً. ذلك الكلام عن الزمن، الذهاب والرجوع إلى الماضي والسفر عبر الزمن يجعل معدتي تتقلب). ابتسم الكابتن وأكمل (لكن في هذه الحالة، يبدو أننا سنكون محط اهتمام هنا).

(هل سنكون كذلك؟) قال لوستي. (رغم هذا، مثل الحجيج، جاء هؤلاء البشر إلى هنا هرباً من الأرض. ربما لن يكونوا سعداء برؤيتهم إيانا. ربما يحاولون إبعادنا أو قتلنا).

(نحن نمتلك أسلحة متفوقة. هناك البيت القادم. سنرتقي إليه).

لكن وما إن قطعوا المدخل بصعوبة حتى توقف لوستي ونظر إلى المدينة، وعلى الشارع، من خلال الهدوء وبعد الظهيرة الحالمة ثم قال (سيدي!).

(ماذا هناك لوستي؟).

(سيدي سيدي، ماذا أرى!!!)، بدأ يبكي. راحت أصابعه ترتجف وتتلوى، ووجهه يمتلئ بالعجب والمتعة بشكل لا يصدق. بدا كما لو أنه في أية لحظة سيفقد عقله من السعادة. نظر إلى الشارع وبدأ يركض، يقفز ويسقط ثم يقوم ثم يعاود الركض. (انظروا انظروا).

(لا تدعوه يبتعد) قال الكابتن ثم عدا خلفه.

كان لوستي الآن يصيح بخفة. استدار إلى بيت في منتصف الطريق المظلل، ثم صعد إلى الممر إلى بيت كبير أخضر، له ديك حديدي على السقف. راح يطرق الباب، صائحاً باكياً، وركض الكابتن وهينكستون خلفه. كانا منهكين لاهثين بعد ركضهم في الهواء الخفيف. (جدي! جدتي!) كان لوستي يبكي.

وقفت في الباب امرأة ورجل، عجوزين.

(ديفيد) أصواتهما تصاعدت واندفعا لمعانقته والتربيت على ظهره وكانا يدوران حوله. (ديفيد، آه ديفيد. إنها سنوات طويلة! كيف كبرت أيها الصبي، أنت كبير الآن. أيها الصبي كيف حالك؟).

صاح لوستي بحبور (جدي، جدتي، إنكما تبدوان جيدين). أمسك بهما، أدارهما، قبلهما، احتضنهما، بكى عليهما، أمسكهما ثانية، وغمزهما، وكانت الشمس في السماء، والريح تهب، والعشب أخضر، وحاجز الباب كان مفتوحاً.

- ادخل أيها الصبي، ادخل. هناك كثير من الشاي المثلج الطازج لك!).

(عندي أصدقاء هنا) استدار لوستي ولوّح إلى الكابتن وهنكستون ضاحكاً بوقاحة (كابتن تعال إلى هنا).

(أهلاً، ادخلا، فأصدقاء ديفيد أصدقاؤنا أيضاً. لا تقفا هناك!) قال العجوزان.

* * *

في غرفة المعيشة للعجوزين كان الجو بارداً، وساعة الجد البرونزية الطويلة تتك عالياً في أحد الزوايا. كان هناك مخدات ناعمة على الأرائك، والجدران مليئة بالكتب، وبطانية قطعت على شكل وردة، الشاي المبرد في اليد المتعرقة، كان بارداً على اللسان.

(هذا لصحتنا) قالت الجدة وقرعت أسنانها البورسيلينية بالكأس.

(منذ متى وأنتما هنا يا جدتي؟) سأل لوستي.

(منذ موتنا) أجابت الجدة بحدة.

(منذ ماذا؟) سأل الكابتن جون بلاك وهو يضع كأسه على الطاولة.

(نعم، مرّ على موتهم ثلاثون عاماً). قال لوستي.

(وتجلسون هناك هادئين؟) صاح الكابتن.

(آه، من أنت لتسائل ما حدث؟ نحن هنا. ما هي الحياة على أية حال؟ من يدرك سببها أو غرضها؟ كل ما نعرفه أننا نعيش هنا ثانية، من دون أسئلة. فرصة ثانية). دارت في الغرفة ممسكة رسغها (جس) الكابتن رسغها (صلبة أليس كذلك؟) سألته. أومأ الكابتن موافقاً. (حسناً، لماذا تتساءل بمراوغة؟).

(حسناً، ببساطة إننا لم نتوقع أن نجد شيئاً مثل هذا على المريخ).

(الآن وجدته. أستطيع القول هناك كثير من الأشياء في كل كوكب تبين لك طرق الله غير المتناهية).

(أهذه هي الجنة؟) سأل هنكستون.

(غير صحيح، كلا. إنها عالم، ونحن نمنح فرصة ثانية. لم يخبرنا أحد عن السبب. وكذلك لم يخبرنا أحد لماذا كل على الأرض أيضا . أقصد الأرض التي جئتم منها. ما أدرانا بوجود أرض أخرى قبلها؟).

(سؤال جيد) قال الكابتن.

ظل لوستي يبتسم لجديه وقال (أمر جيد رؤيتكم، آه، أمر جيد).

نهض الكابتن وضرب فخذه بطريقة اعتيادية وقال (ينبغي علينا الذهاب. شكراً للشراب).

(سوف تعودون طبعاً ، لعشاء هذه الليلة؟) قال العجوزان.

(سنحاول، شكراً . هناك الكثير الذي يجب القيام به. رجالي ينتظرونني في الصاروخ و...).

توقف. نظر إلى الباب بذعر.

بعيداً في أشعة الشمس ثمة أصوات وتحيات وصياح.

(ما هذا؟) سأل هينكستون.

(سنعرف حالاً) قال الكابتن جون بلاك وهو يخرجمن الباب راكضاً خلال الحديقة الخضراء إلى شارع المدينة المريخية.

وقف يتطلع في الصاروخ. البوابات كانت مفتوحة وطاقمه يتدفق خارجاً ملوحاً بأياديه. تجمع عدد من الناس، وحولهم وبينهم وبجانبهم، كان الطاقم يضحك ويسرع ويتكلم ويصافح. رقص الناس قليلا . الناس محتشدون. والصاروخ كان رابضاً هناك فارغاً مهجورا .

فرقة نحاسية بآلاتها انفجرت بالعزف الفرح في ضوء الشمس. كان هناك دقات طبول وأصوات مزامير. فتيات صغيرات مذهبات الشعر كن يتقافزن إلى الأعلى والأسفل. الصغار يطلقون أصوات الترحيب. رجال سمان يدخنون السيجار، رئيس البلدية ألقى خطابا . بعدها، كل واحد من الطاقم مضى إلى بيت أو كوخ جذلاً، شابكاً بإحدى ذراعيه، أبا أو أماً أو أختا .

(توقفوا!) صرخ الكابتن.

أطبقت الأبواب.

الورود ساخنة وجميع الأشياء كانت ساكنة.

لازالت الفرقة الموسيقية تقرع حول الزاوية، تاركة الصاروخ مشعاً واقفاً تحت الشمس.

(لقد هجروا السفينة. فعلوها. سأنزع جلودهم، لديهم أوامر!) قال الكابتن.

(سيدي، لا تكن قاسياً معهم، أولئك كانوا أقرباء أو أصدقاء قديمين). قال لوستي.

(هذا ليس عذراً).

(فكر سيدي الكابتن، كيف كان شعورهم ما إن رأوا وجوهاً أليفة خارج السفينة؟) قال لوستي.

(كان عندهم أوامر، يا للجحيم!).

(لكن كابتن كيف كنت ستشعر؟).

(كنت أطعت الأوامر). قال الكابتن بفم مفتوح.

ماشياً بجانب الطريق تحت الشمس المريخية، طويلاً ومبتسماً ، بعينين مشعتين وصافيتين وزرقاوين، جاء شاب في السادسة والعشرين من العمر، وصاح بحنو (جون!).

(ماذا؟) قال الكابتن متعجباً .

(جون يا ابن الكلبة).

ركض الشاب إلى الأعلى وسدد ضربة خفيفة من يده إلى ظهر الكابتن.

(هذا أنت؟).

(طبعاً ، من تظنه يكون؟).

(ادوارد!) ناشد الكابتن لوسي وهينكستون ممسكاً بيد الغريب. (إنه أخي ادوارد. ايد أقدم لك رجلي لوستي وهينكستون! أخي!).

وضعت الأم قطعة موسيقية ورقصت مع جون بلاك. كانت تضع ذات العطر الذي وضعته كما يتذكر في ذلك الصيف حين قتلت هي والأب في حادثة القطار. كانت بمنتهى الحقيقة حين رقصت بخفة بين ذراعيه. (ليس كل يوم تمتلك فرصة ثانية للحياة). قالت.

(سأستيقظ في الصباح، وسوف أكون في الصاروخ، في الفضاء. وسيتلاشى كل هذا). قال الكابتن.

(كلا، لا تفكر على هذا النحو. لا تسأل). قالت متباكية.

(أنا أسف يا أمي).

انتهى التسجيل وراح الشريط يدور في الفراغ.

(أنت متعب ولدي) أشار الأب وغليونه في يده. (سريرك القديم ينتظرك، السرير النحاسي وكل شيء).

(لكن علي أن أسجل رجالي).

(لماذا؟).

(لماذا؟ حسناً لا أعرف. ليس هناك سبب كما أعتقد. لا على الاطلاق. جميعهم أكلوا أو في الفراش. ليلة نوم جيدة لن تؤذيهم).

(إنه أمر جيد أن يكون المرء في البيت).

حمل قليلاً من السجائر والعطور والكتب وكان الضوء الخفيف يضيء الدرج، وكان يتكلم ويتكلم مع ادوارد. فتح ادوارد الباب، وكان هناك السرير النحاسي الأصفر، وعمود الاشارة الجامعي، ومعطف فرو الراكون الذي سحبه بتأثير شديد (هذا كثير) قال الكابتن (أنا نعسان ومتعب. اليوم حدث الكثير. أحس كما لو كنت تحت مطر غزير ثمان وأربعين ساعة ومن دون مظلة أو معطف. إنني غارق حتى جلدي بالمشاعر).

سحب ادوارد الشراشف البيضاء وعدل المخدات. فتح النوافذ وترك رائحة ياسمين الليل تتدفق إلى الداخل. كان هناك ضوء قمر وأصوات موسيقى وهمس في المسافات البعيدة.

(هذا هو المريخ إذن؟) قال الكابتن وهو عار.

(هذا هو) قال إيد وهو يتعرى بخفة، وبحركات ناعمة، نازعاً قميصه عن رأسه، مظهر كتفين ذهبيتين ورقبة ضخمة العضلات.

أطفأ الضوء، وتمددا في السرير، جنباً إلى جنب، كما لو كانا مثل السابق قبل عقود عدة. كان الكابتن مهتاجاً لرائحة الياسمين التي تدفع الستائر إلى داخل الغرفة المظلم. بين الأشجار، على الحدائق، كان ثمة شخص أدار الحاكي النقال ليعزف أغنية (دائما).

خيال مارلين خطر في رأسه.

(هل مارلين هنا؟).

أخوه، ممددا في ضوء القمر المنسكب من النافذة انتظر قليلاً ثم قال (نعم. إنها في المدينة، وستكون هنا في الصباح).

كانت الغرفة هادئة ما عدا أصوات تنفسهما.

(تصبح على خير ايد).

وبعد فترة صمت رد ايد (تصبح على خير جون).

تماسكوا بالأيدي والأذرع ثم احتضنوا بعضهم بعضاً. (ايد؟) (جون؟) (تبدو بصحة جيدة ايد. لكن ما هذا؟ لم تتغير طوال هذه السنين. لقد مت، اتذكر، حين كنت في السادسة والعشرين وكنت في التاسعة عشرة يا إلهي، سد طويلة مرت، وها أنت هنا، يا رب، ما الذي يجري هنا؟).

(أمي تنتظر) قال ادوارد بلاك مكشراً.

(أمي؟)

(وأبي كذلك).

(أبي؟) كاد الكابتن يسقط كما لو أصيب بسلاح قاتل. مشى متصلباً ومن دون توازن (أبي وأمي على قيد الحياة؟ أين؟).

(في البيت القديم، في شارع أوك نول).

(البيت القديم، هل تسمع لوستي وهينكستون؟) قال الكابتن مندهشاً.

هينكستون كان قد غاب، إذ رأى بيته القديم أسفل الشارع ومضى إليه راكضاً. كان لوستي يضحك (هل ترى، كابتن، ماذا حدث لكل فرد في الصاروخ؟ لم يستطيعوا الصبر).

أغلق الكابتن عينيه وقال (نعم، نعم، حين افتح عيني ستغيب ايد) رمش وقال (لازلت هنا وتبدو جيداً ايد، يا إلهي).

(هيا، الغداء ينتظرنا. أخبرت أمي). قال ايد.

(سيدي الكابتن، إذا احتجتني فأنا مع أجدادي) قال لوستي.

(ماذا؟ أجل، جيد لوستي. إذن إلى اللقاء) قال الكابتن.

امسك ايد بيد الكابتن ومضوا (هناك البيت، هل تتذكره؟).

(يا للجحيم! أستطيع مراهنتك على الفوز حتى البوابة).

ركضا. ارتعشت الأشجار فوق رأس الكابتن، واهتزت الأرض تحت قدميه. رأى جسد ادوارد بلاك المذهب يتجاوزه في حلم رائع للواقع. رأى البيت يتقدم باتجاهه، وحاجز الباب يفتح عريضاً (لقد فزت!) صاح ايد. (أنا رجل عجوز) قال الكابتن (أنت لازلت شابا. لكنك تغلبني دائماً كما أتذكر).

في الباب كانت الأم وردية ومشعة ومتفتحة. بجانبها وقف الأب بسحنته الرمادية يدخن غليونه.

(أمي، أبي) صاح الكابتن.

ركض على درجات المدخل مثل طفل صغير للقائهم.

* * *

كانت ما بعد ظهيرة طويلة وحسنة. انهوا الغداء المتأخر وجلسوا في الصالون وحدثهم عن الصاروخ وكانوا يومئون له ويبتسمون وكانت الأم هي ذاتها والأب ينفض عقب سيجارته المطفأة ويشعلها ثانية كسابق عهده. وكان

هناك وجبة من ديك رومي للعشاء وكان الزمن يمضي. حين نظفت الملاعق والصحون اتكأ الكابتن إلى الخلف وزفر قناعته العميقة. كان الليل في الأشجار يلو ن السماء، والمصابيح تضيء لونها الوردي بخفوت في البيت المريح. ومن جميع البيوت أسفل الشارع تجيء أصوات موسيقى، بيانو ولعب وأبواب تصفق.

استلقى بسلام تاركاً أفكاره سابحة. لأول مرة تتنحى ضغوطات هذا اليوم جانباً، ويمكنه التفكير بعقلانية الآن. كان اليوم معبأ بالمشاعر. الأيدي العازفة والوجوه الأليفة. لكن الآن... كيف؟ تعجب. كيف صنع كل هذا؟ ولماذا؟ لأي غرض؟ خارج تدخل قدرة إلهية؟ هل هو الرب، إذا، الذي يفكر بأبنائه؟ كيف ولماذا لأي سبب؟

فكر بالنظريات المختلفة التي سمعها في الظهيرة من قبل لوستي وهينكستون. سمح لكل الافتراضات الجديدة أن تدخل رأسه، قلبها، ألقى عليها حزمة من الضوء. أمه، أبوه، ادوارد، المريخ، الأرض، المريخ، المريخيون. من عاش هنا خلال آلاف السنين الماضية؟ المريخيون، أم كانت الحياة هكذا كما هي عليه اليوم؟ المريخيون. كرر الكلمة بخفة وبشكل باطني.

ضحك بصوت مسموع تقريباً، جاءته أسخف فكرة بصورة مفاجئة. أصابته بنوع من البرودة. ليس هناك شيء يمكن افتراضه بالطبع. غير معقول، سخف، ينبغي نسيانها فجاجة.

لكن، فكر، لنفترض فقط... نفترض فقط أنه كان هناك مريخيون يعيشون على المريخ، ثم رأوا سفينتنا ورأونا في داخلها وحسوا بالكره لنا. افترض الآن، بحق الجحيم، أنهم أرادوا تحطيمنا، باعتبارنا غزاة، أشخاصاً غير مرغوب بهم، وأرادوا القيام بذلك بطريقة ذكية، سنؤخذ بدون أية حماية. حسناً، ما هو أفضل سلاح يمتلكه المريخيون ضد رجال الأرض المسلحون بالأسلحة النووية؟

الجواب كان ممتعاً. التخاطر، التنويم. الذكريات، ثم التخييل.

افترض أن كل هذه البيوت ليست حقيقية، هذا الفراش غير حقيقي، لكنها توهمات خيالاتي أنا، تعطي مادة أولية للمريخيين عبر التخاطر والتنويم، فكر الكابتن جون بلاك بكل هذا. افترض أن هذه البيوت هي شكل آخر، شكل المريخيين، لكن اللعب على رغباتي ومطامحي، جعل المريخيين يجعلون كل ذلك يبدو أشبه بمدينتي القديمة، ببيتي لقديم، لأستكن بعيداً عن شكوكي. ما هي أفضل طريقة لاستغباء المرء؟ استخدام أبيه وأمه كطعم. وهذه المدينة، القديمة جداً، من العام 1926، قبل أن يولد أي من رجالي. من السنة التي كنت فيها في السادسة، حيث كانت تسجيلات هاري لودر وماكسفيلد وأوهايو الجميلة وغيرهم، وديكورات نهاية القرن التاسع عشر. ماذا لو أخذ المريخيون ذكريات المدينة خارجياً من عقلي؟ يقولون أن ذكريات الطفولة هي الأوضح. وبعد أن بنوا المدينة من عقلي، ملأوها بقاطنين أحباء من عقول الطاقم القادم على السفينة افترض أن الشخصين النائمين في الغرفة المجاورة ليسا أبي وأمي على الاطلاق. مريخيان، لامعان بشكل لا يصدق، لهما القدرة على الاحتفاظ بي منوماً كل الوقت. والفرقة النحاسية هذا النهار؟ أي خطة بارعة سوف تكون؟ أولاً، الأحمق لوستي، بعدها هنكستون، ثم تجمع الحشد، ثم جميع الرجال في الصاروخ، لرؤية أمهاتهم، عماتهم، أعمامهم، حبيبات، كلهم ماتوا منذ عشر سنوات، أو عشرين، من الطبيعي، عدم إطاعة الأوامر، والاندفاع خارجاً وترك السفينة. ما هو الأكثر طبيعية، الأكثر غير متوقع، الأكثر بساطة؟ المرء لا يسأل كثير أسئلة حين يرى أمه تعود إلى الحياة فجأة، إنه سيكون سعيداً أكثر. وها نحن هنا، في مختلف البيوت، في مختلف الأسرة، دون أسلحة لحمايتنا، والصاروخ يستلقي فارغاً تحت ضوء القمر. ألن يكون الأمر مرعباً ومخيفاً لاكتشاف إن كان هذا جز ء من خطة عظيمة وذكية لتشتيتنا والسيطرة علينا قبلنا؟ في وقت ما من هذا الليل سيغير أخي الذي يرقد بجانبي في السرير شكله، ينصهر، يتغير، ليصبح شيئاً آخر شيئاً مرعباً، مريخياً. أمر بسيط أن يستدير في السرير فقط ويضع سكيناً في قلبي. وفي جميع تلك البيوت في الشارع دزينة من الأخوان والآباء يذوبون ويتناولون سكاكين لفعل أشياء لرجال الأرض غير المتوقعين، النائمين.

يده كانت تهتز تحت الأغطية. جسده بارد. فجأة لم تعد القضية نظرية فقط. فجأة أصبح خائفاً جداً.

رفع جسده عن الفراش وراح يصغي. كان الليل هادئاً. توقفت الموسيقى. ملئت الريح. أخوه يستلقي نائماً جنبه.

أزاح الأغطية بحذر، وطواهما. انزلق من السرير ومشى بخفة قاطعاً الغرفة، وجاءه صوت أخيه قائلاً (إلى أين أنت ذاهب؟).

(ماذا؟).

صوت أخيه كان بارداً جداً (قلت أين تظن أنك ذاهب؟).

(لشرب الماء).

(أنت لست عطشاناً).

(نعم نعم أنا كذلك).

الكابتن جون بلاك هرع راكضاً خلال الغرفة. صرخ. صرخ مرتين.

لم يستطع الوصول إلى الباب.

* * *

في الصباح عزفت الفرقة النحاسية مقطوعة حزينة. من كل بيت في الشارع خرج موكب صغير مهيب، كانوا يحملون صناديق صغيرة، وخلال الشارع المشرق، جاءت جدات وأجداد وأخوات وإخوة وعمات وآباء باكين، ماشين إلى المقبرة، بينما كانت هناك حفر جديدة حفرت مع شواهد قبور حجرية. ست عشر حفرة وست عشر شاهدة. ألقى رئيس البلدية خطاباً قصيراً، وجهه يشبه أحياناً وجه رئيس بلدية، وأحياناً يشبه شيئاً آخر.

أبو جون بلاك وأمه كانا هناك، مع الأخ ادوارد، وكانوا يبكون، تحولت وجوههم من وجوه مألوفة إلى شيء آخر.

جد لوستي وجدته كانا هناك، يبكيان، وجوههما تتموج مثل الشمع وتتألق في النهار الحار.

دفنت النعوش، ودمدم شخص عن الموت المفاجئ وغير المتوقع أثناء الليل لستة عشر رجلاً لطيفاً. سوّيت الأرض على الأكفان وعزفت الفرقة النحاسية مقطوعة كولومبيا والمحيط، التي ترددت في المدينة، ثم أخذ كل شخص في المدينة استراحة ذلك اليوم.

الشيء عند قمة الدرج

وسط القطارات كان.

نزل في شيكاغو ليجد أمامه أربع ساعات من الانتظار.

فكر بالتوجه إلى المتحف، فلوحات رينوار ومونيه تظل لئماً تسحر عينيه وتلامس ذهنه. لكنه كان مترددا. صف التاكسيات خارج المحطة جعل عينيه تطرفان.

لم لا، فكر، يستأجر سيارة، ثلاثين ميلاً إلى الشمال، يصرف ساعة في مدينته القديمة، ثم يودعها للمرة الثانية في حياته، ويعود جنوباً ليأخذ القطار إلى نيويورك، أسعد حالاً وأكثر حكمة أيضا.

نقود أكثر لنزوة بضع ساعات، لكن لا يهم. فتح باب التاكسي، قذف حقيبته إلى الداخل، وقال:

(كرين تاون ذهاباً وإياباً !)

غشت وجه السائق ابتسامة ساحرة وهو يمد يده إلى عداد السرعة، رغم أن أميل كرامر وثب إلى المقعد الخلفي وصفق الباب وراءه.

كرين تاون، فكر، و..

الشيء عند قمة الدرج.

ماذا؟

يا إلهي، فكر، ما الذي يجعلني أتذكر "ذلك" في هذا العصر الربيعي الرائق.

واتجهوا شمالاً، تتبعهم الغيوم، توقفوا في الساعة الثالثة عند الشارع الرئيسي لكرين تاون. نزل، ناول السائق خمسين دولاراً كضمان، طلب منه الانتظار، ورفع بصره. المظلة فوق مسرح جينسي العتيق، وبحروف دموية حمر، كانت تقول: البيت المهووس. الدكتور موت. ادخلوا. لكن لا تحاولوا الخروج.

لا، لا، فكر كرامر. الشبح كان أفضل. عندما كنت في السادسة، كان كل ما دأب على عمله هو، التيبس، الدوران، التثاؤب، ثم الاتجاه إلى الكاميرا بوجهه الشبحي. "ذلك" هو الرعب.

أنا مستغرب، فكر، هل كان الشبح إذاً، إضافة إلى الأحدب، إضافة إلى الوطواط، هي ما أحالت كل ليالي طفولتي تعاسة؟

خلال تجواله في المدينة ظل يضحك بعمق على ذكرياته السالفة...

كيف دأبت أمه القول أثناء فطور الصباح: ماذا "حدث" أثناء الليل؟ هل "رأيته"؟ هل كان "هناك"، أعلى في "الظلام"؟ كم "طوله"، ما "لونه"؟ كيف نجحت بكتم صراخك "هذه" المرة، فلم توقظ أباك؟ ماذا، "ماذا"؟.

بينما كان أبوه، ينظرهما، كلاهما، من حافة جريدته، ويرمق المشحذ الجلدي المعلق قرب طاولة المطبخ، جاهزاً للاستعمال. وهو، أميل كرامر، بعمر ست سنوات، كان عليه أن يجلس هناك، مستنكراً طعنات الألم في مؤخرته كلما فشل في بلوغ المرحاض الواقع في الطابق الأعلى، كلما أخفق بقضاء حاجته، محاذاة "الوحش المسخ" المترصد منتصف الليل في علية البيت، صارخاً بآخر لحظة ليرجع إلى الأسفل مثل كلب خائف أو قطة محترقة، ليضطجع مسحوقاً مكسوفاً في القعر من الدرج، معولاً:

لماذا؟ لماذا هو هناك؟ لماذا أعاقب؟ ما الذي عملته؟

ثم زاحفاً، مجرجراً نفسه في ظلام البهو يمشي متحساً طريقه إلى الفراش ليضطجع مكروباً بالسائل المتفجر، متوسلاً بالفجر عل ذلك :الشيء" يتوقف عن تنطره فينغل في ورق الجدران أو يغور في الشقوق الموجودة تحت باب العلية.

مرة حاول أن يخفي مبولة تحت الفراش. اكتشفت، أبعدت وأتلفت، مرة، بال في مغسلة المطبخ، ثم حاول استخدامها مراراً إلا أن أذني أبيه الراداريتين، تنبهتا، تسمعتا، وانفجر به صارخاً بضراوة.

نعم، نعم، قال، ومشى خلال المدينة وكان النهار يأتلق بالألوان. وصل الشارع الذي عاش فيه ذات مرة. انطفأت الشمس. وأصبحت السماء قاتمة. لهث.

فقد ضربت أنفه قطرة واحدة من مطر بارد.

(يا ربي) ضحك. ("إنه" هناك. بيتي).

كان فارغاً وعلامة للبيع فوق الممشى.

هناك الواجهة الخشبية، برواق واسع في إحدى جانبيها وبآخر ضيق في الجانب الآخر. هناك الباب الرئيسي، وخلفه، الردهة حيث استلقى في الفراش سوية مع أخيه، متعرقاً طوال الليل، بينما الآخرون يغطون بالنوم ويحلمون. ثم إلى اليمين، غرفة الطعام والباب الذي يقود إلى حجرة الجلوس والدرج الذي يصعد إلى فوق، نحو ليل سرمدي.

سار في الممشى نحو باب الرواق.

"الشيء"، في هذه اللحظة، ما شكله، ما حجمه؟ هل يمتلك لايزال، وجهاً داكاً، وأسناناً مهمشة وعينين ناريتين؟ هل حدث يوماً أن همس أو دردم أو أن...؟

حرك رأسه.

على أية حال، "الشيء" لم ينوجد حقيقة، أم ماذا؟

ذلك بالضبط هو الأمر الذي كان يجعل أسنان أبيه تصطك غضباً كلما حدق إلى ابنه الجبان!

ألا يمكنه أن يرى أن الحجرة خالية؟ "خالية"؟

ألا يعرف هذا الطفل اللعين أنها ماكنة كوابيسه، المثبتة في رأسه، هي التي تومض، خلال الليل، بتلك الثلوج من الرعب، والتي سرعان ما تنحل متحولة إلى هواء خانق؟

وكان أبوه يقوم بحركات بهلوانية لطرد الأشباح.

فتح ميل كرامر عينيه على سعتهما بعد أن انتبه بعجب إلى أنهما كانتا مطبقتين. خطا نحو الرواق. لامس مقبض الباب.

يا إلهي! فكر.

فالباب، غير مغلق، تحرك منفتحاً بهدوء.

البيت وحجرة الجلوس المعتمة فارغان منتظران.

دفع. تحرك الباب إلى الداخل، يرافقه صرير رزاته الناعم.

الليل نفسه الذي كان معلقاً هناك كأنه ستائر مأتمية، لايزال يملأ الحجرة الضيقة مثل تابوت. رائحتها رائحة مطر سنين أخر، معبأة بأشفاق زارتها ذات يوم ولم تغادرها قط.

خطا إلى الداخل.

بلحظة خاطفة، تساقط المطر في الخارج. ولف انهماره العالم. بلل الانهمار أرضية الرواق الخشبية وطغى على صوت تنفسه.

أقدم على المضي خطوة أخرى في ليل مطبق.

ليس هناك ضوء في نهاية الحجرة البعيدة، ثلاث خطوات أعلى...

نعم! "تلك" كانت المشكلة!

لتوفير النقود، لم يترك المصباح مضاء "أبداً"!

لكي تفرغ "الشيء"، كان ينبغي عليك الجري، الوثب إلى الأعلى! فكرت. إذا رأيته، ورآك! كلا. كلا! لكن رأسك ارتج بعد ذلك. نظرت. صرخت!

لأن "الشيء" المعتم كان يطوف في الهواء ويندفع بقوة إلى الأسفل ليطبق على صراخك كأنه قبر!

(هل يوجد أحد في "البيت"...؟) نادى بنعومة.

هبتويح رطبة من الأعلى. رائحة تراب سرداب وغبار عليّة لامست خديه.

(حاجز أم لا)همس (أنا الآن "قادم").

خلفه، انزلق الباب الرئيسي، بخفة، ببطء، منطبقاً على نفسه.

تجمد.

وأجبر روحه على التقدم خطوات أخر.

يا للهول! شعر بنفسه... يتقلص.

يتضاءل إنشاً بعد إنش، يتصاغر، حتىلحم وجهه يضمحل، ملابسه وحذاؤه أصبحت واسعة جداً.

ما الذي أعمله" هنا؟ فكر. ما هي "حاجتي"؟

أجوبة. نعم. هكذا الأمر. أجوبة.

حذاؤه اليمين لامست...

قاعدة الدرج.

لهث. قدمه تراجعت إلى الوراء. بعدها، ببطء، أجبرها على ملامسة العتبة ثانية.

إهدأ. فقط لا تنظر إلى الأعلى، فكر.

أحمق، لهذا أنت هنا. الدرج.

ثم قمة الدرج. تلك هي "القضية"!

الآن....

رفع رأسه بهدوء كبير.

ليحدق من خلال المصباح الأبيض الغاطس في قاعدته الصماء، ستة أقدام فوق رأسه.

كان بعيداً أبعد من القمر.

أصابعه تقلصت.

في مكان ما من جدران البيت، أمه تقلبت في النوم أخوه استلقى متلحفاً بالشراشف الشاحبة، أبوه أوقف شخيره كي... "ينصت".

بسرعة! قبل أن "يستيقظ". اقفز!

بنخرة مزعجة وثب إلى الأعلى. قدمه ارتطمت بالدرجة الثالثة الموجودة "هناك". "جذبها"! ها هو الأمر "مرة أخرى".

ميت! آه، يا إلهي. لا يوجد ضوء. ميت! مثل كل السنين الماضية.

اهتز البيت تحت ثقله مثل ميزان ضخم.

عالياً في هواء منتصف الليل، علم أسود، راية ضخمة نشرت رداءها المأتمي، همساتها الزاحفة.

في الخارج، فكر، تذكر! إنه يوم "ربيعي".

نقر المطر الباب الذي وراءه بهدوء.

(الآن) همس.

وبدأ بالتسلق، موازناً جسده داخل جدران بئر السلم الباردة الراشحة.

(إنني على الدرجة الرابعة). همس.

(أنا الآن على الخامسة..)

(السادسة! هل "تسمع"، يا من يختبئ في الأعلى؟)

صمت. ظلام.

إلهي! فكر، اجر، اقفز، امض إلى المطر، الضوء...

كلا!

(السابعة، الثامنة!)

خفق قلبه تحت ذراعيه، وبين أطرافه.

(العاشرة).

ارتعش صوته. تنفس بعمق و..

ضحك! إلهي، نعم! "ضحك"!

كان أشبه بتكسر زجاج. تبعثر رعبه، تلاشى.

(الحادية عشرة!) أعول. (الثانية عشرة!) صاح. (الثالثة عشرة!) تعب.

يا للبؤس! يا للجحيم، إلهي، نعم، يا للجحيم! الرابعة عشرة!

إنه بعمر السادسة، لماذا لم يفكر بذلك من قبل؟ اقفز إلى الأعلى فقط، أطلق الضحكات، تقتل ذلك "الشيء" إلى الأبد!؟

(الخامسة عشرة) شخر، وكاد أن يغص بالبهجة.

قفزة أخيرة رائعة.

(ستة عشرة).

وصل. لا يستطيع التوقف عن الضحك.

شمّر قبضته باستقامة في الهواء البارد المعتم الصلد.

الضحكة تجمدت، وانحشرت الصرخة في حنجرته.

امتصه ليل الشتاء.

"لماذا"؟ صوت طفل تردد من الأسفل البعيد قادماً من زمان آخر. لماذا أعاقب؟ ما الذي "عملته"؟

توقف قلبه، ثم تزلزلت فخذاه. قذيفة من الماء الحارق انفجرت سائلة متحدرة إلى رجليه.

(كلا!) صرخ.

فقد مست أصابعه شيئاً ما...

كان ذلك، "الشيء" على قمة الدرج. كان دهشاً لغيابه.

كان ينتظر دعوته إلى البيت كل هذه السنوات الطوال...

مطر ناعم سينهمر

في غرفة المعيشة انطلقت ساعة الصوت مرددة: تك -توك، الساعة السابعة، وقت النهوض، الساعة السابعة! كما لو كان الصوت خائفاً من أن أحداً لن يسمعه. إنه الصباح في بيت خال. استمرت الساعة بالنداء تعيد نداءاتها وتكررها في الفراغ. السابعة وتسع دقائق، وقت الفطور، السابعة وتسع دقائق!

في المطبخ أعطى فرن الفطور صوت لهاث وقذف من حرارته الداخلية ثمان قطع من الخبز المحمص، ثمان بيضات مذهبات، ست عشرة شريحة من اللحم، كأسين من القهوة وكأسين باردين من الحليب.

(اليوم هو الرابع من آب للعام 2026). قال صوت من سقف المطبخ (في مدينة الينداﻻ في كاليفورنيا).

أعاد الصوت التاريخ ثلاث مرات من أجل التذكير. (اليوم عيد ميلاد السيد فيثرستون. اليوم الذكرى السنوية لزواج عائلة تيليتاز. التأمين ينبغي أن يدفع، فواتير الماء والكهرباء والغاز أيضاً).

في مكان ما من الحيطان، تختبئ فاسات وأشرطة ذاكرة تنزلق تحت مراقبة عين كهربائية.

(الثامنة ودقيقة، تك توك، الساعة الثامنة ودقيقة، اخرجوا إلى المدرسة، إلى العمل، اركضوا، اركضوا، الثامنة ودقيقة!). لكن لم يصفق أي باب ولم تدعس أية قدم على السجاد. كانت السماء ماطرة في الخارج. صندوق الماء في الخارج كان يردد (مطر، مطر، امضوا، ارتدوا جزمات مطاطية، معاطف مطرية اليوم...) وكان المطر ينهمر على البيت الفارغ يتردد صدى سقوطه بصوت عال.

في الخارج، أزّ الكراج وفتح بابه لتنطلق السيارة المنتظرة. بعد انتظار طويل أغلق الكراج الباب مرة أخرى.

في الثامنة والنصف أصبح البيض متعضنا وتحول الخبز المحمص إلى قطع من الحجر. جرفهم ذراع المنيومي إلى المجلى، حيث دوّمهم ماء ساخن نحو حنجرة حديدية ابتلعتهم وقذفتهم نحو البحر البعيد. اسقطت الصحون الوسخة في مغطس حار ثم ظهرت نظيفة جافة.

(التاسعة والربع، وقت التنظيف) ردد الصوت. برز من خارج علبة مثبتة في الجدار إنسان آلي صغير. ثم ازدحمت الغرفة بحيوانات تنظيف مصنوعة من المطاط والمعدن. خبطوا الكراسي، دوّموا بشواربهم الخيطية، خيطوا البطانيات، لعقوا الغبار بخفة. ومثل دخلاء غامضين رجعوا إلى مواضعهم. لقد أشبعت عيونهم الكهربائية الوردية وأصبح البيت نظيفاً.

العاشرة. خرجت الشمس من خلف الغيوم. وقف البيت وحيداً في مدينة الأنقاض والرماد. إنه البيت الوحيد الذي ظل قائماً في الليل أعطت المدينة الخربة ومضة أشعة راديوية كان يمكن مشاهدتها على بعد أميال.

العاشرة والربع. رشاشات الحديقة قذفت نافوراتها المذهبة مالئة هواء الصباح الناعس بالالتماعات. رشق الماء أطر النوافذ، ثم سال إلى الأسفل غرب البيت الذي احترق حتى طلاؤه. الفسحة غرب البيت كانت سوداء، إلا في خمسة أماكن. أثر رجل كان يحرث الحديقة. هنا، كما لو كانت صورة فوتوغرافية، أثر امرأة منحنية تقطف الزهور. وأبعد من ذلك، أثر طفل يداه مفتوحان على الهواء، وفي الأعلى خيال كرة مقذوفة، وعكس الطفل كان ثمة فتاة رافعة يديها لإمساك كرة لن تصل إليها مطلقاً.

خمس بقع مرسومة، الرجل، المرأة، الطفلان، الكرة، هذا كل ما تبدّى. والباقي طبقة فحمية فقط.

المطر الخفيف ملأ الحديقة بأضواء متساقطة.

حتى هذا اليوم، ما أجمل السلام الذي كان البيت يحتفظ به. كان يسأل بحذر (من يمشي هناك؟ ما هي كلمة السر؟)، ثم لا يجد جواباً من الثعالب المتوحدة والقطط الشاردة، فيغلق النوافذ ويرسل ظلال مقاومة قادمة بردّة فعل ميكانيكية. إنه يعاين أيّ صوت. لا يمكن لأيّ شيء أن يقترب من البيت، حتى الطيور. كان البيت هيكلاً لعشرات الآلاف من الخدم: صغار، كبار، يعملون، ويخدمون بطاعة تامة. لكن كلّ تلك الحسنات قد مضت، بقيت طقوس العبادة، غير محسوسة وليست ذات فائدة.

الثانية عشرة ظهراً.

أنّ كلب ودار عند البوابة الأمامية.

ميز الباب صوت الكلب ففتح درفتيه. الكلب الذي كان ذات مرة سميناً ومشعراً، أصبح اليوم عظاماً وقرحاً، دخل وجال في البيت، ساحباً الطين خلفه. جرت وراءه فأرة الكترونية غاضبة، غاضبة من التقاط الطين، غاضبة على هذا الازعاج.

لم تدخل من الباب حتى قطعة ورق، إلا أنّ الجدران أطلقت جرذانها الكهربائية بحذر. الغبار المهاجم، الشعر، الورق، اقتنصت عبر الفك الفولاذي للآلات. بعد أن قامت بعملها رجعت ثانية إلى الجدران. ثم أسقط كل ذلك في أنابيب مخبأة في الظلام مثل قوى شريرة. ركض الكلب إلى الطابق العلوي، نابحاً بعصبية على كلّ باب، ثم ميز، لقد ميز البيت أيضاً، إنّ لا أحد هناك سوى الصمت. شم الكلب الهواء وخربش على باب المطبخ. الفرن كان يقوم باعداد قالب كاتو ملأ البيت برائحة الاسفندان اللذيذة. بفم مزبد، استلقى الكلب على الباب، متشمماً، وعيناه أصبحتا حمراوين. ركض حول نفسه وعض ذيله عدة مرات، تشنج ثم مات. ظل ساعة في المدخل.

الساعة الثانية.

ساد هدوء ناعم في النهاية، وتقافزت جيوش من الفئران خارجة بخفة تشبه أوراقاً رمادية تتطاير في ريح كهربائية.

الثانية وخمس عشرة دقيقة.

اختفى الكلب.

في السقف أضاءت التروس فجأة، وأطلقت المدخنة هبابها.

الثانية وخمس وثلاثون دقيقة.

امتدت طاولات من الجدران. ورق اللعب ظهر مع سيل البزورات، ثم هبط مشروب المارتيني مع سندويش من البيض والسلطة. عزفت الموسيقى، لكن الطاولات ظلت صامتة والورق لم يمس. وفي الرابعة طويت الطاولات مثل فراشات عظيمة خلال الجدران.

الرابعة والنصف.

جدران لعب الأطفال أضاءت. تجسدت الأشكال. زرافات صفراء، أسود زرق، وعول قرمزية، فهود ليلكية مغطاة بالمواد البلورية. كانت الجدران زجاجية. إنها مشبعة باللون والخيال. أفلام غير مرئية سلطت على شاشات جدارية فأصبحت الجدران مليئة بالحياة. أرضية غرفة الأولاد تحولت إلى حديقة. فوق هذا تراكضت أسماك ألمينومية وجداجد حديدية، وفي الهواء الساكن الحار طارت فراشات حمراء ناعمة بين تلك الحيوانات. كان هناك أزيز لنحل يتخلل الأرائك، وزئير خفيف لأسود. هناك صوت مطر غابي يتساقط على عشب ربيعي. تناءت الجدران لتصنع سماء دافئة غير متناهية. الحيوانات انسحبت إلى جحورها. كانت ساعة الأطفال.

الساعة الخامسة.

ملئ البانيو بالماء الحار الصافي.

الساعة السادسة، السابعة، الثامنة. صحون العشاء انتظمت بطريقة سحرية، بتكة واحدة، وفي عمود معدني، كان ثمة نار لسيجار، ينطلق منه الدخان، كان جاهزاً للتدخين.

التاسعة مساء سخنت الأسرة دوائرها الكهربائية فالليلة باردة. وفي التاسعة وخمس دقائق انطلق صوت قائلاً (سيدة ماكلين أية قصيدة ترغبين هذا المساء؟).

كان البيت صامتاً. قال الصوت أخيراً (طالما لا تختارين شيئاً، سأختار قصيدة لا على التعيين). موسيقى هادئة تصاعدت من وراء الصوت. سارة تيسدال. كما ادعي أنها قصيدتك المفضلة...

سيأتي مطر خفيف مع رائحة الأرض

والسنونو يدور مع أصواته المرنّة

الضفادع في المستنقعات تغني في الليل

وأشجار الخوخ البري في بياض شاسع

الغربان سترتدي ريشها الناري

مطلقة نواحها على قضبان السياجات الخفيضة

لا أحد سيعرف شيئاً عن الحرب، لا أحد

يهتم في النهاية إذا ما قامت

لا أحد سوف يتذكر، لا الطيور ولا الأشجار
إن اختفى البشر حتى النهاية

والربيع ذاته ما أن يستيقظ عند الفجر
سيعرف مرعوباً أننا قد مضينا

أحرقت النار صخرة الموقد، والسيجار احترق كذلك متحولاً إلى رماد ساكن في المنفضة. والكراسي قابلت بعضها فارغة بين الجدران الصامتة، بينما كانت الموسيقى تصدح.

في العاشرة بدأ البيت قصة موته.

هبت الريح، انحنت الأشجار الميتة وسحقت نافذة المطبخ. محاليل التنظيف، قللاني، تناثرت على الطبّاخ. واشتعلت الغرفة بلحظات. (نار) صرخ صوت، شعت أضواء البيت، ومضخات الماء قذفت المياه من السقوف. اللهب انتشر في الأرض الشمعية، لاعقاً، آكلا تحت باب المطبخ، بينما كانت الأصوات تردد مثل كورس (نار، نار، نار!). حاول البيت إنقاذ نفسه. أغلقت الأبواب ذاتياً، لكن النوافذ تحطمت بسبب النار وراحت الريح تهب في الدلخل وتزيد من أوار النار. راح البيت يستسلم كلما تحركت بلايين الشرارات النارية الغاضبة من غرفة إلى غرفة ثم صعوداً نحو الطابق الثاني. وفي هذه الأثناء كانت جرذان المياه تطلق قذائفها المائية من السقف أكثر فأكثر. أطلق الجدار رذاذاً من مطر ميكانيكي. لكن جاء الأمر متأخراً. في مكان ما، لهثت مضخة متوقفة. توقف المطر الصناعي. خزان الماء الذي كان يملأ البانيو فيما مضى ويغسل الصحون كان قد نفد. صعدت النار الدرجات. أكلت في طريقها لوحات بيكاسو وماتيس في الغرف العلوية، عاجنة النسيج الزيتي، حيث تغضن القماش بخفة وتحول إلى نشارة سوداء. كانت النار تستلقي في الأسرة، تقف في النوافذ، تغير ألوان الأقمشة، ثم الدعائم. من أبواب الطابق العلوي، أطلّت مخلوقات آلية عمياء، كانت تنفث محلولاً كيمياوياً أخضر. تراجعت النار، كما لو يفعل فيل أمام منظر أفعى ميتة. وكان هناك عشرون أفعى تتقافز على الأرض، تحاول قتل النار بمحلول بارد صاف من رغوة خضراء. لكنّ النار كانت أذكى. أرسلت لهبها خارج البيت، نحو السطح حيث المضخات هناك. انفجار. عقل السطح الذي يوجّه المضخات تشظى إلى نحاس فوق الجوائز. اندفعت النار إلى الخزائن ولامست الملابس المعلقة هناك.

ارتجف البيت، السنديان عظام فوق عظام، هيكل البيت العظمي ينوس في الحرارة، الأسلاك، تكشفت أعصابه كما أنّ جراحاً أزال الجلد عن الشرايين والأوردة ليجعلها ترتعش في الهواء. النجدة، النجدة! النار! اركضوا، اركضوا. هشمّت النار المرايا مثل جليد أولّ الشتاء الهش. والأصوات تصيح، نار، نار، اركضوا، اركضوا، مثل نواح تراجيدي لأمّ، مجموعة من الأصوات، عالية، منخفضة، مثل أطفال يموتون وحيدين في غابة. وكانت الأصوات تخفت كلّما تفجرت عازلات الأسلاك كبلوط ساخن. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، خمسة أصوات ماتت.

في غرفة الأطفال احترقت الغابة. الأسود الزرق زرأت، الزرافات الأرجوانية قفزت هاربة. الفهود ركضت بدائرة، مغيرة ألوانها، وعشرات الملايين من الحيوانات، ركضت أمام النار، يممت صوب النهر المتبخر. ماتت عشرة أصوات أخرى. في اللحظة الأخيرة، وتحت ألسنة النار، كورس آخر من الأصوات، يمكن سماعه معلناً الوقتاوفاً موسيقى، قاطعاً أعشاب الحديقة بواسطة منجل يدار الكترونياً، فاتحاً مظلة أو مغلقها، غلق الباب الخارجي وفتح، آلاف الأشياء كانت تحدث، كما في محل للساعات، حين تدقّ كلّ الساعات قبل أو بعد بعضها. مشهد فوضى مهووسة، إلاّ أنّه متميز. غناء، صراخ، وبعض من فئران التنظيف الشجاعة تحاول إزالة الرماد. وصوت وحيد غير عابئ بالوضع كان يقرأ قصيدة عالياً، وبثبات، حتى احترقت جميع الأفلام والأسلاك والدوائر الكهربائية. فجّرت النّار البيت، وحوّلته إلى ركام، باعثة حوله غيمة من دخان وشظايا.

في المطبخ، قبل لحظة من تساقط النار، كان الفرن يصنع الفطور بسرعة مجنونة: عشر طبقات بيض، ستة قضبان من الخبز، عشرين علبة من اللحم، أكلتها النار، فابتدأ الفرن يعمل من جديد بهستيريا مسموعة. ثم جاء الاصطدام. هبط السطح على المطبخ والمدخل. المدخل على القبو، والقبو على الأسس. تجمد عميق، كراس بأذرع، أشرطة أفلام، دوائر كهربائية، أسرة، كلها مثل هياكل عظمية سحقت في الأسفل. دخان وصمت. وكميات ضخمة من الدخان.

هل ّ الفجر ناعماً من الشرق. بين الخرائب ظلَّ جدار وحيد منتصباً. من خلال الجدار، صوت وحيد يقول، مرة ومرة ومرة، حتى حين أشرقت الشمس فوق البخار والخراب: اليوم الخامس من آب 2036، اليوم الخامس من آب 2026.

التفاح الذهبي للشمس

(جنوباً). قال القبطان

(لكن)، قال الطاقم، (ببساطة لا يوجد أي اتجاه في الفضاء).

(عندما تسافر باتجاه الشمس) ردَّ القبطان، (وعندما يصبح كلُّ شيء أصفر وساخناً ورجراجاً، عندها ستكون ذاهباً باتجاه واحد فقط). أغلق عينيه وفكَّر بتلك البلاد البعيدة، الحار ّة، المحترقة، بينما كانت أنفاسه تتدافع ببطء. (جنوباً). تمتم مع روحه. (جنوباً).

كان صاروخهم يدعى بروميثيوس، انطلق نحو الصحراء الكبرى وكانت وجهتهم الحقة شمس الظهيرة اللامعة. احضروا معهم، وبمزاج طيب آلاف القناني من عصير الليمون والبيرة. والآن بينما الشمس تغلي فوقهم راحوا يتذاكرون مقاطع من الشعر والمقتبسات:

(التفاح الذهبي للشمس)؟

(بيتس).

(لا تخشى ثانية حرارة الشمس)؟

(شكسبير، طبعاً)!

(كأس من الذهب؟ شتاينبك. جرة الذهب؟ ستيفينس. وما رأيك بقدر من ذهب على نهاية قوس قزح؟ هنالك اسم لمسارنا المنحني، يا إلهي. رامبو)!

(درجة الحرارة)؟

(ألف درجة فهرنهايت)!

حدَّق القبطان خلال عدسات واسعة مظلمة، وهناك كانت الشمس، وللوصول إليها ثمَّ ملامستها وسرقة جزء منها إلى الأبد، كانت هي فكرته الواضحة والبسيطة.

في هذه المركبة الفضائية يتجاور الفاتر اللذيذ والبارد العملي. خلل حجيرات من الجليد والحليب المجمد، يهب شتاء نشادري وعواصف الصلد، أي زفرة نارية، يصدف لها أن تتسلل، ستواجه بشتاء هاجع في الداخل، أبرد من أي وقت من أوقات شهر شباط.

المحرار المترقب في الصمت القطبي كان يشير إلى ألفي درجة فهرنهايت.

إنه يتنازل، فكر ّ الكابتن، كتساقط رقائق الثلج على حضن حزيران، ثمَّ تموز، ثم الأيَّام القاسية الحرارة لآب.

(ثلاثة آلاف درجة فهرنهايت)!

الظهيرة. تموز. الصيف.

(خمسة آلاف درجة فهرنهايت).

وأخيراً تحدث القبطان بكل صمت الرحلة المترسب في صوته:

(الآن، نحن نلامس الشمس).

فكر الطاقم بذلك واصطبغت أعينهم بذهب سائل.

(سبعة آلاف درجة فهرنهايت).

بدا الأمر غريباً أن يحمل صوت المحرار الميكانيكي هذه الإثارة، رغم أن الصوت لا يعدو أن يكون صوتاً حديدياً باردا .

(كم الوقت الآن)؟ سأل شخص ما.

كاد الجميع أن يبتسموا.

إذ منذ اللحظة ليس هناك إلا الشمس والشمس والشمس. كانت هي الأفق كله والاتجاهات. أحرقت الدقائق، الثواني، إطارات الساعات، والبوصلات. أحرقت الزمن واللانهاية. أحرقت رموش العيون، والظلام المطبق خارج الرموش، الشبكية، الدماغ المخفي، أحرقت النوم وذكرياته الحلوة وأحلامه.

(انتبه)!

(قبطان)!

بريتون، الرفيق الأول، سقط بطوله على السطح البارد.

بدلته الواقية انفجرت، حرارته أوكسجينه، وحياته تسربت في البخار المتجمد.

(سريعاً).

داخل قناع الوجه البلاستيكي لبريتون، تجمعت بلورات الحليب بأشكال عشوائية. انحنى الرجال محدقين.

(تمزق في البداية، قبطان إنه ميت).

(متجمد).

نظروا إلى المحرار الآخر الذي أشار إلى شدة البرودة داخل السفينة الفضائية. ألف درجة تحت الصفر. تملى القبطان الجسد المتجمد وطبقة الجليد عليه. يا لها من سخرية، فكر القبطان: شخص يخاف النار فيقتله البرد.

استدار القبطان قائلاً:

(لا وقت لدينا. ولا وقت لدينا. دعوه في مكانه).

(درجة الحرارة)؟ قال.

قفز المؤشر أربعة آلاف درجة.

(انظروا. هل لكم أن تنظروا؟ انظروا).

الدلايات الثلجية أخذت تذوب.

رفع القبطان ر أسه لينظر إلى السقف.

كما لو أنّ آلة عرض سينمائية متسلطة في رأسه، وجد ذهنه يركز بسخف، على مشهد آت من أيام طفولته.

صباحات ربيعية كان فيها طفلاً يحدق من شباك غرفة النوم إلى الهواء المشبع بالثلج، ليرى الشمس تذيب آخر الدلايات الشتائية. مسيل من نبيذ أبيض، دماء ابريل الباردة، تسيل من تلك الصفائح البلورية. دقيقة بعد دقيقة، تتساقط أسلحة كانون الأول. ثم وفي النهاية تتهاوى الدلايات بصوت مكتوم على الممشى الحصوي.

(المكابس الاحتياطية عاطلة، سيدي. تبريد. نحن نفقد الثلج).

تساقطت زخات مطر ساخن عليهم. هزَّ القبطان رأسه يميناً ويساراً. (ألا ترون المشكلة؟ يا إلهي، لا تقفوا هناك، لم يعد لدينا وقت)!

تراكض الرجال، وانحنى القبطان في المطر الحار. بنفور أحسَّ يديه تلمسان المحركات الباردة، كانتا تبحثان عن ذلك المستقبل المتخفي هناك. رأى قشرة الصاروخ تنحل والرجال يتراكضون بأفواه متشنجة صامتة. كان الفضاء مثل بئر طحلبي أسود، حيث الحياة غارقة برعبه وهديره. اصرخ بأعلى صوت، فتجد الفضاء سرعان ما يبتلعه قبل أن يخرج من حنجرتك. الرجال خائفون مثل نمل في علبة تحترق، السفينة تقطر صهيراً، تنفث بخاراً، ثم... لا شيء!

(قبطان)؟

الكابوس يخيم على السفينة.

(هنا). عمل القبطان في غمرة المطر المتساقط من السقف. تحسس المكابس الإضافية. (اللعنة!). راح يهز موصلات التغذية الكهربائية. لو تمَّ الانفجار لأعقبه موت هو الأسرع في تاريخ الموت. لحظة واحدة، عواء، ومض ساخن بعدها الانفجار الرهيب الذي لن يسمعه أحد. ستنفجر أجسادهم مثل حبَّات الفراولة في فرن حار. سيتحولون إلى كتل محترقة وغازات مشعة.

(اللعنة)! طعن المضخات الاحتياطية بالمفك. (يا للمسيح)! صرخ. إنها هامدة تماماً. أطبق عينيه وأسنانه بقوة. يا إلهي، فكَّر هل كان علينا أن نعتاد هذا الموت البطيء مقاساً بالدقائق والساعات؟ الثانية الواحدة ستكون موتاً بطيئاً مقارنة بذلك الشيء الجائع الذي ينتظر التهامنا.

(قبطان، هل ننسحب أم نبقى)؟

(جهزوا القدر. تول الأمر، خلاص. الآن)!

استدار ووضع يديه على محركات القدر الميكانيكية، ثمَّ دسَّ كفيه في كفوف الروبوت. لمسة من أصابعه ستحرك يداً عملاقة لها أصابع حديدية هائلة متصلة بجسد السفينة. الآن، الآن اليد الحديدية العملاقة راحت تنزلق خارج السفينة ممسكة بالقدر، متجهة به إلى الفرن المتلظي، الجسد غير الواضح المعالم، كتلة الشمس التي لا شكل لها.

قبل مليون سنة، فكر الكابتن بسرعة خاطفة، بينما كان يحرك الذراع والقدر العملاقة، قبل مليون سنة رأى رجل عار يمشي مع قافلة بشرية برقاً يصيب شجرة. هرب القطيع البشري فتقدم هو من النار بخوف ثم حملها بيد عارية. حمى القبس الصغير الذي أحرق أصابعه، حماه بجسده من المطر والريح، وأدخله إلى الكهف، أطلق ضحكة ودسَّ تلك النار في كومة أوراق وقش، ثم أعطى لقومه الصيف. بعدها وبوجل زحفت العشيرة نحو النار، ثم مدَّت أياديها لتحسَّ الفصل الجديد داخل الكهف، تلك البقعة الصفراء الملتهبة، مغيرة الفصول، أوحت لهم أخيراً بالابتسام أيضاً. أصبحت هدية النار ملكهم.

(قبطان)؟

تطلب الأمر أربع ثوان لتطقيع اليد العملاقة دسَّ القدر في النَّار. ها نحن هنا مرة أخرى، اليوم، في قافلة ثانية، فكَّر القبطان، للوصول إلى قدر غال من الغاز والفراغ، إلى قبضة من نار مختلفة نرجع بها لتضيء لنا الطريق، نعود بها هدية إلى الأرض، النار التي لا يمكن لها أن تظلَّ مشتعلة إلى الأبد. لماذا؟

لقد عرف الجواب قبل أن يسأل.

لأنَّ الطاقة الذرية التي نشتغل بها على الأرض هزيلة، القنبلة الذرية صغيرة وهزيلة ومعارفنا ضئيلة وتافهة، ليس سوى الشمس من يدرك ما نريد حقاً، الشمس وحدها من يمتلك السر. إضافة لذلك ففي الأمر متعة بالغة، لعبة من ألعاب الحظ، المجيء إلى هنا، التعرض للشمس ثم الهروب. ليس هناك من سبب في الحقيقة، عدا كبرياء بشر ضئيلين يلعبون لعبة خطرة مع أسد. يا إلهي، سنقول، لقد فعلناها. وهنا قدرنا المليء بالطاقة، نار، ذبذبات، سمها ما شئت، فهي التي سوف تضيء مدننا وتحرك سفننا وتجهز مصانعنا بالطاقة وتدبغ أطفالنا بالسمرة وتشوي خبزنا وتمدنا بمعرفة الكون لألف سنة قادمة. هاكم اشربوا، يا نخبة العلم والدين من كأس المعرفة. دفئوا أنفسكم في ليل الجهل، وثلوج الشك الكثيفة، ورياح الجحود الباردة، والخوف العميق من الظلام الذي يحمله كل إنسان. وهكذا: نجذب اليد القابضة على القدر العظيم...

غاص القدر في الشمس. اغترف قطعة من النسيج المقدس، من دم الكون، الفكرة المتوقدة، الفلسفة العمياء التي ولدت المجرة، تلك الكواكب الدائرة المندفعة في مساراتها التي نمت وأوجدت الحياة وسبل العيش.

(الآن، ببطء). همس القبطان.

(ما الذي سيحدث سيادة القبطان حين ندخل القدر إلى داخل السفينة؟ الحرارة الإضافية، وفي مثل هذا الوقت...)

(الرب وحده يعلم).

(كلّ المكابس الإضافية جهزت سيدي).

(شغلها).

المكابس بدأت تدور.

(أغلق غطاء القدر، ثم نحو الداخل، ببطء. ببطء).

خارج السفينة اهتزت اليد الجميلة، وراحت تغوص في جسد السفينة بأجزائها الكبيرة ومنظرها الغريب. القدر مغلق الحواف، تتسرب منه زهور صفر ونجوم بيض، انزلق إلى الداخل. أزَّ المحرار، والمجمدات راحت تتقافز، وراح سائل النشادر يضرب الجدران مثل دماء تجري في رأس مجنون غاضب.

أغلق القبطان باب السفينة الخارجي.

(الآن).

نوكا ينتظرون. تصاعد نبض السفينة. القلب يدق بعنف، القدر الذهبي في الداخل. الدِّماء الباردة أخذت تنساب أعلى وأسفل.

تنفس القبطان ببطء.

الجليد توقف عن الذوبان من السطح. رجع إلى انجماده مرة أخرى.

(لنرحل من هنا).

استدارت السفينة ثم انطلقت.

(اسمع)!

قلب السفينة بدأ يتباطأ. المؤشرات تراكضت إلى الأسفل فوق الأعداد، ابراتها كانت تأزُّ غير مرئية صوت البروميتر تغنى بتغير الفصول. كلهم كانوا يفكرون هكذا: انسحبت بعيداً بعيداً عن النار واللهب، عن الحرارة والصهير، عن البياض والصفرة. اندفع خلل البرودة والظلام. وخلال عشرين ساعة من الآن سيتحتم عليهم ربما إغلاق بعض المبردات، لكي تحلَّ نهاية الشتاء. قريباً سيدخلون عالم الليل والبرودة، حيث يصبح من الضروري استخدام فرن السفينة الجديد، سيسحبون الحرارة من النار المخبأة التي يحملونها مثل طفل ينتظر الولادة.

إنهم ذاهبون إلى الأرض.

إنهم ذاهبون ولم يتبق طويل وقت على الرحلة. عاد القبطان إلى جثة بريتون الملقاة على حافة الثلج الأبيض البارد، وراح يستعيد في ذهنه قصيدة كتبها قبل أعوام طويلة:

أكثر الأحيان أتخيل الشمس شجرة تحترق

ثمارها الذهبية تتأرجح مشعة في الهواء

تفاحها الدافئ بالإنسان والجاذبية

تنث القداسة في جميع الاتجاهات

كالإنسان أرى الشمس شجرة تحترق

جلس القبطان جنب الجثة شاعراً بأحاسيس متضاربة. إنني حزين. فكر القبطان، أشعر بالرضى، أحس نفسي مثل صبي يعود من المدرسة إلى البيت ويداه مليئتان بالحلوى.

(حسناً)! قال القبطان وهو جالس وعيناه مغلقتان، (حسناً، أين نذهب الآن)؟ كان رجاله يحيطون به جالسين أو واقفين، رعب الموت فيهم، أنفاسهم هادئة. (بعد أن رحلت كل هذه الرحلة، باتجاه الشمس، ثم لمستها وطارت حولها، ولامستها ثم غادرت بعجلة، إلى أين تمضي الآن؟ حين تبتعد عن الحرارة وضوء الظهيرة والسكون، إلى أين تمضي بعدها)؟

كان رجاله ينظرون ما سوف يقوله. كانوا ينتظرونه ليستجمع البرودة والبياض، عنت الرحلة وطراوة الطقس، في كلمة واحدة، كان يلملمها في ذهنه مثل قطعة من الآيس كريم.

(هنالك اتجاه واحد في الفضاء). قال في النهاية.

كانوا ينتظرون. كانوا ينتظرون وكانت السفينة تتحرك نحو الظلام البارد بعيداً عن الضوء. (شمالاً) تمتم القبطان. (شمالاً).

ثم ابتسم الجميع، وكأن ريحاً مفاجأة أخذت تهب في منتصف ظهيرة ساخنة.

البحيرة

قطعوا السماء بقدر حجمي، وقذفوها على بحيرة ميشيكان، ووضعوا أطفالاً على الرمال الصفراء مع كرات منفوخة، نورس وأ نورسان، آباء متذمرون، وخرجت مع الموج الرطب، لأجد هذا العالم معتماً ورطباً.

ركضت على الشاطئ. نشفتني أمي بمنشفة فرائية وقالت (قف هناك وجفف جسدك).

وقفت متطلعاً إلى الشمس وهي تأخذ فقاعات الماء عن ذراعي. استبدلتهم ببثرات قليلة.

(ولد، ألبس كنزتك فهناك ريح). (انتظري) قلت وأنا أراقب البثور. (هارولد!) قالت أمي. وضعت الكنزة وأنا أراقب الأمواج تأتي وتمضي على طول الساحل، لكن ليس بعنفوان. كانت تفعل ذلك بنوع من الأناقة الخضراء. حتى الغريق لا يمكنه أن يهوي في مثل هذه الأناقة التي عليها الموج.

إنه أيلول. في أيامه الأخيرة حيث الأشياء تصبح حزينة دون سبب. كان الساحل طويلاً وموحشاً، ليس فيه سوى ستة أشخاص. توقف الأطفال عن قذف كراتهم لأن الريح كانت حزينة أيضاً، وراحوا يصفرون مثلها، وأخيراً جلسوا شاعرين بالخريف يحل على الضفاف غير المتناهية.

جميع محلات بيع النقانق كانت مفتوحة قبل النوم، تبيع النقانق مع صلصلة الفلفل والبصل واللحم، وكانت الرائحة تسيل على الجوار، إنها متع الصيف. كان الأمر يشبه دق مسامير الصيف في سلسلة من النعوش. واحداً بعد آخر أنزلت المحلات أبوابها، وأغلقت، ثم جاءت الريح لتلمس الرمال، مزيلة ملايين طبعات الأقدام لشهري

تموز وآب. هكذا حدث في أيلول، ليس هناك سوى آثار جزمتي المطاطية وآثار البط عند حافة الماء. هب ّ الرمل على المماشي واختفت النزهات، وتجمدت الخيول في مراتعها مكشرة عن أسنانها وراحت تعدو ليس هناك سوى موسيقى الريح.

وقفت هناك. الجميع في المدرسة، إلا أنا. غداً سأقطع الولايات المتحدة بواسطة قطار نحو الغرب. جئنا أنا وأمي إلى الساحل لقضاء لحظات فقط. ثمة شيء يدور حول الوحدة جعلني أرغب بالذهاب على طول الشاطئ. قلت.

(حسناً ، لكن أسرع بالعودة، ولا تقترب من الماء).

ركضت، تموج الرمل تحت قدمي وطيرتني الريح. تعرف ما هو الركض، تتفتح الذراعان فتحس كما لو أن أصابعك تمتلك أجنحة. انسحبت أمي وجلست بعيداً . أصبحت بقعة داكنة وكنت وحيداً . الوحدة بالنسبة لصبي في الثانية عشرة شيء جديد. إذ أنه اعتاد على وجود الناس حوله. الطريقة التي يمكنه فيها أن يظل وحيداً هي أن يعيش في رأسه هناك عدد من الناس الحقيقيين في الجوار، يخبرون عما ينبغي عمله وكيف، فالطفل الذي عليه أن يركض على الشاطئ، حتى لو كان الأمر في رأسه فقط، يقذف نفسه في عالمه الخاص، مع قيمه الصغيرة.

الآن أنا وحدي حقاً .

ذهبت إلى الماء وتركته يبرد بطني. قبل كنت دائماً ، مع وجود الحشد، لم أجرؤ النظر، أو المجيء إلى هذه البقعة لأبحث في الماء وأصرخ باسم محدد. لكن الآن...

كان الماء مثل ساحر. يشطرك إلى شطرين. تشعر كما لو أن الماء يقطعك نصفين، الجزء السفلي سكّر يذوب وينحل بعيداً . ماء بارد، وبين حين وآخر، تسقط موجة ناعمة محملة بالأشنات المزهرة.

ناديت على اسمها، ناديت عليه عشرات المرات.

(تالي! تالي! آه تالي!).

طريف، لكنك حين تكون صغيراً تتوقع فعلاً الأجوبة على ندائك. تعتقد أن أي شيء تفكر فيه يمكن أن يكون حقيقة. وفي بعض الأحيان لا يكون ذلك خطأ. فكرت بتالي وهي تتوغل في المياه في أواخر أيار مايس، مع ضفيرتها ذيل الحصان، الشقرا. مضت ضاحكة وكانت الشمس على كتفيها بعمر الثانية عشر. فكرت بالمياه الهادئة وحارس الشاطئ يخوض فيها، وبصراخ أم تالي، وكيف أن تالي لم تخرج من الماء أبداً .

حاول الحارس إقناعها بالخروج، فرفضت. رجع مع أعشاب مائية معلقة بأصابعه الضخمة وكانت تالي قد مضت. لن تجلس قبالتي في المدرسة بعد اليوم، أو تمسك الطابة في الشارع عند ليالي الصيف. لقد توغلت بعيداً جداً ولن تسمح لها البحيرة، بالعودة.

والآن في الخريف الموحش، حيث السماء شاسعة والماء شاسع والشاطئ طويل جداً ، أتيت لآخر مرة وحيداً . ناديت على اسمها مرة بعد مرة. تالي! تالي!

هبت الريح ناعمة على أذني، بالطريقة التي تهب بها على أفواه ذئاب البحر وتجعلها تهمس. تصاعد الماء واحتضن صدري، ثم ركبتي، صعوداً ونزولاً ، بطريقة أو أخرى، لاعقاً كاحلي.

(تالي، ارجعي تالي!)

كنت في الثانية عشرة فقط. إلا أنني أعرف كم أحببتها. ذلك الحب الذي يأتي قبل جميع مغازي الجسد والقيم الأخلاقية. كان من ذلك الحب الذي هو ليس أسوأ من الريح والبحر والرمل مجتمعة معاً إلى الأبد. صنع من جميع النهارات الحارة التي قضيناها سوية على الشاطئ، ومن النهارات الهادئة التي قضيناها في التعلم في المدرسة. صنع من نهارات الخريف الطويلة في سنوات منصرمة كنت أحمل لها كتبها إلى البيت عائداً من المدرسة.

ناديت على اسمها للمرة الأخيرة. ارتجفت. شعرت بالماء على وجهي ولم أعرف كيف وصل إلى هناك لم ترتفع الأمواج على ذلك العلو.

راجعاً، تقهقرت على الرمال ووقفت لمدة نصف ساعة، آملاً بإشارة، بقبس صغير من تالي لكي أتذكرها. ثم انحنيت ونبيت قلعة رملية، جعلتها جميلة، كما اعتدنا أنا وتالي القيام بذلك. لكن هذه المرة لم أبنِ سوى النصف. ثم نهضت. (تالي، إن كنت هنا، تعالي وأكملي النصف الآخر).

مشيت باتجاه تلك البقعة الداكنة التي هي أمي. جاء الماء وخلط القلعة الرملية دائرة دائرة، مهشماً إياها قليلاً قليلاً حتى القاع الأصلي الناعم.

مشيت على الشاطئ بصمت.

بعيداً، ثمة أصوات ناعمة، لكنها لم تكن سوى الريح.

* * *

في اليوم التالي سافرت مع القطار.

القطار يمتلك ذاكرة ضعيفة، إنه يضع كل شيء خلفه. ينسى الأراضي المزروعة لمدينة ايلينويز، نهر الطفولة، الجسور، البحيرات، التلال، الأكواخ، الآلام والمسرات. إنه يشتتها وراءه وتغيب في الأفق.

لقد كبرت، وازداد لحمي ونما ذهني ليصبح أوسع، وقذفت الملابس الضيقة التي لم تعد تناسبني، انتقلت إلى المدرسة العليا ثم الجامعة ثم كتب القانون. وكانت هناك شابة في مدينة ساكر امانتو. عرفتها لفترة ثم تزوجنا. مضيت في دراسة القانون، وصار عمري اثنين وعشرين سنة، ونسيت تقريباً ماذا هو الشرق. مارغريت اقترحت لشهر العسل الرجوع إلى هناك. مثل الذاكرة يعمل القطار في كلا الاتجاهين. يمكن للقطار أن يعيد باندفاع كل الأشياء التي خلفتها وراءك كلَّ تلك السنوات.

بحيرة بلف، سكانها عشرة آلاف تجلت في الأفق. بدت مارغريت جميلة في ملابسها الجديدة. كانت تراقبني وأنا أجمع عالمي القديم ليعيش من جديد. أمسكت بذراعي أثناء ما كان القطار ينزلق إلى محطة بلف حيث أنزلت حقائبنا.

سنوات طويلة، والآثار التي تركتها على وجوه الناس وأجسادهم لا تحصى. حين مشينا في المدينة لم أتعرف على أي شخص. هناك أصداء لملامح قديمة. أصداء خطوات على السكة. وجوه بضحكات صغيرة تعود إلى أيام المدرسة وأرجحات لأراجيح تصعد وتهبط. لم أتكلم شيئاً. مشيت ونظرت ممتلئاً بتلك الذكريات، مثل أوراق الخريف التي جمعت للحرق.

أمضينا أسبوعين كاملين، أعدنا زيارة كل الأماكن معاً. كانت الأيام سعيدة. فكرت أنني أحببت مارغريت جيداً. على الأقل لقد فعلت.

كل ذلك في الأيام الأخيرة حين نزلنا للتمشي على شاطئ البحيرة. لم يكن الفصل متأخراً كما كان في سنة الطفولة تلك، لكن آثار هجر الشاطئ كانت واضحة. بدأ الناس يعودون من الساحل، محلات بيع النقانق سمرت أبوابها وأغلقت، والريح كما فعلت دائماً، كانت تنتظر لتغني لنا. كدت أن أرى أمي تجلس على الرمل كما اعتادت أن تفعل. وجاءني ذلك الشعور في البقاء وحيداً. لم أدفع نفسي لقول هذا إلى مارغريت. فقط أمسكت بها ورحت أنتظر.

أصبح الوقت متأخراً. معظم الأطفال مضوا إلى بيوتهم، وثمة فقط عدد من النساء والرجال يلعبون الكرة في الشمس العاصفة.

سحب مراقب الشاطئ قاربه إلى البر، خرج وهو يحمل شيئاً في ذراعه. تجمدت في مكاني. حبست أنفاسي وشعرت نفسي صغيراً بعمر الثانية عشرة، ضئيلاً، خائفاً جداً ومشوشاً. أعوت الريح. لم أعد أرى مارغريت. لم أعد أرى سوى الشاطئ، وظهور الحارس البطيء من القارب وهو يحمل كيساً رمادياً بين يديه، ليس ثقيلاً، وكان وجهه شاحباً.

(ابق هنا مارغريت) قلت دون أن أعرف لماذا قلت هذا.

(لكن، لماذا؟)

(فقط ابقي هنا، هذا كل شيء).

مشيت ببطء على الرمل إلى حيث يقف الحارس. نظر إلي.

(ما هذا؟). أصررت في السؤال.

(إنها ميتة) قال الحارس بهدوء.

انتظرت.

(شيء مثير، أكثر مما رأيته طوال حياتي. كانت ميتة لفترة طويلة).

رددت كلماته ذاتها. أومأ موافقاً. (عشر سنوات يمكنني القول. لم يغرق أي طفل هنا في هذه السنة. غرق اثنا عشر طفلاً منذ عام 1933. لكننا انتشلناهم بعد بضع ساعات من الغرق. الجميع عدا واحد كما أتذكر. هذا الجسد، لم ظلَّ في الماء عشر سنوات؟ إنه ليس أمراً مسرا ...).

حدقت إلى الكيس الرمادي بين ذراعيه. (افتحه) قلت ولم أعرف لماذا قلت ذلك. وكانت الريح تتعالى. تلمس الكيس وقال (أظن أنها طفلة صغيرة، كونها لازالت ترتدي فوط الطفولة. ليس هناك شيء آخر يمكن الحديث عنه..).

(أسرع أيها الرجل افتح الكيس). تباكيت.

(الأفضل عدم القيام بذلك). قال هذا وهو ينظر إلى وجهي والطريقة التي كنت أنظر فيها. (إنها فتاة صغيرة فقط). فتح جزءاً صغيراً من الكيس وكان ذلك كافياً.

كان الساحل مهجوراً. كان هناك فقط السماء والريح والماء والخريف المتقدم بوحشة. نظرت إليها هناك. رحت أردد شيئاً باستمرار. اسم. نظر الحارس إلي. (أين وجدتها؟) سألت الحارس. (أسفل الشاطئ، في ذلك الاتجاه، في المياه الضحلة. إنه زمن طويل مرَّ عليها أليس كذلك؟).

هززت رأسي. (نعم، هو كذلك. يا إلهي، نعم هو كذلك).

فكرت: البشر يكبرون. لقد كبرت. لكنها لم تتغير. لازالت صغيرة. الموت لا يسمح بالنمو أو التغير. لازالت تمتلكشعراً ذهبياً. ستبقى شابة دائماً وسأحبها دائماً، يا إلهي، سأحبها إلى الأبد.

حزم الحارس الكيس مجدد.

أسفل الشاطئ، بعد بضع دقائق، مشيت وحيداً. توقفت، نظرت إلى شيء ما. إلى المكان الذي وجدها فيه الحارس.

هناك عند حافة الماء، تقوم قلعة رملية، مبنية إلى المنتصف. تشبه بالضبط ما كنا نفعله أنا وتالي. هي تبني نصفاً وأنا أبني نصفا، نظرت إلى القلعة. انحنيت بجانب القلعة. ورأيت آثار أقدام صغيرة تأتي من البحيرة وتعود إليها دون أن تعود ثانية.

ثم أدركت الأمر. (سوف أساعدك على إكمالها) قلت. ففعلت. أكملت البناء حتى النهاية ببطء، ثم وقفت وعدت أدراجي دون أن أنظر إلى الوراء، فأنا لا أرغب برؤية القلعة تتلاشى بفعل الموج كما تتلاشى كل الأشياء.

مشيت عائداً على طول الساحل، إلى حيث كانت تقف امرأة غريبة اسمها مارغريت، وقفت تنتظرني وهي تبتسم....

الاقتسام الطويل

(لقد "غيرت" القفل!)

بدا مصعوقاً، وهو واقف في الباب يتطلع إلى مقبضه، وكان يعبث به بإحدى يديه فيما كانت الأخرى تطبق على الباب القديم بإحكام.

سحبت يدها عن الجانب الآخر من المقبض ثم مشت مبتعدة.

(لا أرغب بدخول أحد من الغرباء).

(غرباء) صرخ. من جديد هز المقبض ثم وضع مفتاحه متأففاً في مكانه المألوف وأغلق الباب.

(نعم، أعتقد أننا هكذا. غرباء).

لم تجلس بل وقفت في منتصف الغرفة ناظرة إليه.

(دعنا "نسرع" بالعمل).

(أرى أنك "بدأت" بذلك. يا يسوع).

تطلع إلى الكتب وقد قسمت على الأرضية إلى كدسين متقنين بشكل لا يصدق. (أما كان باستطاعتك انتظاري؟).

(فكرت أني سأوفر علينا الوقت) قالت ثم أومأت برأسها إلى اليسار، وإلى اليمين (هذا لي. ذاك لك).

(دعيني أنظر).

(تفضل. لكن كيفما نظرت فالقضية محسومة، هذا لي، وذاك لك).

(أوه، لا يمكن!) خطا إلى الأمام بتثاقل وبدأ يعيد تقسيم الكتب، آخذاً إياها مرة من الكدس اليمين ومرة من الكدس اليسار. (دعينا نبدأ مجددا).

(ستفسد كل شيء!) قالت، تطلب تصنيفها مني ساعات.

(حسناً) قال لاهثاً وهو يركع على ركبة واحدة. (دعينا نصرف ساعات "أخر". "التحليل الفرويدي"! انظر ؟ ما الذي جاء به إلى كدسي؟ أنا أكره فرويد؟).

(فكرت أني سأتخلص منه).

(تتخلصين منه؟ استنجدي بإرادة الله. لا ترمي الكتب الغبية إلى الغرباء، أعني زوجك السابق. دعينا نجعلها ثلاثة أكداس. كدس لي، وكدس لك، والثالث لجيش الخلاص).

(خذ حصة جيش الخلاص "معك" ثم اتصل بهم).

(لماذا، ألا تستطيعين الاتصال بهم من هنا؟ يا إلهي، أنا لا أريد جرجرة تلك الكتب الكسيحة عبر المدينة. ألا تكون الأمور أبسط...).

(طيب، طيب، ثرثرة، ثرثرة. لكن توقف عن خلط الكتب. انظر إلى كدسي ثم إلى كدسك وبعدها إن لم توافق).

(أرى نسختي من ثوربر في جانبك، ما الذي تعمله هناك؟)

(أهديتها لي بمناسبة الميلاد قبل عشر سنوات، ألا تذكر؟)

(أوه) قال وتوقف. (أكيد. طيب – ما الذي جاء بولاكاثر إلى هناك؟)

(أعطيتني إياها بعيد ميلادي قبل اثنتي عشرة سنة).

(يبدو لي أني أفسدتك كثيراً).

(اللعنة لقد فعلت حقاً، قبل وقت طويل. ليتك واصلت إفسادي. ربما ما كان علينا اليوم أن نقف لاقتسام الكتب اللعينة).

شاع في وجهه الدم واستدار ليركل الكدس بهدوء ورقة، بمقدمة حذائه.

(كارين هورني، حسناً، مضجرة، أيضاً. يونغ، أفضل يونغ أكثر، فعلت دائماً لكن بإمكانك الاحتفاظ به).

(شكراً بليون مرة).

(كنت دائماً من النوع الذي يفكر كثيراً لكن من دون مشاعر).

(الشخص الذي يدور حاملاً همومه على ظهره لا ينبغي عليه الكلام حول المشاعر والأفكار. الشخص الذي يمتلك علامات ضرب على رقبته...).

(لقد انتهينا من القضية وأصبحت في عداد الماضي). ثنى ركبته من جديد وأخذ يمرر يده على العناوين.

(هنا كاثرين آنا بورتر "سفينة الحمقى"، يا للجحيم، كيف أمكنك إكمال قراءتها؟ إنها "لك". جون كولير "قصص قصيرة" أنت "تعرفين" إنني أحب عمله ستذهب إلى كدسي".

(انتظر) قالت.

(كدسي). سحب الكتاب وقذفه على الأرضية.

(كلا، ستؤذي الكتاب).

(إنه لي الآن). أعطاه دفعة أخرى.

(سعيدة أنا لأنك لا تشتغل قيماً في المكتبة العامة). قالت.

(هنا، غوغول، مضجر، سول بيلو، مضجر، جون غيدك، أسلوب جميل لكن دون أفكار. مضجر، فرانك أو كونور؟ لا بأس، لكنٍ بإمكانك الاحتفاظ به. هنري جيمس؟ مضجر، تولستوي، لا أحد يستطيع تمييز الشخصيات مطلقاً، ليس مضجراً، لكن مشوش للذهن، احتفظي به. الدوس هكسلي؟ هي، انتظري "تعلمين" أعتقد أن مقالاته أفضل من رواياته).

(لا تستطيع الفصل).

(بالفعل لا أستطيع. نقطعه عند المنتصف. تأخذين رواياته، آخذ مقالاته).

أمسك ثلاثة كتب وجمعها على السجادة.

خطت إلى الأمام وبدأت تتفحص الكدس الذي نحته له جانباً.

(ماذا تفعلين؟) صاح.

(فقط أعيد التفكير بما أعطيته لك. أعتقد أني سأسترجع جون شيفر).

(يا إلهي ما الفائدة؟ آخذ "هذا" تمسكين "ذلك"؟ أرجعي شيفر. هنا بوشكين، مضجر، روبرت-كرليت، فرنسي مضجر، كنود هامسن؟ اسكندنافي مضجر).

(أوقف انتقاداتك. تجعلني أشعر كما لو رسبت اللحظة بامتحان الأدب. تعتقد أنك تأخذ جميع الكتب الجيدة وتترك لي التافهة؟).

(ربما. جميع أولئك الكتّاب يلتقطون المسألة من صرر بعضهم البعض، ولا يفعلون شيئاً سوى تسويد الصفحات).

(أنا لا أفترض أنك تجد شارلي ديكنز تافهاً؟)

(ديكنز)؟ لم نمتلك أي واحد مثله في هذا "القرن").

(الحمد لله ستلاحظ أنني أعطيتك كل روايات توماس لوف بيكوك. قصص الخيال العلمي لعظيموف. كافكا؟ بانال).

("الآن" من يشغل نفسه بإحراق الكتب؟) انحنى بغضب ليدرس كتبها أولاً، ثم كتبه بعد ذلك.

(بيكوك، يا الله، واحد من أعظم الساخرين على مر العصور. كافكا؟ عميق. مجنون، لامع. عظيموف؟ عبقري).

(هو-هوو... يا يسوع) جلست ووضعت يديها على فخذها ثم مالت إلى الأمام، مشيرة برأسها إلى تلال الأدب.

(أعتقد أنني بدأت أرى سبب إخفاق حياتنا. الكتب التي تقرأها، قليلة الأهمية لي. لا تعني لك شيئاً. هكذا. لماذا لم نلتفت إلى هذا قبل عشر سنوات؟).

(كثير من الأشياء لا يلاحظها المرء حين يكون) تمهل قليلاً وأكمل (عاشقاً).

الكلمة سقطت من الفم. تراجعت إلى الوراء في كرسيها، بصعوبة، وجمعت يديها ثم وضعت قدميها معاً بأناقة.

حدقت إليه بمنتهى الألق في عينيها.

أشاح بوجهه بعيداً وبدأ يذرع الغرفة بخطى ثقيلة. (آه، اللعنة) قال رافساً أحد كدسي الكتب، ثم مشى ليرفس الآخر، بهدوء وبساطة. (أنا لا أهتم لما يحتويه هذا الكدس أو ذاك، لا أهتم، أنا فقط لا-).

(هل تملك مكاناً في سيارتك لكل هذا؟) قالت بهدوء، وهي لا تزال ناظرة إليه.

(أظن ذلك).

(هل ترغب أن أساعدك لحملها إلى الأسفل؟)

(كلا). خيمت فترة طويلة أخرى من الصمت. (أستطيع تدبير نفسي).

(أكيد؟).

(أكيد).

بتنهيدة عميقة شرع بحمل بعض الكتب ووضعها عند الباب.

(عندي عدد من الصناديق في السيارة. سأجلبها إلى الأعلى).

(ألا تريد تقليب بقية الكتب لتتأكد من عدم وجود أخريات ترغب بهن؟).

(كلا. أنت تعرفين ذوقي. لقد قمت بالعمل على أكمل صورة. كأنك فصلت ورقتين عن بعضهما، وهاهما هناك، أكاد لا أصدق).

كف عن تنضيد الكتب ووقف ينقل بصره بين، حصن المجلداتٍ الأول وما يقابله من قصور وأبراج الأدب، وبين زوجته، لقد جنح إلى التلة التي في المنتصف، وبدا الطريق بعيداً بين التلة والمكان الذي تقف فيه زوجته عبر الغرفة.

في تلك اللحظة، وثبت قطتان من المطبخ إلى الداخل، كلاهما سوداوان، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، جالتا بين الأثاث ثم ارتدتا خارجتين من الغرفة، دون صوت.

يداه ارتعشت. قدمه اليمنى استدارت نصف دورة نحو الباب.

(أوه، لا، لا تفعل!) قالت بسرعة: (لا نملك صندوق قطط هنا. دعهما في الخارج. سأحتفظ بمودي وموديليين).

(لكن!) قال.

(مطلقاً). قالت.

كان هناك صمت طويل. في النهاية استرخت كتفاه.

(اللعنة) قال بهدوء. (لا أريد هذه الكتب البائسة. بإمكانك الاحتفاظ بها كلها).

(ستغير رأيك بعد أيام قلائل وتأتي خلفها).

(لا أريدها. أريدك أنت فقط).

(ذلك هو الجزء المزعج من الحكاية) قالت دون حراك. (أعرف، وهو أمر مستحيل).

(أكيد. سأرجع. سوف أجلب الصناديق إلى الأعلى). فتح الباب وحدق ثانية إلى القفل الجديد كما لو أنه لا يصدق ما يرى، أخرج المفتاح القديم من جيبه وركمه على الطاولة القريبة من الباب. (لن تحتاجين له مرة أخرى؟).

(لا، أبداً). قالت بنبرة كاد لا يسمعها.

(سأطرق الباب حين أعود). حدق إلى الخارج ثم استدار. (تعلمين أن كل هذا ما هو إلا دوران حول الموضوع الحقيقي الذي لم نناقشه بعد؟).

(ما هو؟) تطلعت إلى الأعلى.

تردد، خطا خطوة، وقال، (من يأخذ الأطفال؟).

قبل أن تجيب، مضى خارجاً ثم أطبق الباب.

التابوت

كان هناك ضوضاء هائلة من القرع والطرق، طوال عدةٍ أيام، جرى تسليم صفائح معدنية وخردة، أدخلهاٍ السيد جارلس بريلنغ إلى مشغله الصغير بخوف محموم. كان رجلاً في طريقه إلى الموت، وكان يبدو مستعجلاً جداً، بين سعلات متتالية وبصاق، ليجمعمعاً اختراعه الأخير.

(ماذا تعمل؟) سأله أخوه الصغير ريتشارد بريلنغ، كان بعنت متزايد وبكثير من الفضول، ولعدة أيام، تلك الطرقات والاهتزازات، وها هو يمد رأسه من باب المشغل متسائلاً.

(ابتعد ودعني وحدي) قال شارلي بريلنغ، البالغ من العمر سبعين سنة، المهتز والرطب الشفتين معظم الأحيان. بارتعاش كان يضع المسامير في مكانها ويضرب المطرقة بوهن، فوق صفيحة خشب كبيرة ثم يثبت أشرطة معدنية في الأسفل حيث آلة غامضة، وعموماً فهو يقوم بعمل احتفالي.

نظر ريشارد بعينين حادتين لفترة طويلة. كان هناك كره بينهما، ابتدأ منذ زمن وهو اليوم لا أفضل ولا أسوأ، بسبب أن شارلي في طريقه إلى الموت. ظل ريشارد مسروراً للموت الذي لا يمكن تفاديه، كلما فكر بالأمر. لكن ما أثاره هذا الانشغال المحموم لأخيه.

(صلاة) قال ريشارد دون أن يفارق الباب.

(إذا أردت أن تعرف، سأموت في الأسبوع القادم، وأنا أبني تابوتي)، قال شارلي وهو يثبت أشياء غريبة في الصندوق الذي أمامه.

(تابوت! عزيزي شارلي. إنه لا يبدو تابوتاً. التابوت غير معقد بهذا الشكل. هيا، قل لي ما الذي تعمله؟).

(أخبرتك، إنه تابوت! تابوت غريب لكنه بأية حال تابوت) قال الرجل العجوز وهو يمرر أصابعه على الصندوق الكبير.

(لكنه أسهل لك إذا ما اشتريت واحداً).

(ليس مثل هذا، لا تستطيع شراء واحد مثل هذا في أي مكان آخر. آه، إنه سيكون تابوتاً حقيقياً، أهذا جيد؟).

(أنت تكذب بطبيعة الحال. لماذا يكون تابوتك هذا بطول اثني عشر قدماً. ستة أقدام أطول من التوابل العادية؟).

(نعم نعم!!) قال العجوز ضاحكاً.

(وهذا الغطاء الشفاف، من سمع بتابوت يمكن الرؤية عبر غطائه؟ ما هي فائدة غطاء شفاف للميت؟).

(لا تهتم لهذا) قال العجوز مغتبطاً. ثم مشى في المشغل لاهثاً مدمدماً. (هذا التابوت سميك بفظاظة)، قال الأخ الصغير أعلى من الضجيج. (لماذا ينبغي أن يكون بسماكة خمسة أقدام؟ هذا شيء غير ضروري).

(أنا أتمنى فقط العيش حتى أسجل براءة اختراع بهذا التابوت). قال العجوز (سيكون هدية للناس الفقراء في العالم. فكر كيف يقلل من تكاليف الدفن. آه، لكن طبعاً لا تعرف كيف يساعد على ذلك، هل تعرف؟ يا لسخفي. حسناً، سأقول لك. إذا ما انتج هذا التابوت بكميات كبيرة، سيكون غالياً في البداية وصنعت منه أعداد هائلة، أي نقود سيوفرها البشر).

(إلى الجحيم) قال الأخ الأصغر وترك المشغل غاضباً.

إنها حياة مزعجة، الشاب ريشارد لم يكن يوماً رجلاً شريفاً، ولم يمتلك قطعتي نقود يقرع بعضها ببعض في أي وقت من الأوقات، كل نقوده كانت تأتيه من أخيه الأكبر شارلي، الذي اعتاد على تذكيره بهذا طوال الوقت. كان ريشارد يقضي ساعات عدة ممارساً هوايته، شرب النبيذ الفرنسي في الحديقة (أنا أحب الطريقة التي يلتمع بها ذلك النبيذ)، عادة ما يقول وهو يجلس في الحديقة ويشرب، يشرب ويجلس. إنه الرجل الوحيد في البلاد الذي يستطيع الاحتفاظ برماد سيجار أطول فترة ممكنة. ويستطيع تثبيت يديه أمامه كي يجعل الجواهر التي يرتديها تشع في الضوء. لكنه لم يشتر هو نفسه النبيذ والجواهر والسجائر، كلا، كانت هدايا. لم يكن مسموحاً له شراء أي شيء بنفسه. كانت دائماً تجلب له وتعطى. كان عليه السؤال لدى حاجته أي شيء، حتى ورق الكتابة. اعتبر نفسه شهيداً لأنه يبيع نفسه لذلك الأخ العجوز ومنذ فترة طويلة من أجل الحصول على أشيائه. كل شيء يضع عليه شارلي يده يتحول إلى نقود، وكل مهنة حاول ريشارد امتهانها تعود عليه بالفشل.

الآن، هذا هو الحيوان شارلي يقرقع باختراعه الجديد الذي في أغلب الاحتمال سيدر علي نقوداً إضافية بعد ان تدفن عظامه في التراب.

مضى أسبوعان.

في أحد الصباحات، صعد الأخ العجوز إلى الطابق الثاني وسرق محتويات الحاكي الكهربائي. وفي آخر اقتحم بيت الخضار للحدائقي. استلم من ثمَّ طلبية من شركة طبية. وكل ما كان ريشارد يفعله هو الجلوس ممسكاً رماد سيجارة بثبات، بينما كانت تلك الغرائب تجري حوله.

(لقد انتهيت!)، صرخ العجوز في الصباح الرابع عشر، وسقط ميتاً.

أنهى ريشارد سيجاره، ومن دون أن يظهر اغتباطه الداخلي، وضع سيجاره مع رماده الذي بطول انشين، وكان رقماً قياسياً، ثم نهض، ومشى نحو النافذة. راقب أشعة الشمس تتلامع على القناني الشبيهة بقناني الشامبانيا في الحديقة. نظر إلى أعلى البيت، حيث كان الأخ الكبير شارلي مضطجعاً قرب أعمدة الدرج. مضى إلى التلفون وأدار رقماً بعدم اكتراث.

(ألو، شركة الدفن؟ هنا بيت بريلنغ. هل يمكن إرسال الدفانين رجاء؟ نعم. الأخ شارلي. شكراً).

حين أخرج الدفانون جسد شارلي أعطاهم ريشارد التعليمات. (مدفن عادي، لا مظاهر تشييع. ضعوه في تابوت خشبي. كان سيفضل الدفن بتلك الطريقة، البساطة. الوداع).

(الآن) قال ريشارد وفرك يديه ببعضهما (سنرى ذلك التابوت الذي صنعه أخونا العزيز شارلي. لا أظن أنه سيعرف أنه لن يدفن بصندوقه الخاص.).

دخل المشغل أسفل البيت.

كان التابوت موضوعاً مقابل نافذة فرنسية مفتوحة. الغطاء مغلق، كامل ومحكم، وكل شيء موضوع معاً مثل سطة سويسرية جيدة. تابوت واسع، يرتاح على طاولة طويلة، مع عجلات أسفله تسهل نقله.

داخل التابوت، وكما رمقه من خلال الغطاء الشفاف، يبلغ طوله ستة أقدام. ينبغي أن يكون هناك ثلاثة أقدام خالية عند الرأس ومثلها عند القدمين، فطول التابوت كما يعرف هو اثنا عشر قدماً. ثلاثة أقدام في كل جانب، مغطاة بصفائح سرية، ينبغي عليه أن يجد طريقة لفتحها، علّه يكشف عن وجود شيء ما، لكن أي شيء بالضبط؟

نقود طبعاً، إن شارلي على ما يبدو حاول أن يحمل ثروته معه إلى القبر، تاركاً ريشارد دون قطعة من نقود يشتري بها نبيذا. العجوز السافل. رفع الغطاء الزجاجي وتحسسه إلا أنه لم يجد أية أزرار مخفية فيه. هناك إشارة صغيرة من الحبر على ورق أبيض، مثبتة على جانب الصندوق. تقول الإشارة:

تابوت برلينغ الاقتصادي. حقوق محفوظة، نيسان 1946. تشغيل سهل. يستخدم مرة بعد مرة من قبل الدفانين والعوائل مع التطلع نحو المستقبل.

نخر ريشارد بخفة. من يعتقد شارلي أنه يستحمق؟ وكان هناك مزيد من الكتابة.

توجيهات: ضعوا الجسد في التابوت ببساطة.

أي شيء أحمق هذا. ضع الجسد في التابوت! طبعاً! كيف يقول الواحد بأمر كهذا؟ تطلع بعدم اكتراث وراح يقرأ التوجيهات:

ضعوا الجسد في التابوت ببساطة وسوف تبدأ الموسيقى.

(لا يمكن. لا تقل لي أن كل هذا العمل ل....). ذهب إلى الباب المفتوح للمشغل ثم خرج إلى الممر ونادى على الحدائقي في بيت الخضار. (روجرز!) اخرج الحدائقي رأسه فسأله ريشارد (ما الساعة الآن؟).

(النانية عشرة سيدي) رد روجرز.

(حسناً، في الثانية عشرة والربع عليك أن تأتي إلى المشغل لترى إن كان كل شيء على مايرام).

(نعم سيدي).

رجع ريشارد إلى المشغل، وهو يقول بهدوء (سوف نرى).

لن يكون ثمة خطر في التمدد في الصندوق وفحصه. لاحظ وجود ثقوب للتهوية في جوانب الصندوق. حتى لو أغلق الغطاء سيكون هناك هواء. وسيكون روجرز هنا بين لحظة وأخرى. ضعوا الجسد ببساطة في التابوت، وسوف تبدأ الموسيقى. حقاً، كم هو ساذج العجوز شارلي! رفع ريشارد نفسه إلى الأعلى.

كان مثل شخص يدخل إلى بانيو. شعر إنه عار وتحت المراقبة. وضع حذاءه اللامع في التابوت وجر ركبته ثم وقف صانعاً علامة ما للا أحد، ثم وضع ركبته الثانية وقدمه، وقرفص كما لو كان غير متأكد من حرارة الماء. عدّل جسده واستلقى في التابوت مقنعاً نفسه إنه الآن ميت والناس يذرفون الدموع عليه والشموع تضيء وتأز، وتوقف الكون في المنتصف بسبب موته. وضع علامات شحوب على وجهه وأغلق عينيه ممسكاً ضحكة مضغوطة خلف شفتيه. جمع يديه على صدره وتظاهر إنهما تشمّعتا وبردتا.

أزيز! قرقعة! ثمة شيء قد همس داخل جدار الصندوق. قرقعة!

انصفق الغطاء فوقه.

من الخارج، لو أن شخصاً دخل الغرفة، لابد أن يتصور أن رجلاً متوحشاً يرفس، يتلوى، يثرثر، ينوح، في داخل مقصورة. فهناك صوت جسد يرقص ويتواثب، ضربات لأطراف وقبضات. لهاث ونوع من الريح من رئتي رجل مرعوب. احتكاك ورق وصرير كما لو كان عزف مزامير. أعقب هذا صرخة مكتومة ثم ساد الصمت.

استلقى ريشارد بريلنغ مسترخياً في التابوت. بسط كل عضلات جسده. بدأ يقهقه. رائحة التابوت ليست سيئة. ومن خلال الثقوب الصغيرة كان يسحب هواء كافياً ليعيش مرتاحاً. يحتاج فقط لدفعة خفيفة للغطاء بيده، دون رفس وصياح، كي ينفتح الغطاء. يجب على المرء أن يظل هادئاً. رأخى ذراعيه.

حسناً، لايزال الخطر بعيداً. روجرز سيكون هنا بعد دقيقة أو دقيقتين. ليس هناك شيء يخشى منه.

بدأت الموسيقى عزفها. يبدو إنها قادمة من مكان ما في رأس التابوت. كانت موسيقى خضراء. موسيقى أورغ، بطيئة وحزينة، موسيقى غوطية تناسب الأقواس والسجاد الطويل الأسود. حملت رائحة الأرض والهمسات. لها صدى الجدران الصخرية العالية. كانت حزينة لدرجة أن المرء سيبكي إذا ما أصغى إليها. موسيقى الأصص والقرمز وزرقة زجاج الشبابيك. إنها ضياء شمس غاربة وبرودة ريح تهب. إنها فجر مضبب وضباب الحقول البعيدة.

(شارلي! شارلي! أنت أيها العجوز الأحمق! هذا هو إذن تابوتك الغريب)! انبثقت دموع الضحك في عيني ريشارد. (ليس سوى تابوت يعزف موسيقاه. آه، يا أمي).

استلقى وراح يصغي بعمق، إذ كانت الموسيقى جميلة، وليس هناك ما يمكن فعله حتى مجيء روجرز لإخراجه من التابوت. راحت عيناه تدوران دون هدف، وأصابعه تتقو موقعة على البطانة الحريرية الناعمة. قاطع فخذيه، ومن خلال الزجاج رأى أشعة الشمس تنسكب من الشبابيك الفرنسية، وذرات الغبار تتراقص فيها. كان يوماً صاحياً جميلاً.

بدأ الطقس.

توقفت موسيقى الأورغ وقال صوت خافت: (نحن نتجمع هنا معاً، أولئك الذين أحببناه أو الذين عرفنا الراحل، لنقدم له احترامنا طبقاً ...).

(شارلي، بوركت، إنه صوتك)!. كان ريشارد مسروراً. (تابوت ميكانيكي، يا إلهي! موسيقى أورغ ومحاضرة. وشارلي يلقي خطبة لنفسه).

قال الصوت الخافت (نحن الذين عرفناه وأحببناه، حزينون لغيابه...).

(ماذا كان ذلك)؟ انتفض ريشارد ولم يصدق ما سمعه. أعاد الكلام لنفسه كما سمعه بالضبط.

(نحن الذين عرفناه وأحببناه، حزينون لموت ريشارد بريلنغ). هذا ما قاله الصوت.

(ريشارد بريلنغ) قال الرجل في التابوت. (لماذا؟ أنا ريشارد بريلنغ).

زلة لسان بالطبع. زلة طريفة. شارلي عني بالقول (شارلي بريلنغ) بالتأكيد. نعم. طبعاً . نعم من المؤكد.

(ريشارد كان رجلاً طيباً) قال الصوت الناعم (لن نرى أطيب منه في زماننا).

(اسمي ثانية)!

بدأ ريشارد يتململ في التابوت بانزعاج.

لماذا لم يأت روجرز؟

إنه خطأ كبير ترديد ذلك الاسم مرتين. ريشارد بريلنغ. ريشارد بريلنغ. نحن نجتمع هنا. سنفتقد، سنحزن. لا يوجد أطيب منه في زماننا. نحن نجتمع هنا. الراحل. ريشارد بريلنغ. ريشارد بريلنغ.

طرقعات، أزيز.

أزهار. عشرات الزهور، زرقاء لامعة، حمراء، صفراء، زهور عباد الشمس، تواثبت في الأعلى من خلف التابوت بواسطة نوابض خفية. ملأت الرائحة اللذيذة للزهور المقطوفة التابوت. تناثرت الزهور بهدوء أمام ناظريه وهي تنقر زجاج الغطاء بخفة. بعضها تقافز إلى الأعلى وتغطى التابوت بالتويجات والألوان والرائحة اللذيذة. مختلف أنواع الزهور، مرتعشة لامعة.

(روجرز!).

استمر الطقس.

(ريشارد بريلنغ، طوال حياته، كان ذواقة للأشياء العظيمة والجديدة....).

الموسيقى تخفت وتتصاعد من مكان بعيد.

(ريشارد بريلنغ محب للحياة كما يحب المرء النبيذ المعتق، ممسكاً به بين شفتيه...).

انفتحت آلة صغيرة في جانب الصندوق، وقبض ذراع معدني على ساعد ريشارد، وزرقت صدره بإبرة لكن ليس عميقاً . بدأ يصرخ. فرغت الإبرة سائلاً ملوناً قبل أن يستطيع إمساكها. ثم رجعت إلى مخبأها وأغلقت الفتحة.

(روجرز)!

الشلل يتنامى. فجأةلم يعد بقادر على تحريك أصابعه أو ذراعيه أو رأسه. أطرافه أصبحت باردة ومشلولة.

(ريشارد بريلنغ كان يحب الأشياء الجميلة. الموسيقى، الأزهار). قال الصوت.

(روجرز!). لم يصرخ بالاسم هذه المرة. فقط فكّر به. لسانه كان متخشباً وسط فمه المخدر. انفتح لوح آخر. ملاقط معدنية تقدمت بأذرع فولاذية. رسغه اليسار اخترق بإبرة كبيرة للشفط. كان دمه يتدفق خارجاً من جسده. سمع مضخات تعمل في مكان ما.

(ريشارد بريلنغ سيفتقد من بيننا..).

كان الأورغ يغرغر ويهمس، وكانت الأزهار تنظر إليه في الأسفل، وهي تومئ بتويجاتها اللامعة. ست شموع، سوداء مدورة، ارتفعت من تجويف خفي لتقف خلف الزهور، متواضعة متلامعة.

بدأت مضخة أخرى عملها. بينما كان دمه يتدفق من أحد جانبيه، رسغه اليمين أمسك بقوة وزرقت إبرة فيه، وراحت المضخة الثانية تضخ المحلول في جسده.

ضخ، وقفة، ضخ، وقفة، ضخ، وقفة.

تحرك التابوت.

محرك صغير بدأ يشتغل. انزاحت الغرفة من أحد الجانبين. تحركت عجلات صغيرة. لا حاجة إلى مشيعين. وتساقطت الزهور على الممر بخفة تحت السماء الزرقاء.

ضخ، وقفة، ضخ، وقفة.

(ريشارد بريلنغ سوف يفتقد..).

موسيقى ناعمة. ضخ، وقفة.

(آه، حلاوة الحياة الغامضة، أخيراً ..) غناء.

(بريلنغ الذواقة...).

(آه، أخيراً عرفت سر ذلك كله..).

تحديق، تحديق، عيناه الواسعتا البياض انزاحتا إلى زاويتيهما، وقرأت:

تابوت بريلنغ الاقتصادي...

تعليمات: ببساطة ضعوا الجسد في التابوت وسوف تبدأ الموسيقى.

راحت الأشجار تتمايل فوق الرأس. تدحرج التابوت بخفة خلال الحديقة، خلف أجمات متناثرة، حاملاً معه الصوت والموسيقى.

(الآن حان الوقت لنودع ما تبقى من هذا الرجل في التراب...).

خرجت شفرات لامعة من جانبي التابوت. بدأت بالحفر. رأى الشفرات ترفع الطين. هذا التابوت. ضخ استراحة، حفر، ضخ، استراحة، حفر ثم هدوء ثانية.

نبض، وقفة، نبض، وقفة. ضخ، نبض، ضخ، نبض، وقفة.

(من التراب إلى التراب، من الرماد إلى الرماد...). اهتزت الأزهار. كان الصندوق عميقاً. عزفت الموسيقى.

آخر شيء رآه ريشارد بريلنغ هو ذراع الشفرات الذي خرج من الأرض مخلّفاً ثقباً وراءه.

(ريشارد بريلنغ، ريشارد بريلنغ، ريشارد بريلنغ...).

توقف التسجيل.

لم يهتم أحد.

لم يكن ثمة من يسمع.

وعود، وعود

حين فتحت باب شقتها، عرفت أنه كان يبكي. كفت الدموع للتو من الانحدار على خديه دون أن يكلف نفسه حتى عناء مسحها.

(يا إلهي، توم، ماذا حدث؟ ادخل)!

تشبثت به، بدا أنه لا يشعر بقبضتها، لكن في النهاية نظر إلى الأسفل، ورأى أن عليه الدخول، فدخل. تطلع حوله إلى شقتها كما لو أنها غيرت الأثاث وجدران البيت.

(أنا آسف لإزعاجك). قال.

(إزعاج)! قادته عبر الغرفة. (اجلس. تبدو تعيساً . دعني أجلب لك شراباً).

(جيد، سأجلس قبل السقوط على الأرض). قال بشكل مبهم.

(اشرب! لا أتذكر أني تناولت طعاماً اليوم. ربما).

جلبت قنينة براندي، سكبت منها في الكأس، رمقت وجهه، سكبت كمية أخرى.

(هدئ روعك. اشرب الكأس دفعة واحدة). راقبته وهو يتجرع الكأس. (ماذا جرى)؟

(إنها بيث) همس، مطبق العينين، دموعه تتراكض (... وأنت).

(دعك مني، ماذا جرى لبيث)؟

(سقطت على رأسها. لبثت يومين في المستشفى، فاقدة الوعي).

(آه، يا إلهي...) تحركت منحنية وركعت جنبه مطوقة إياه بذراعيها، كما لو كانت تخشى عليه السقوط. (لماذا لم تتصل بي؟).

(فعلت، لكنني كنت مع كلارا في المستشفى، تلفنت عدة مرات لكن، لا جواب. بقية الوقت، كانت كلارا قريبة مني جداً ، لو سمعتني أتكلم معك، إلهي – يكفي المرء أن له طفلة موشكة على... بأي لحظة، على أية حال لقد حاولت، وها أنا هنا).

(يا الله، لا عجب أن تكون على هذه الدرجة من السوء. الآن، بيث. إنها ليست...؟ لم...؟)

(كلا، لم تمت. الحمد لله، آه، الحمد لله)!

وراح ينشجعالياً ، ماسكاً الكأس الفارغة بيده ودموعه تتساقط على مقدمة معطفه. متشبثة بذراعه، ساقطة على ركبتيها، راحت تنشج هي الأخرى.

(يا يسوع) قالت برقة (يا يسوع).

(لو تدركين عدد المرات التي ذكرت بها ذلك الاسم في نهاية الأسبوع. لم أكن متديناً على الإطلاق، لكن، فجأة أي شيء، فكرت، أي شيء، أستطيع قوله، عمله، التوسل به، أي شيء، لم أبك قط بهذا الإفراط في حياتي. لم أتضرع قط بهذا الإيمان).

كان عليه التوقف عن الحديث، بعد أن هزت كتفيه موجة جديدة من الحزن.

حين هدأ لحظة نجح بالعثور على بقية الحكاية وقال هامساً :

(صحتها جيدة، معافاة، خرجت من الغيبوبة قبل ساعتين. ستتحسن، الطبيب متأكد من الأمر. في تلك الساعة لو كتب لي فاتورة بمليون دولار، لصرفت بقية حياتي في سدادها دون تردد، إنها أثمن من ذلك).

(أعرف. البنات ثمينات دائماً لآبائهن، أو معظمهن على الأغلب).

غطس بمقعده، وبقيت هي جاثمة على ركبتيها، منتظرة إياه كي يسترد أنفاسه. وقالت أخيراً

(كيف تمت الحادثة)؟

(واحد من تلك الأشياء الغبية. وضعت سلماً عتيقاً في غرفتها للوصول إلى حلي أعياد الميلاد. انكسر ذلك الشيء اللعين، وقعت وارتطم رأسها بقوة. لم نعرف. كنا في القسم الآخر من البيت. احترمنا خصوصيتها دائماً . بعد مضي ساعة، وحين ظل بابها مغلقاً ولم نسمع نأمة، مضت زوجتي إلى الداخل، لسبب من الأسباب. بغتة تفجر العويل. ركضت، وهناك على الأرضية كانت بيث، سابحة بدمها، لقد ارتطم رأسها بحافة صندوق الكتب. أوشكت

على السقوط. وأنا أقترب منها. حاولت حملها، إلا أنني كنت من الضعف حيث لم أستطع تحريك جسدي. يا إلهي، بدت ميتة، رخوة، مثل الأموات بالضبط. لم أستطع إيجاد نبضها، لأن نبضي كان أعلى، لا أدري كيف عثرت على التلفون، غير أن أصابعي عجزت عن تشغيل القرص. جذبت كلارا التلفون مني وأدارت الرقم على فرقة الطوارئ. حين فتح الخط، أمسكت السماعة مرة أخرى، إلا أنني لم أستطع الكلام، كلارا هي التي كلمتهم – يا يسوع، أوشكت أن أكلف بيث حياتها! كنت مشلولاً، ماذا لو كنت وحيدا ؟ هل كنت أقدر على الحديث؟ هل ستكون الآن في عداد الأموات! من دون كلارا... حسنا ، وصلت الفرقة خلال خمس دقائق بدلاً من نصف ساعة. أخذوا بيث إلى المستشفى. كنت في سيارة الإسعاف كأي ميت آخر. تبعتنا كلارا بالسيارة. في المستشفى، منعونا من رؤية بيث ساعة كاملة، وكانوا يقاتلون لإنقاذها.

عندما خرج الطبيب، قال أن حالتها ليست أكيدة، تحتمل الأمرين، ليوم قادم أو يومين. فكري بهذأ الانتظار دون علم، يومين كاملين. لبثنا في المستشفى حتى الثانية صباحا ، إلى أن نجحوا بإرسالنا إلى البيت، وقالوا أنهم سيتصلون بنا إن حدث تغيير ما. مضينا إلى البيت وبكينا طوال الليل. لا أعتقد أننا توقفنا عن البكاء أكثر من عشر دقائق. هل حدث أن بكيت بكاء متواصلا ليلة بكاملها، هل حدث أن رغبت بقتل نفسك من الحزن يالله، كم كنا منهكين. كان ذلك هو الكابوس "الحقيقي" الأول في حياتنا. أصغي إلي! لا أستطيع التوقف عن الكلام. يا إلهي، إنني تعبان، لكن جئت لأراك فقط، لورا).

(أهي بخير ، "حقيقة" بخير؟) قالت لورا.

(قال الطبيب أن بإمكانها الخروج خلال ثلاثة أيام).

(دعني أملأها لك). أعادت ملأ الكأس وراقبته وهو يرتشفها بتشنج، بينما كانت الدموع تتجمع في عينيها.

(رأيت ابنتك مرة واحدة فقط، لقد كانت، إنها، فتاة حلوة، لا عجب أنك...)

(لا عجب). أطبق عينيه وفتحهما أخيراً ناظراً إلى خليلته. (هل تعرفين ما الذي أنقذها حقيقة)؟

(فرقة الطوارئ...)

(كلا).

(الطبيب...)

(عدا ذلك. ضراعتنا. لقد تضرعنا لورا. واستجاب الله. "شيء ما" استجاب. لكن الأمر حدث. لم أؤمن بالتضرع على الإطلاق. أنا أؤمن الآن).

كان يحدق فيها بتركيز. فما كان منها إلا أن أشاحت بصرها، وجلة. طوت أصابعها معاً وراحت تنظر إليها. فجأة، صار وجهها شاحباً كما لو أنها خمنت أمراً ما فنحته جانباً وراء عينيها. أخيرا ، جذبت نفساً عميقا ، ورمقته بسرعة، وسألت:

(ماذا)؟

(هاه)؟

("تضرعت")؟ سألت.

(لم تكن) قال (لم تكن ضراعة بمعنى الكلمة... أشبه ب... بوعد)

شحبت لورا، انتظرت، تنفست بعمق وسألت:

(ما كان وعدك)؟

لم يستطع الجواب. أصبح الأمر فجأة شبيهاً بتلك اللحظة التي لم يستطع أن يدير فيها قرص التلفون. لقد فقد القدرة على الكلام.

(حسناً)؟ قالت لورا.

(وعدت الله...)

(نعم)؟

(إذا أنقذ بيث..)

(نعم)؟

(سأقطع علاقتي بك، ولن أراك مرة أخ

خرجت الجملة بلهاث مضطرب الاندفاع.

(ماذا)؟ اعتدلت بجلستها على الأرض، دفعت نفسها إلى الخلف، وحدقت به كما لو كان مجنوناً.

(سمعت ما قلت). رد بهدوء.

مالت إلى الأمام مرتعشة وصاحت به:

(كيف استطعت "مهما حدث" الوعد "بذلك")؟

(تحتم علي، فعلت، كان الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير به).

انزلقٍ عن الكرسي، وعند وصوله إلى الأرض، راح يزحف تجاهها، ماداً ذراعيه. (كنت مسعوراً ألا ترين؟ مسعورا).

إلى الخلف دفعت جسدها مبتعدة عنه، لتزيد الفضاء الفاصل بينهما. نظرت إلى الشباك، إلى الباب، كما لو كانت تبحث عن مهرب، ثم قالت صارخة كالسابق:

(أنت تعرف أنني الآن كاثوليكية...)

(أعرف، أعرف).

(وجديدة في كاثوليكيتي. هل تدرك "المعضلة" التي وضعتني فيها)؟

(لم أضعك في معضلة. الحياة شاءت ذلك، حادثة ابنتي شاءت ذلك. كان علي أن أعد شيئاً لإنقاذها. ماذا "جرى" لك)؟

(أنا أحبك، "ذلك" هو الأمر)

قفزت، تجولت في الغرفة، ثم استدارت لتمسك كوعيها وتنحني عليه.

(ألا ترى أنك لا تستطيع المضي هكذا واعداً الله بأشياء مثل تلك! أيها الأحمق، الآن ليس بإمكانك الرجوع عن وعدك)!

(لا أرغب الرجوع)، رد، ناظراً إليها، مصعوقاً. (أنت – لا يمكنك "دفعي" للقيام بهذا)!

(توم، توم)! أوضحت (أنا مؤمنة بعمق. هل تظن أنني بهذه اللحظة أستطيع الطلب منك مثل ذلك الشيء؟ يا للمسيح، أي فوضى! الوعد وعد، ينبغي الحفاظ عليه، لكن ذلك يضعني خارج الصورة. أما إذا نقضت الوعد فلن أرضى بك لأنك كاذب، كاذب مع إلهي الجديد. يا للفجيعة، لا يمكنك الإقدام على عمل أكثر خسة، حتى لو كنت قد خططت له)!

جالسة على الأرض، كان عليه أن يتراجع اللحظة إلى الوراء، ثم يمسح خديه بظاهر كفه.

(ألا "تعتقدين"...؟)

(لا، لا. فوق هذا، كانت حادثة، وهي ابنتك. لكن وجب عليك أن تفكر، أن تتريث، تعتبر، تكون أكثر روية فيما قلت)!

(كيف تستطيعين الحذر أثناء سقوطك من بناية ذات عشرين طابق وأنت بحاجة إلى شبكة)؟

وقفت فوقه، وأكتافها مترهلة كما لو أنه أطلق عليها رصاصة في صدرها. شعرت جسدها يسقط إلى الأسفل، بنفس الطريقة التي وصفها. حتى لو كانت ثمة شبكة في مكان ما، فهو لن يشركها معه. بعد أن ارتطمت بالقاع ووجدت روحها حية لا تزال، أخرجت عنوة بعض كلمات مرتعشة:

(آه، توم، توم، أنت....)

(أنا أبكي لشيئين). همس. (ابنتي، التي أوشكت على الموت. وأنت، التي أفترضتك ميتة أيضاً. "حاولت" أن أختار. بلحظة موحشة فكرت، "هنالك" ثمة خيار. غير أني أدركت أن الله سوف يبصر أي كذبة لعينة أحاول اختلاقها. لا تستطيعين فقط الوعد والضراعة وحالما تفتح ابنتك عينيها وتبتسم تنسين كل شيء. أنا الآن ممتن لدرجة أنني أستطيع الانفجار. أنا جد حزين لنا، أنا وأنت، سأبكي طوال الأسبوع وستفكر زوجتي أن ذلك بسبب عودة بيث إلى البيت فقط).

(اخرس). قالت لورا بهدوء.

(لماذا)؟

(السبب. كلما تكلمت أكثر، كلما وجدت نفسي غير اقدرة على إيجاد الجواب. توقف عن محاصرتي في الزاوية. توقف عن قتلي بدلاً عنها. توقف).

لم يعد أمامه سوى الجلوس، فقد أحس جسده ثقيلاً ومتحجراً بينما استدارت هي وذهبت تفتش دون حس على كأس وشيء من الشراب. تطلب سكب الشراب منها فترة طويلة، ومن ثم فترة أطول لتتذكر الكأس التي أمامها. مشيحة بوجهها، سألت وهي تنظر إلى الجدار فقط:

(ماذا قلت في ضراعتك)؟

(لم أعد أتذكر).

(نعم، تتذكر. يا إله السماء توم، ما هو الكلام اللعين الذي قلته ويتعذر إلغاؤه)؟

شاع الدم في وجهه وأدار عينيه إلى هذه الجهة أو تلك، غير قادر على النظر إليها.

(يا إلهي)، قال بأنفاس متقطعة، (هذا يذكرني بأمي التي كانت تجبرني على الصلاة عندما كنت في الخامسة. كرهت الصلاة. كنت مندهشاً، لا أرى الله بأي مكان، لم أعرف من الذي يفترض بي التكلم معه. كان الأمر شاقاً جداً، حتى اضطرت أمي للتوقف. وبعد سنوات، تعلمت الصلاة بنفسي، ولنفسي. جيد، جيد، لا تحدقي إلي بتلك الطريقة. هذا ما قلت..) نهض بغتة، مشى إلى النافذة ونظر خارجاً عبر المدينة، نحو الأبنية، إلى بناية شبيهة بالمستشفى، وحصر تفكيره هناك. صوته أوشك أن يكون غير مسموع. عرف هذا، توقف، ثم ابتدأ ثانية، حيث صار بإمكانها السماع.

(قلت: أرجوك، ربي، أنقذها، أنقذ ابنتي، دعها تعيش. إن حققت هذا، أعدك، أقسم أنني سأترك أغلى شيء في وجودي. أعدك بترك لورا، ولن أراها مرة أخرى. أعدك، إلهي، أرجوك).

هنا حلت استراحة طويلة إلى أن أعاد الكلمة الأخيرة بهدوء:

("أرجوك")

دون حركة. رفعت كأسها إلى شفتيها وارتشفت البراندي إلى آخره، وبعينين مطبقتين، هزت رأسها.

(الآن. عملتها حقاً). قالت.

تراجع عن النافذة ومشى باتجاهها، لكنه توقف. (أنت تصدقيني، أليس كذلك)؟

(ليتني لا أصدقك، لكن، ما في اليد حيلة. اللعنة)!

قذفت الكأس بعيداً وراقبتها تتدحرج على السجادة دون أن تنكسر.

(كان بإمكانك الوعد بشيء "آخر"! ألم تستطع، ألم تستطع، ألم "تستطع")؟

(أعد بماذا، بماذا)؟ جاهلاً أين يذهب، جاس الغرفة، غير قادر على الالتفات إليها. (ما الذي يمكنك أن تعدين الله به ويعني كل شيء! نقود؟ بيتي؟ سيارتي؟ إلغاء رحلتي إلى باريس؟ ترك عملي؟ يعلم الله أنني أحب "ذلك"! لكن لا أعتقد أن الله يرغب بأشياء مثل تلك. ثمة شيء واحد ثمين فقط، أليس كذلك؟ شيء واحد فقط هو... الحب. فكرت وفكرت وأدركت أني أملك شيئاً واحداً خاصاً بمنتهى النفاسة في حياتي وهو ذو قيمة مطلقة. وربما يعني شيئاً ما في هذه الصفقة).

(وذلك الشيء كان "أنا")؟ قالت.

(اللعنة، نعم. سمي لي شيئاً آخر. لا أستطيع التفكير بشيء عدا ذلك. أنت. حبي لك كان فائقاً. استغرق مني كل الاهتمام. كان محور حياتي كلها وقد عرفت أن الهدية ينبغي أن تكون الهدية المناسبة. عندما قلت أني سأتركك، أدرك الله أي دمار سيحصل لي وأي خسارة. هكذا صار "لزاما "عليه أن يرد لي ابنتي! كيف لا)؟

كان قد توقف الآن في منتصف غرفة المعيشة. التقطت لورا الكأس الساقطة، نظرت إليها، دورتها ببطء.

(لقد سمعت الآن ورأيت كل شيء). قالت.

(سمعت ورأيت "ماذا")؟

(رجالاً، بطريقة أو بأخرى، يتخلصون من علاقاتهم السرية).

(أهذا ما يبدو لك)؟

(أي شيء آخر إذا؟ كنت ترغب بالقطيعة منذ وقت طويل. أصبحت الآن تملك المبرر).

أطلق صوت حداد، ثم تأوهاً، ثم تنهيدة من الزفير.

(مبرر؟ كلا. اعتراف. أي شيء آخر ترغبين مني عمله)؟

(حسناً، بالتأكيد ليس أن تعد الله بتركي)! بكت. (لماذا "أنا")؟

(ألا تدركين؟ ما كنت تصغين؟ كنت الصاحبة الوحيدة لي. أحببتك. أحبك، وسأظل دائماً أحبك. والآن، على الرغم من أنني سأنزف لسنوات، سوف أتخلى عنك. من المتضرر الأكبر هنا، أنا أم أنت؟ من يقع عليه الأذى الأكبر، أنت التيستهجرين، أم أنا الذي سأتركك؟ هل تستطيعين حقاً، أعني حقاً، تصور ذلك وإخباري)؟

(كلا) قالت وتهدل كتفاها مرة أخرى. (سأكون بخير. اعذرني. سيتطلب الأمر بعض الوقت فقط. لن تمر سوى عشر دقائق منذ دخولك البيت. يا يسوع).

استدارت ومشت ببطء إلى المطبخ. سمعها تنقب في الثلاجة. ذهب إلى الكرسي وجلس متمسكاً بذراعيه كما لو كان خائفاً أن يقذف به فجأة في فضاء الغرفة.

رجعت مع قنينة من الشمبانيا وكأسين، ماشية على الأرضية كما لو أنها في حقل ألغام.

(ما هذا)؟ سأل، حالما جلست على الأرضية مرة أخرى.

(ما الذي تشبه)؟ انتزعت الفلينة بخبرة و عندما انقذفت وارتطمت في الجدار، أضافت (ابتدأنا بها، فلم لا تنتهي بها)؟

(أنت غاضبة علي).

(غاضبة يا ٍللبؤس، أنا مستأخذة، وحزينة، وأود الذهاب إلى الفراش لأنام شهراً ولا أستيقظ مرة ثانية، لكني سأقوم بهذا غداً، اللعنة، ربما ستساعد هذه الشمبانيا الحقيرة على ذلك. خذ كأسك).

سكبت وشربا وظلا صامتين لفترة طويلة.

(هكذا فهي المرة الأخيرة التي نرى فيها بعضنا). قالت.

(لا ينبغي عليك وضع القضية بهذه الخشونة).

(لم لا؟؟ أنت البادئ. دعنا نتجاوز الهزل. هذه آخر خمس دقائق لحياتنا معاً. عندما تنهي شرابك، أريد منك أن تكون خارج البلب، لا أحتمل بقاءك هنا، لا أريد منك الذهاب. أتمنى لو أمتلك وعداً، ضراعة، قوية كالتي امتلكت ثم آمن بها. كنت استصرخت الله بها، لكني لا أملك تلك الصلابة، وليس من أحد ميت لي، عداك، وأنت لست ميتاً حقيقة، ذاهب فقط. لذلك، لا تتصل أبداً، لا تكتب، لا ترجع، لا تزرني بغتة. أعرف، أعرف، ذلك ما تحاول القيام به، الذهاب، البقاء. لكن ربما تغوى. وإذا اتصلت، فسيتحتم علي الموت من جديد. هل أبدو أنانية، هل أبدو صعبة؟ كلا. لا أستطيع معالجة الموقف بشكلٍ آخر. لذلك...)

رفعت كأسها وأنهت الشمبانيا، ثم نهضت ومشت لتفتح باب الشقة وتقف جنبه منتظرة.

(بهذه السرعة)؟ قال بكآبة.

(من الصعب التصديق أنها كانت خمس سنوات. لكن... "بهذه السرعة").

قام ونظر حوله كالذي يبحث عن شيء ما، ثم أدرك أنها هي حقيقة وجاء ليقف أمامها، يداه على جنبيه. لم يكن يدري ماذا يعمل بذراعيه أو جسده.

(هل تغفرين لي)؟

(كلا، ليس الآن. لكن لاحقاً، نعم، يجب علي. أما هذا، أو التوقف عن الذهاب إلى الكنيسة. أعطني وقتاً لأفكر بعمق حول ابنتك ومقاربتك الموت، نعم، سأغفر لك. إنه أسبوع مزعج لكلينا. جزء مني يدرك أنك أصبحت في المنتصف تماماً. وداعاً). فمها همس، "حبيبي"، لكنها لم تستطع النطق عالياً.

قبلته قبلة طويلة، وعندما شعرت بالسحبة الخفيفة لجاذبيتها وهي تحركه أقرب نحوها، تنحت عنه وخطت بعيداً.

خرج من الباب، وعند منتصف الدرج نحو الأسفل، استدار ونظر إليها ثم قال:

(وداعاً)

أدار رأسه ومشى بقية الدرجات هابطاً.

الدموع تفجرت من عينيها. دفعت جسدها إلى الأمام لتمسك قمة الدرابزون وتحدق إلى الأسفل فاقدة الحس.

(كيف تجرؤ) صاحت ثم توقفت.

حدقت إلى بئر الدرج الفارغ، كاظمة أنفاسها.

الكلمات القادمة خرجت من حواراتهم السابقة:

(- تحب ابنتك -)

ثم البقية، التي كانت هي الوحيدة التي تسمعها:

(- أكثر "مني")؟

تقهقرت، متلمسة ما حولها، ووجدت نفسها في الداخل، فصفقت الباب، "بقسوة".

أسفل الدرج، سمع الصفقة.

وكانت تشبه صوت انغلاق قبر.

المدن الصامتة

إنها مدينة صغيرة بيضاء صامتة، تقع على حافة البحر الميت لكوكب المريخ. كانت المدينة صامتة، ولا أحد يتحرك فيها. أضواء موحشة تتوهج في المخازن طوال النهار. أبواب المحلات ظلت مفتوحة كما لو كان الناس قد هربوا دون استخدام مفاتيحهم. المخازن المجلوبة من الأرض بصواريخ فضية قبل شهر، مكتظة الرفوف، لم تمس، وهي ذات لون محترق، وهناك رفوف أخرى أمام تلك المخازن الساكنة.

كانت المدينة ميتة. أسرتها خالية وباردة. الصوت الوحيد هو أزيز الطاقة للخطوط الكهربائية والمحولات، التي لا تزال تشتغل ذاتيا. الماء يجري في الأنابيب المنسية نحو غرف المعيشة والمداخل، وإلى الحدائق الصغيرة لسقي زهور مهملة. في المسارح المعتمة، بدأ المطاط أسفل المقاعد العديدة بالتصلب آخذاً شكل أسنان لازالت هناك.

في المدينة ثمة مطار صواريخ، ويمكنك لحد اللحظة شم الرائحة الثقيلة النفاذة حيث انطلق آخر صاروخ إلى الأرض. إذا أمكنك توجيه التلسكوب إلى الأرض يمكنك رؤية الحرب الكبيرة التي حدثت هناك. ربما يمكنك رؤية نيويورك تنفجر. ربما ترى لندن أيضاً مغطاة بنوع جديد من الضباب. ربما حينذاك يفهم لماذا هجرت هذه المدينة الصغيرة المريخية. أي سرعة للاخلاء؟ ادخل أي مخزن، وانقر على محصلة النقود. مجرات النقود ستقفز خارجاً مشعة مكتظة بالنقود. تلك الحرب على الأرض كانت سيئة على الأغلب.

مشى خلال حارات المدينة مصفراً بخفة، راكلاً علبة صفيحية أمامه، بتركيز كبير. رجل طويل ونحيف. عيناه تشعان بنظرة سوداء متوحدة. كان يحرك يديه العظميين في جيبه، وهما تطقطقان بنقود جديدة. يقذف بين حين وآخر نقود على الأرض. كان يضحك باستمرار، عاملاً هذا الشيء أو ذاك، خلال مسيره، مبعثراً النقود. اسمه والتر كرب. كان يمتلك منجماً وكوخاً متنقلاً في تلال المريخ، دأبٍ على النزول إلى المدينة كل أسبوعين كي يجد امرأة ذكية وهادئة يتزوجها. طوال سنوات وهو يرجع إلى كوخه خائباً وحيداً.

قبل أسبوع وصل المدينة ووجدها على هذه الشاكلة.

في يوم وصوله بدا مندهشاً جداً، دخل إلى محل فخم، فتح صندوق الطعام الجاهز، وطلب ساندويشا هائلة من لحالبقر. (هيا) صرخ على الآلة والمنشفة على ذراعيه. نسّق اللحم والخبز المخبوز منذ يوم سابق، نظف طاولة، ودعى نفسه إلى الجلوس، وأكل حتى اتخم، ثم مضى يبحث عن نافورة الصودا. النادل الوحيد كان والتر كرب هو ذاته، كان مؤدباً بشكل مذهل، فأزّت النافورة قربه.

حشى بنطلونه بكل ما هناك من النقود. حمّل عربة أطفال من فئة العشرة دولارات، ثم مضى عبر المدينة. حين وصل إلى أطراف المدينة أدرك كم كان سخيفاً وبلا خجل. إنه لا يحتاج إلى النقود. أرجع الدولارات إلى حيث وجدها، ثم أخرج دولاراً من محفظته ليدفع ثمن طعامه، أسقط الدولار في المحصلة مع ربع دولار كبخشيش.

تلك الليلة استمتع بحمام تركي، بفطيرة طازجة محشوة بالفطر، مع شراب الشري المز، والنبيذ الكرزي ارتدى طقماً أزرق جديداً، مع قبعة رمادية مناسبة للرأس. وضع نقوداً في آلة غنائية عزفت له الأغنية المشهورة: كابوي المنجم القديم. أسقط السنتات في عشرات من الصناديق في المدينة. الشوارع المهجورة والليل كانا مليئين بالموسيقىالحزينة لأغنية كابوي المنجم القديم. مشى وحيداً طويلاً ونحيلاً، حذاؤه الجديد يئز بخفة، ويداه الباردتان في جيبيه.

كان ذلك قبل أسبوع. نام في أحد البيوت واستيقظ في التاسعة صباحاً، استحم ومشى إلى المدينة لتناول البيض مع لحم الخنزير. لم يمض صباح دون أن يسعى إلى تجميد طن من اللحم والمخضرات وفطائر الليمون تكون كافية لعشر سنوات، إلى أن ترجع الصواريخ من الأرض، هذا إن رجعت.

هه الليلة، تحول صعوداً ونزولاً في المدينة، رائياً إلى النساء الشمعيات في النوافذ الملونة للمحلات، وهن ورديات وجميلات.

لأول مرة يدرك كم هي المدينة ميتة. سحب كأساً من البيرة وامتصه ببطء.

(لماذا؟ أنا وحيد!).

دخل مسرح النخبة ليضع فلماً لنفسه، كي يبتعد عن العزلة. كان المسرح خالياً، ورأى نفسه كما لو أنه في مسرح ظل للأشباح. أسرع بالخروج من بيت الأشباح ذاك.

أثناء ما كان يستجمع قراره للرجوع إلى البيت، وبينما هو يهرول في الشارع سمع صوت تلفون.

أصغى.

التلفون يرن في بيت ما.

مشى بشكل رشيق.

(شخص ما ينبغي أن يجيب على ذلك التلفون)، فكر.

جلس بكسل على الرصيف ليزيل حصاة من حذائه.

(شخص ما) صرخ راكضاً (أنا! يا إلهي، ماذا دهاني؟) هرول. اندفع. أي بيت؟ هناك! صعد الدرجات ودخل إلى البيت نحو الصالون المظلم. التقط السماعة. (هلو) صرخ. بززززز. (هلو، هلو)!

لقد أغلقوا السماعة.

(هلو)! صاح، ثم ضرب التلفون. (أنت أيها الغبي الأحمق، تجلس على الرصيف، أنت أيها الغبي! أنت أحمق!). أمسك التلفون وقال (هيا، دق، هيا دق!).

لم يفكر أن أحداً ربما تخلّف على المريخ. خلال أسبوع كامل لم ير أحداً، آمن أن جميع المدن الأخرى فارغة مثل هذه. ارتعش وهو ينظر إلى التلفون الأسود. ثمة خطوط مركزية تربط كل مدن المريخ. من أي مدينة في مدن المريخ الثلاثين جاء الاتصال؟ لا يعرف.

انتظر. دخل المطبخ الغريب واستل فراولة مثلجة وأكلها بدون اهتمام. (لم يكن هناك أي شخص في الطرف الآخر من التلفون. ربما حدث احتكاك بإحدى النقاط فرن التلفون ذاتياً). لكن ألم يسمع تكة سماعة، وهذا يعني أن شخصاً ما هو من أغلق السماعة؟

وقف في الصالون طوال الليل. (ليس بسبب التلفون، لكن لأنني لا أملك ما أقوم به). قال لنفسه.

أصغى إلى تكات ساعته. (لم تعد الاتصال، لن تعيد الاتصال برقم لم يجب. ربما تدير أرقام بيوت أخرى في المدينة! وأنا أجلس هنا الآن! لكن انتظر! لماذا أفكر إنها امرأة؟) ضحك.

في الصباح الباكر خرج من البيت ووقف في منتصف الشارع. لا صوت هناك. لا عصافير. لا سيارات. فقط قرعات قلبه. قرع ووقفة ثانية. توهج وجهه بسبب الإثارة. وهبت الريح بخفة ناشرة معطفه حوله.

(شششش، اصخ!).

كان يمشي بشكل دائري مديراً رأسه من بيت صامت إلى آخر. سوف تهتف إلى أرقام كثيرة فكر. لابد أن تكون امرأة. لماذا؟ فقط المرأة تلح بالاتصال. الرجل لا يفعل ذلك. الرجل مستقل. هل اتصلت بأحد؟ كلا! لم أفكر مطلقاً بهذا. لابد أن تكون امرأة. لابد.

اصغ.

بعيداً، وتحت النجوم، رن تلفون. ركض. توقف للاصغاء. دخل في زقاق. الرنين يعلو. اجتاز ستة بيوت. أعلى. اختار بيتاً كان مغلقاً. التلفون يرن في الداخل. (إلى الجحيم!)، وأدار مقبض الباب بعنف.

كان التلفون يصرخ.

قذف بلور النافذة بكرسي ثم تسلق إلى الداخل.

صمت التلفون قبل أن يمد إليه يده. دار في أنحاء البيت محطماً المرايا وقالباً الخزائن وراكلاً طبّاخ المطبخ. وأخيراً أمسك مجهداً دفتر التلفونات الذي سجلت فيه جميع تلفونات المريخ. خمسون ألف اسم. بدأ بالرقم الأول. اميليا ايمز، أدار رقمها في شيكاغو الجديدة، مئة ميل فوق البحر الميت. لا جواب. اتصل بعشرة أسماء، بأصابع مرتعشة بالكاد تمسك السماعة.

أجاب صوت امرأة (هلو؟).

صرخ والتر مجيباً (هلو، يا إلهي، هلو؟).

هذا صوت تسجيل، السيدة هيلين اراسوميان غير موجودة في البيت، هل يمكنك ترك رسالة على الآلة وسوف تتصل بك حين تعود؟ هذا صوت تسجيل، السيدة هيلين...).

أغلق الخط، وجلس بفم مرتعش. بعد ثانيتين من التفكير أدار الرقم ذاته وقال (حين تعود السيدة هيلين أخبريها أن تذهب إلى الجحيم).

* * *

خابر المدن الرئيسية في المريخ مثل بوسطن الجديدة، أركاديا، مدينة روزفلت، متخيلاً أنها المدن المنطقية التي يمكن لإنسان الاتصال منها، ثم اتصل بمؤسسات حكومية وشعبية في كل مدينة. خابر الفنادق الراقية، فربما ثمة امرأة هناك.

توقف فجأة، صفق بيديه، وضحك. طبعاً! فحص الدليل وطلب أجمل وأكبر قاعة استقبال في مدينة تكساس الجديدة على بعد مسافة طويلة. إن كان ثمة أي مكان يمكن أن تجلس فيه امرأة تضع الطين الصناعي على وجهها، تحت جهاز التنشيف فسوف يكون قاعة الاستقبال الجميلة تلك.

دق التلفون ورفع أحدهم السماعة من الطرف الآخر. صوت امرأة (هلو؟). (إن كان هذا صوت تسجيل فسوف أجيء إلى المكان وأفجره).

(ليس آلة تسجيل، هلو، هلو، هناك أحد على قيد الحياة! أين أنت؟) ثم صرخت صرخة ناعمة.

كاد والتر أن يسقط (أنت!) وقف مختضاً وعيناه متسعتان (يا إلهي! أي حظ، ما هو اسمك؟).

(جينيفيا سيلسر!)، نشجت على السماعة. (أنا سعيدة بسماع صوتك كائناً من تكون!).

(والتر كرب!).

(والتر، هلو والتر).

(هلو جينيفيا!).

(والتر أي اسم جميل. والتر، والتر، والتر).

(شكرا).

(والتر أين أنت؟).

كان صوتها ناعماً وجميلاً ولطيفاً. أمسك السماعة بقوة على أذنه كي يستطيع سماع همسها اللذيذ. أحس بقدميه تنهاران على الأرض وخديه يحترقان.

(أنا في قرية مارلين، زنا....).

بز زززززز.

(هلو؟ هلو؟). ثم نثر الحامل عدة مرات. لا شيء. في مكان ما أسقطت الريح سلك التلفون. مثلما جاءت سريعة، مضت جينيفيا سيلسر سريعاً أيضاً. أدار الرقم ثانية لكن الخط ظل هامداً.

(أنا أعرف أين هي على أية حال). ثم ركض خارج البيت.

كانت الشمس مشرقة حين أخرج سيارة من كراج غريب، ثم ملأ مقعدها الخلفي بالطعام ويمم صوب مدينة تكساس الجديدة بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، عبر الطريق العام. ألف ميل، فكر، جينيفيا سيلسر ابقي في محلك، سوف أخبرك عني!

كان يطلق مزمار السيارة في كل مرة يخرج بها من مدينة.

عند غروب الشمس، وبعد رحلة شاقة، وقف إلى جانب الطريق، وخلع حذاءه، ثم استلقى في المقعد الخلفي. أسدل قبعته على عينيه القلقتين. انتظم تنفسه وأصبح بطيئاً. هبت الريح وأشرقت النجوم فوقه، وكانت الجبال المريخية تحيط به، لا يقل عمرها عن ملايين السنين. ضوء النجوم كشف عن مدينة صغيرة ليست أكبر من قالب جبنة، مستلقية بين التلال الزرقاء. كان يضطجع وهو في المنتصف بين الحلم واليقظة. همس جينيفيا، آه جينيفيا، جينيفيا الحلوة. ثم غنى برقة: السنين ربما تأتي، السنين ربما تمضي. لكن جينيفيا، جينيفيا الحلوة... وكان هناك حرارة في جسده. سمع صوتها البارد الحلو يهمس: هلو، آه هلو والتر، هذا ليس تسجيلاً. أين أنت؟

تنهد ثم رفع يده لكي يلمسها في ضوء القمر. شعر طويل أسود، يهتز في الريح، شعر جميل. وشفتاها مثل الفلفل الأحمر. وخداها كأنهما وردتان طازجتان. أما جسدها فأشبه بغشاوة ضبابية، وتردد صوتها اللذيذ الناعم في رأسه وارتدى شكل الأغنية القديمة آه جينيفيا، جينيفيا الحلوة، السنون ربما تأتي، ربما تذهب... ثم نام.

* * *

وصل مدينة تكساس الجديدة عند منتصف الليل.

توقف أمام صالون التجميل وهو يصيح. توقع أن تندفع نحوه ضاحكة معطرة. لم يحدث شيء من هذا القبيل. (لابد أن تكون نائمة)، مشى إلى الباب. (هذا أنا!). نادى (هلو جينيفيا!). وكانت المدينة صامتة تحت أنوار قمرين مزدوجين. وفي مكان ما هزت الريح قطعة قماش. فتح الباب الزجاجي واسعاً ثم دخل. (هلو، لا تختبئي، أعرف إنك هنا!)، وبحث في كل الممرات.

وجد منديلاً على الأرض، كانت رائحته جميلة أفقدته توازنه. (جينيفيا!) همس.

ساق السيارة في الشوارع الفارغة فلم يشاهد أحداً. (هل هذه نكتة عملية؟).

أبطأ السيارة. (انتظر دقيقة، لقد انقطع الخط معها، ربما رحلت إلى قرية مارلين أثناء ما كنت أنا في طريقي إليها. ربما اتخذت طريق البحر الميت. لقد فقد أحدنا الآخر خلال النهار. كيف تعرف أنني سوف أجيء إلى هنا؟ لم أشر إلى ذلك. وكانت خائفة حين انقطع الخط، وقد اندفعت إلى قرية مارلين لتجدني! وها أنا هنا الآن، يا إلهي أي أحمق أنا!).

زمر عالياً وانطلق خارج المدينة. ساق طوال الليل. فكر ماذا لو لم تكن في قرية مارلين إذا ما وصلت؟ لم يفكر طويلاً. لابد أن تكون هناك. سوف يجري إلى القرية وسوف يمسكها وربما يقبلها في شفتيها.

جينيفيا، جينيفيا الحلوة، صفر وهو يرفع السرعة إلى مئة ميل في الساعة.

* * *

كانت قرية مارلين هادئة في الفجر. مصابيح صفراء لازالت تشتعل في عدد من المخازن، وصندوق الأغاني الذي ظل يغني مئات الساعات بدا صامتاً أيضاً، مما جعل الصمت يكتمل. سخنت الشمس الشوارع كما سخنت السماء الفارغة الباردة. استدار والتر في الشارع الرئيسي، وأضواء السيارة لازالت مشتعلة، وهو يزعق بزموره في كل منعطف. كان يحدق في أسماء المخازن. وجهه أبيض وتعب، ويداه افلتتا المقود المبلل بالعرق.

(جينيفيا!) صاح في الشارع الفارغ.

فتح الباب الذي يقود إلى صالون التجميل.

(جينيفيا!) اوقف السيارة.

انتصبت جينيفيا سيلسر في الباب المفتوح، في الوقت الذي كان يجري قاطعاً الشارع. صندوق من الشكولاتا يرقد مفتوحاً بين يديها، أصابعها، محتضنة الشكولاتا، كانت سمينة ومصفرة. وجهها حين خطت في الضوء كان مدوراً وثخيناً، وعيناها تشبهان بيضتين ضخمتين دستا في كتلة من عجين. ساقاها كبيران مثل ساق شجرة، وقد تحركت بدون أي أناقة. شعرها غير مرتب وقاتم وبدا كما لو أنه عش طيور. لا تمتلك شفتين وقد عوضت عن هذا بفم أحمر عريض رطب، راح ينفتح وينغلق بفعل الصدمة. وقد خططت حاجبيها بخطوط من الكحل. توقف والتر. تلاشت ابتسامته. وقف ناظرا إليها.

قذفت صندوق الشكولاتا من بين يديها إلى الرصيف.

(هل أنت جينيفيا سيلسر)؟

(هل أنت والتر كريف)؟

(كريب، لا كريف).

(كريب). اصلحت الخطأ.

(كيف حالك)؟ قال بصوت مضغوط.

(كيف حالك)؟ وهزت يده محيية.

كانت أصابعها لزجة بفعل الشكولاتا.

* * *

(حسناً)! قال والتر كريب.

(ماذا)؟ سألت جينيفيا سيلسر.

(قلت حسناً فقط).

(آه).

كانت الساعة تشير إلى التاسعة ليلاً. امضوا النهار متسكعين، وعند العشاء اعد لها لحماً لم تحبه، لأنه طري، قلاه جيداً فلم يعجبها أيضاً. لم يعجبها شيء، لهذا السبب أو ذاك. ضحك وقال (لنشاهد فيلماً). وافقت ووضعت أصابعها الدبقة في ذراعه. أرادت أن ترى فيلماً وحيداً هو، كلارك كابل، الذي عمره خمسين سنة. (سوف يقتلك فقط)؟ وحين انتهى الفيلم أمرته باعادته مرة أخرى. حين بدأ الفيلم وضعت يدها في جسده وقالت (إنك لم تكن بالضبط كما توقعتك، لكنك لطيف على أية حال). (شكراً). قال لها بالعا حنجرته.

بعد الفيلم مضوا للتسوق في الشوارع الصامتة. كسرت واحداً من الشبابيك ووضعت أجمل ملابس رأتها، ثم دلقت قنينة عطر على رأسها، فبدت مثل كلب حراسة على وشك الغرق. (كم هو عمرك؟) سألها. (خمن)، وقادته إلى الشارع. (ثلاثين!). (حسناً أنا في السابعة والعشرين). (هناك محل حلويات آخر). قالت ثم أضافت (بصراحة، أنا أعيش حياة رائعة منذ حصول ذلك الانفجار. لم أحب جماعتي، إنهم حمقى. غادروا نحو الأرض منذ شهرين. كان يفترض لي أن أغادر إلى هناك في الصاروخ الأخير، لكنني بقيت هنا أتعرف لماذا؟).

(لماذا)؟

(لأن الجميع يعنفونني. بقيت هنا حيث أستطيع إغراق نفسي بالعطور طوال النهار وشرب الجعة وأكل الحلويات دون أن يقول لي أي شخص طوال الوقت (هذا مليء بالسعرات الحرارية. لهذا أنا هنا).

(أنت هنا). قال والتر وأغلق عينيه.

(لقد تأخر الوقت). قالت ناظرة إليه.

(نعم).

(أنا تعبة).

(غريب، أنا يقظ تماماً).

(آه).

(أشعر كما لو أنني أود البقاء طوال الليل. هناك شريط جميل سأعزفه لك).

(أنا تعبة) رمقته بعينين لامعتين.

(أنا قلق، أمر غريب). قال.

(لنرجع إلى محل العرائس لأريك شيئاً ما).

ثم أخذته إلى المحل عبر بابه الزجاجي، واتجهت به إلى صندوق كبير أبيض. (حين جئت من تكساس الجديدة جلبته معي). قالت ذلك وفتحت الأزرار القرمزية للصندوق. (فكرت أنني المرأة الوحيدة على المريخ، وهناك رجل وحيد أيضاً، حسناً لم لا...)، رفعت الغطاء وأزاحت طبقات من الورق الملون ثم قالت له انظر. نظر والتر كريب وسأل (ماذا هناك؟) وبدأ يرتعش.

(ألا تعرف أيها الأحمق؟ إنه ثوب جميل وناعم وملون وكل شيء).

(كلا لا أعرف).

(إنه ثوب عرس يا غبي).

(أهو كذلك؟) تصدع صوته. وأغلق عينيه. صوتها لازال ناعماً وبارداً وحلواً، كما كان في التلفون. وحين فتح عينيه ونظر إليها، قال بحذر (كم هو جميل).

(حقاً)؟

(جينيفيا..) قال رامقاً الباب.

(نعم)؟

(جينيفيا، عندي شيء أود قوله لك).

(نعم؟). اندفعت أمامه، ورائحة العطر بدت كثيفة تلف وجهها السمين.

(الشيء الذي أريد قوله هو... الوداع).

ثم خرج راكضاً من الباب نحو سيارته، قبل أن تبدأ الصراخ. ركضت إلى الرصيف، بينما قاد هو سيارته بعيداً:

(والتر كريف، ارجع إلى هنا). صرخت ملوحة بذراعيها.

(كريب لا كريف) صحح لها الاسم.

اندفعت السيارة خلال الشارع الصامت، رغم صراخها وتلويحاتها. اندلق ثوب الزفاف من بين يديها وبدأت النجوم تشع بينما كانت السيارة تختفي في الصحراء نحو الظلام.

* * *

ظل نهاراً وليلاً طوال ثلاثة أيام. مرة شعر كما لو أن سيارة تلاحقه، فمال إلى طريق آخر قاطعاً عالم المريخ الموحش، عبر المدن الصغيرة الميتة. ساق وساق لمدة سبعة أيام حتى وضع بينه وبين قرية مارلين عشرة آلاف ميل. عرج إلى مدينة صغيرة تدعى هولت فيلا، تمتلك محلات صغيرة يمكنه قضاء الليل فيها، ومطاعم يمكنه طلب الطعام منها. عاش هناك منذ ذلك الوقت، مع مجمدتين مليئتين بطعام يكفيه مئة سنة وعدد من السجائر يكفيه لعشرات آلاف النهارات، وسرير جيد مع حشية مريحة.

عبر السنين، وحين كان التلفون يرن بين حين وآخر، لم يجب والتر على الاطلاق.

الباب المسحور

عاشت كلارا بيك في البيت العتيق عشر سنوات، قبل أن تتوصل إلى اكتشافها الغريب. عند الأرضية، منتصف الدرج إلى الطابق الثاني، وفي السقف – باب المخبأ.

(آه، يا إلهي!) وقفت متخشبة، وسط الدرج لتحملق في المفاجأة، ترفض التصديق.

(لا يمكن! كيف لي أن أكون عمياء لهذا الحد؟ يا للغرابة، ثمة مخبأ في بيتي!)

لقد تسلقت الدرجات صعوداً ونزولاً آلاف المرات في آلاف الأيام دون أن تنتبه لذلك.

(يا للمرأة الحمقاء)، فكرت، وهي خلال نزولها المتعثر إلى الأسفل، نست تماماً السبب الذي قادها للصعود إلى الأعلى.

قبل الغداء، جاءت للوقوف تحت الباب مرة ثانية، حيث بدت، بشعرها وخديها الشاحبين، مثل طفل نحيف، طويل، عصبي. كانت عيناها لامعتين، متواثبتين، محدقتين.

(والآن، بعد اكتشافي لتلك الشيء، ما الذي سوف أعمل به؟ مخزن علوي ربما. حسناً -) ثم انصرفت، باضطراب مبهم، شاعرة بذهنها ينزلق بعيداً عن الضوء.

(ليذهب إلى الجحيم، كلارا بيك!) قالت وهي تنظف صالة الاستقبال.

(إنك في السابعة والخمسين. لست مخرفة بعد، والحمد لله!)

لكن على أية حال، لماذا لم تلاحظ الأمر من قبل؟

كانت المسألة تكمن بلا شك، في نوعية الصمت. فسطحها لم يرشح قبلئذ، ولم يتساقط الماء على السقف الداخلي قط، أعمدة البيت العالية ثابتة رغم الريح، ولا يوجد هناك فئران. ولو حدث أن سمعت همسات المطر، أو أنين الأعمدة، أو رقصات الفئران في المخبأ، لكانت قد رفعت طرفها إلى الأعلى ووجدت الباب دون شك. إلا أن البيت ظل صامتاً، وظلت هي في جهلها.

لم تنقطع عن التذمر طوال العشاء. أنهت غسل الصحون، قرأت حتى العاشرة، ثم مضت باكراً إلى الفراش.

سمعت خلال تلك الليلة، الإشارات الأولى الضعيفة الناقرة، والصرير المقصود الصادر من الأعلى، من خلف السقف الأبيض. (فئران؟) همست شفتاها، وهي بين النعاس واليقظة.

ثم سقطت في متاهة النوم.

* * *

أثناء نزولها الدرج لإعداد الفطور، رشقت الباب بنظراتها الثابتة، نظرات الفتاة الصغيرة، وشعرت بأصابعها الهزيلة تنتفض داعية إياها لإحضار السلم.

(إلى الجحيم) دمدمت لنفسها (لماذا أزعج روحي بالنظر إلى مخبأ فارغ؟ الأسبوع القادم ربما).

اختفى الباب بعد ذلك ثلاثة أيام.

إما لأنها نسيت التطلع إليه، أو لأنه لم يعد موجوداً.

لكن في الليلة الثالثة، سمعت، وعند منتصف الليل، أصوات فئران –أو أي شيء آخر، - تتناهى إليها من خلال سقف غرفة نومها كأنها شبح أبيض لشجرة حليب تلامس السطح الغائب من القمر.

من تلك الفترة الشاذة، انحرف خيالها ليصور لها أعشاباً متساقطة أو بذور هندباء أو غباراً عادياً فقط، يتهافت من أسكفة المخبأ.

فكرت بالنوم، سوى أن فكرتها لم تتحقق.

راقبت، وهي مضطجعة في سريرها، السقف بثبات حتى شعرت أن بإمكانها تخيل ذلك الشيء المتواثب وراء الجص. سيرك براغيث؟ قبيلة غجرية من الفئران هاجرت من بيت الجيران؟ حديثاً، تم تغليف بعض من البيوت المجاورة من الداخل بورق أسود عازل حتى لتبدو خيمة سيرك مظلمة، حيث كان صيادو القوارض يلقون قنابلهم المميتة ثم يهربون، تاركين الحيوات السرية تواجه الموت. وعلى الأغلب، فإن الحيوات السرية تلك رزمت حقائبها الفرائية وتدفقت. مخبأ كلارا بيك هو المرفأ. الوجبات مجانية، وفيه يكون المنزل الجديد.

ومع ذلك...

ما إن حدقت إلى الأعلى، حتى ابتدأت الأصوات مرة ثانية. أصوات شكلت في نفسها خلال حاجب السقف لعريض أنساقاً خاصة، أظافر أصابع، طويلة، تحك، تطوف من هذه الزاوية إلى تلك، فوق أرضية المخبأ المعلقة. أمسكت كلارا بيك أنفاسها، ازدادت الأنساق، والطواف الناعم بدأ يتحلق عند مساحة تقع فوق وخلف باب غرفتها. كانت المخلوقات الضئيلة، كائنا ما يكون هويتها، تتشمم باباً آخر طلباً للخروج.

ببطء، جلست كلارا بيك في الفراش، وببطء أنزلت جسدها على الأرضية، متفادية الانهيار. ببطء شرعت باب غرفتها، وتسللت إلى ردهة كانت تفيض بنور القمر البارد، الذي تسرب خلال النافذة ليكشف لها – ذلك الباب.

الآن، وكما لو أن حرارة كلارا بيك استدعتها، اندفعت الأقدام الشبحية الدقيقة، في الأعلى، إلى التجمع والتدافع على إطار باب المخبأ نفسه. يا إلهي. إنها تسمعني. إنها تحاول أن...

برخاوة غُلف باب المخبأ بالأثقال الزائفة المهتزة لتلك المخلوقات المخشخشة هناك. المزيد المزيد من أقدام العناكب غير المرئية أو أقدام القوارض وهي تتخبط بين أوراق الجرائد الصفر المجعدة، ثم مزيد من الخشخشة فوق إطار الخشب.

أعلى، فأعلى. كانت كلارا على وشك البكاء: اذهبوا اخرجوا حين دق التلفون.

(نعم) لهثت كلارا. شعرت كما لو أن قدميها تنسحقان تحت ثقل المفاجأة. (من؟)

(كلارا أنا أيما، كراولي ماذا يجري؟).

(إلهي، لقد أرعبتني إيما، لماذا تهتفين بهذا الوقت المتأخر؟).

حل الصمت الطويل وكانت المرأة عبر الجانب الآخر من المدينة تستجمع أنفاسها.

(ايما -)

(كلا، دعيني أكمل. فكرت فجأة أن كلارا مريضة، أو أن كلارا أصيبت بمكروه، أو...)

تهاوت كلارا على السرير، وكأن صوت ايما يجرجرها إلى الأسفل.

أغلقت عينيها وهزت رأسها.

(كلارا) قالت ايما من مسافة ألف ميل (أأنت بخير؟)

(بخير) ردت كلارا أخيراً.

(لست مريضة؟ لم يحترق البيت؟)

(كلا، كلا، كلا).

(الحمد لله. إنني سخيفة. سامحيني).

(سامحتك).

(حسناً إذن... تصبحين على خير) ثم أغلقت ايما كراولي الخط.

جلست كلارا تحدق ملياً في سماعة التلفون، مصغية إلى الإشارة التي تنبئ أن أحداً ما قد مضى، بعد ذلك، ودون وعي، أعادت السماعة إلى مكانها. كل شيء هادئ، عدا قضقضة أوراق في النافذة، كانت تتأرجح وتموج على إطارها الخشبي. نقرت كلارا على الباب وقالت:

(تظن أنك لطيف، أليس كذلك؟) ولم يعد ثمة المزيد من الطواف والرقص والهمهمة وضوضاء الفئران، طوال بقية الليل.

* * *

بعد ثلاث ليالي، رجعت الأصوات أكبر وأعلى من ذي قبل.

(ليست الفئران) قالت كلارا بيك (جرذان ضخمة، هاه؟).

للإجابة على شكوكها، أدى السقف في الأعلى رقصة باليه معقدة، مستمرة، دون موسيقى. رقصة رؤوس الأصابع تلك، ذات النمط الغريب، تواصلت إلى أن غاب القمر. وحالما تلاشى النور، لف البيت صمت عميق لم يبق فيه من حي عدا كلارا بيك.

عند نهاية الأسبوع أصبحت الأصوات أكثر تناسقاً. لقد ترددت في كل غرف الطابق الأعلى؛ غرفة الخياطة، غرفة النوم القديمة، وفي المكتبة حيث قلب مستأجر سابق ذات يوم صفحات كتاب وتفرس في بحر من أشجار الكستناء.

في الليلة العاشرة، كانت ثمة عيون دون وجوه، وأصوات تجيء على شكل ضربات طبول وترخيمات سحرية. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، حين مدت كلارا بيك يدها إلى التلفون وأدارت رقم ايما كراولي:

(كلارا! لقد عرفت أنك سوف تهتفين!)

(ايما أنها الثالثة صباحاً. ألا يدهشك الأمر؟)

(كلا. كنت مضطجعة هنا أفكر بك. أردت الاتصال لكنني أشعر بالحرج. هناك شيء مريب أليس كذلك؟)

(ايما، أجيبي على هذا السؤال. بيت يحتوي على مخبأ فارغ طوال سنوات، وفجأة إذا بالمخبأ مليء -بأشياء- كيف يحصل هذا؟)

(لم أكن أعرف أنك تملكين مخبأ...).

(من كان يعرف؟ في البداية فئران ثم أصوات تشبه الجرذان والآن أشبه بالقطط تتراكض في الأعلى. ماذا أفعل؟)

(هاتف فريق مكافحة القوارض هو – انتظري. هنا سبعة، سبعة، تسعة، تسعة، أأنت متأكدة بأن شيئاً ما في مخبأك؟)

(مدرسة بكامل تلاميذها).

(من كان يقطن في بيتك سابقاً. كلارا؟)

(من)

(أعني، كان نظيفاً طوال الوقت، والآن، صار مسكوناً. هل سبق أن مات فيه أحد؟)

(مات؟)

(أجل، إن كان أحد قد مات فيه، فليس عندك فئران، على الإطلاق).

(هل تحاولين القول – أشباح؟)

(ألا تصدقين)

(أشباح، أو من يدعون بالأصدقاء الذين يحاولون ترويعي، ايما، لا تتصلي ثانية!)

(لكن الذي تلفن هو أنت!)

(أغلقي الخط، ايما!!) فأغلقت ايما كراولي الخط.

في الساعة الثالثة والربع من الصباح البارد، انسلت كلارا بيك إلى الردهة، توقفت لحظة ثم أشارت إلى السقف كما لو كانت تستفزه. (أشباح؟) همست. زيتت مفاصل الباب، الضائعة في الظلام نفسها الريح.

ثم استدارت كلارا بيك ببطء، راجعة إلى الفراش، متنبهة لكل حركة تصدر. وعند الرابعة والعشرين دقيقة استيقظت على الريح وهي تهز البيت.

خارجاً في الردهة، هل يمكن؟ أصابها التوتر، وأصاخت أذنيها. أطلق الباب في سقف الطابق الثاني برقة شديدة وهدوء عميق، صرخة طويلة حادة. ثم انفتح على سعته. لا يمكن! فكرت. شرعت درفتا الباب تنوسان أعلى وأسفل، ترافقهما أصوات مكتومة. هل! فكرت. سوف أتأكد بنفسي. كلا! قفزت، ركضت، أغلقت الباب، ثم عادت وثباً إلى الفراش. (فرقة المكافحة!) هكذا سمعت نفسها تردد الكلمات فيما هي تتكوم على نفسها تحت الأغطية.

* * *

في السادسة صباحاً، وهي ذاهبة إلى الأسفل أرقة، جاهدت أن تحتفظ بعينيها مصوبتين إلى الأمام، كما لو كانت تتحاشى رؤية ذلك السقف المرعب. بمنتصف المسافة التفتت إلى الخلف ثم ضحكت. (سخف!) فالباب لم يكن مفتوحاً على الإطلاق. كان مغلقاً.

(فرقة المكافحة؟) هتفت في سماعة التلفون، وكانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف، وكان الصباح مشرقاً.

في الظهيرة توقفت شاحنة مفتش الفرقة أمام بيت كلارا بيك. ومن الطريقة المتغطرسة المزدرية التي كان السيد تيمونس، المفتش الشاب، يمشي بها إلى البيت، أقرت كلارا أنه يعرف كل شيء في العالم حول الفئران، والنمل الأبيض، وحالات الوسوسة، وأصوات آخر الليل الغريبة. كان يتلفت إلى العالم حوله بتلك العجرفة الرجولية الأنيقة التي يمتلكها عادة مصارعو الثيران أو سباحو الفضاء أو الدنجوانيون الذين لا يتورعون عن إدارة ظهورهم للمخلوقة الضعيفة الراقدة في الفراش، فيما هم يولعون سجائرهم.

بدا وهو يضغط على جرس الباب، أشبه بمخلص أوفدته السماء.

أوشكت كلارا، عندما فتحت الباب، على صفقه بوجهه مباشرة، للطريقة التي كانت عيناه فيها تنزعان ملابسها، وتنفذان في لحمها، وتستقرئان أفكارها. ابتسامته كانت ابتسامة مخمور. إنه مخمور بنفسه.

(لا تقف هناك فقط!) انفجرت به صائحة. (قم بعمل مفيد!) ثم استدارت بسرعة ومضت بعيداً عن وجهه المصعوق.

التفتت إلى الخلف كي ترى وقع كلماتها عليه. نساء قليلات تكلمن معه على هذه الشاكلة. كان يتفحص الباب، بفضول قبل أن يخطو إلى الداخل.

(من هنا!) قالت كلارا. اجتازت غرفة الجلوس وصعدت الدرج إلى الأرضية، حيث وضعت السلم الحديد. رفعت يدها إلى الأعلى وأشارت: (المخبأ هناك. انظر إن كان باستطاعتك كشف سر تلك الضجة اللعينة. ولا تطلب ثمناً باهظاً لإنجاز العمل. امسح قدميك قبل النزول إلى الأسفل. أنا ذاهبة للتبضع، هل يمكنني الثقة بك فلا تسرقني بعد غيابي؟)

كان توازنه يختل مع كل كلمة تقال، ومض وجهه وشعت عيناه. وقبل أن يفتح شفتيه، انحدرت كلارا مع الدرجات إلى الأسفل ثم ارتدت معطفاً خفيفاً للخروج.

(هل تعرف كيف يبدو صوت الفأر في المخبأ؟) سألته من فوق كتفيها.

(اللعنة، سيدتي، أعرف ذلك جيداً).

(انتبه إلى لسانك، هل تعرف الجرذان؟ قد يجوز إنها جرذان أو مخلوقات أكبر. ما هو أكبر شيء يمكنه أن يعيش في مخبأ؟)

(هل يوجد راكونات في الجوار؟) (سيدتي ألا تعرفين بيتك جيداً؟ أنا) صمت كلاهما في اللحظة نفسها. ذلك لأن صوتاً ما كان قادماً من الأعلى. صوت حكة ضئيلة في البدء، ثم خشخشة، وبعدها صوت ضخة قلب.

تحرك شيء ما في المخبأ. غمز تيمونس الباب المغلق وشخر قائلاً: (أهلاً!).

حركت كلارا رأسها بقناعة وخلعت قفازيها وعدلت قبعتها مراقبة.

(إنه أشبه) تشدق السيد تيمونس.

(نعم؟)

(هل حدث أن عاش قبطان في هذا البيت؟) سأل أخيراً.

تردد الصوت أعلى هذه المرة. بدا البيت كما لو كان ينوء تحت ثقل ما في الأعلى.

(إنه أشبه بشحنة) أغلق تيمونس عينيه للإصغاء. (شحنة على سفينة، تنزلق كلما غيرت السفينة موضعها).

ضحكت ثم فتح عينيه.

(يا إلهي!) قالت كلارا وهي تحاول تخيل ذلك.

أ(على الأرجح) قال السيد تيمونس، نصف مبتسم إلى السقف (إنك تملكين مستنبتاً زجاجياً في الأعلى، أو شيئاً آخر؟ الصوت يشبه صوت نمو نباتات. أو خميرة ربما، كبيرة مثل بيت كلب، تنزلق من اليد. سمعت مرة أن رجلاً ربى خميرة في سقفه. إنها...)

صفق مشبك الباب الأمامي. قالت كلارا بيك أثناء خروجها غاضبة من نكاته: (سأعود خلال ساعة. أبدأ عملك!) سمعت ضحكاته تتبعها إلى الممر حيث كانت تسير. لم تتطلع خلفها إلا مرة واحدة. كان تيمونس واقفاً على الدرجة الأولى من السلم، ناظراً إلى الأعلى. هز كتفيه باستهانة، وأعطى إيماءة من يديه إلى ذلك الشيء الذي في الداخل، وتسلق السلم كأي بحار.

* * *

عادت كلارا بيك بعد ساعة، ووجدت الشاحنة واقفة لاتزال على حافة الطريق.

(اللعنة، ظننت أنه أنجز العمل الآن. رجل غريب، بذيء اللغة، يهيم متسكعاً...)

توقفت وأصاخت سمعها إلى البيت.

هدوء.

(غريب.) همست.

(سيد تيمونس!؟) صاحت. وانتبهت إلى أنها لا تزال على مبعدة من شبك الباب لتنادي:

(هل يوجد أحد في البيت؟)

اجتازت الباب إلى صمت شبيه بصمت الأيام القديمة، قبل أن تتحول الفئران إلى جرذان، وتتحول الجرذان إلى شيء أكبر وأكثر دكنة على أرضية المخبأ، كان صمتاً خانقاً.

ترنحت عند قاع الدرج محدقة إلى الأعلى، حاضنة مشترياتها بين ذراعيها كطفل ميت.

(سيد تيمونس...)

لكن الهدوء وحده يخيم على البيت. السلم المتنقل لا يزال هناك منتظراً على أرضية الدرج. إلا أن ليس في الأعلى! فكرت. لا يمكنه أن يتسلق إلى المخبأ ويغلق الباب على نفسه. الأخرق، لقد مضى حتماً إلى مكان ما.

استدارت لترمق شاحنته المهجورة في الخارج، وسط وهج الظهيرة الساطع.

اعتقد أن شاحنته نالها العطب ومضى ليطلب المساعدة.

كومت حاجاتها في المطبخ وأشعلت سيجارة للمرة الأولى منذ سنين، دون أن تعرف السبب، دخنتها، أشعلت سيجارة أخرى، ثم أعدت الغداء بضجة، قارعة المقالي وفاتحة العلب بجلبة هائلة.

استمع البيت إلى كل ذلك دون أية استجابة.

بحلول الثانية كان الصمت معلقاً حولها كأنه غيمة من الغبار. (الشركة) قالت وهي تدير رقم الهاتف.

وصل صاحب شركة المكافحة بعد نصف ساعة، راكباً دراجة نارية، ذلك لكي يأخذ الشاحنة المهجورة دخل خلال حاجز الباب ناقراً قبعته وراح يثرثر مع كلارا بيك وينظر إلى الغرف الفارغة ويزن الصمت.

(لاسيدتي العزيزة، أصبح شارلي صاخباً في المدة الأخيرة أكثر من اللازم. سيعود غداً ليجد نفسه مطروداً. ماذا كان يعمل هنا؟)

مع الجملة الأخيرة حدق إلى الأعلى، إلى حيث السلم.

(آه) قالت كلارا بعجلة (كان فقط يتفحص كل شيء).

وحين رحل الرجل بعد الظهيرة، صعدت كلارا بيك الدرج ببطء، رفعت وجهها مواجهة السقف، وتطلعت في الباب وقالت بهمس: (لم يرك أيضاً هو الآخر).

لم يتحرك أي شيء في المخبأ، ولم ترقص الفئران. وقفت مثل تمثال، محدقة بالضوء وهو يتسرب من الباب الأمامي. لماذا؟ فكرت بعجب، لماذا كذبت؟

حسناً، لشيء واحد، انغلق باب المخبأ، أليس كذلك؟ إضافة، لا أعرف لماذا، فكرت، لا أريد لأي شخص أن يتسلق ذلك السلم مرة أخرى. أليس ذلك سخيفاً؟ أليس ذلك عجيباً؟

* * *

تناولت عشاءها مصغية، وغسلت الأطباق مستوفزة.

وفي الساعة العاشرة دخلت الفراش، لكن هذه المرة في غرفة الخادمة الواقعة في الطابق الأسفل، والتي لم تستخدم لسنوات طويلة ماضية. لماذا اختارت الاستلقاء في الغرفة السفلية؟ لا تعلم، قامت بذلك بتلقائية فقط، وقد استلقت هناك بأذنين مستنفرتين، وجبين نابض، ورقبة متخشبة انتظرت متصلبة تحت الشراشف، مثل قبر منحوت. قرابة انتصاف الليل، هبت الريح، وهزت ما يشبه الأوراق على لحافها. عيناها اتسعتا. أعمدة البيت اهتزت. رفعت رأسها. شيء ما همس برقة في المخبأ. نهضت.

أعلى تنامى الهمس، وثقل، كأنه حيوان كبير بلا شكل، يجوس في ظلام المخبأ.

وضعت قدميها على الأرضية وجلست تنظر إليهما. تعالت الضوضاء ثانية، من الأعلى، مر على شكل أقدام أرانب تزحف، وأخرى على شكل إبهام كأنه قلب ضخم.

خطت خارجة إلى ردهة الطابق الأسفل، ووقفت مستحمة بضوء القمر الناصع الذي كان يغشى النوافذ.

ممسكة بالدرابزين، صعدت الدرجات خلسة إلى الأعلى، وبوصلها أرضية الدرج، لامست السلم، ثم رفعت عينيها إلى فوق.

عيناها ارتعشتا وقلبها تواثب، ثم وقفت ذاهلة.

فأثناءما كانت تراقب، انفتح الباب ببطء وتلاشت درفتاه. انفتح ليريها مربعاً مظلماً بانتظارهما، كأنه نفق منجم صاعد إلى الأعلى، دون نهاية.

(لقد قاسيت ما فيه الكفاية!) بكت.

اندفعت إلى المطبخ في الأسفل ورجعت راكضة إلى الأعلى مع مطرقة ومسامير، لتتسلق السلم بوثبات غاضبة.

(لم أعد أصدق هذا! كفاية، هل تسمعني؟ توقف)

على قمة السلم تحتم عليها أن تشد جسدها نحو المخبأ، داخل الظلمة السميكة، الأمر الذي تطلب منها أن تدس ذراعها ورأسها أيضاً.

(الآن!) قالت.

في تلك اللحظة الخاطفة، وبينما كانت تقحم رأسها في الفتحة وأصابعها تتلمسان طريقها لإيجاد الباب، حدث الأمر المفاجئ المروع.

كما لو أن شيئاً أمسك برأسها، كما لو كانت فلينة تسحب من عنق قنينة، جميع جسدها، ذراعاها، أطرافها المدلاة، جذبت جذباً إلى المخبأ.

اختفت كأنها منديل ساحر. تلاشت إلى الأعلى، كأنها دمية ميكانيكية هاجمت أسلاكها قوة غير مرئية.

كانت الحركة من السرعة بحيث بقي حذاؤها البيتي على درجات السلم.

لم يبق أي صراخ أو همس، بعد ذلك. أنفاس صمت طويلة فقط، تلبثت لعشر ثوان لا غير.

ثم، من دون سبب معقول، اصطفق باب المخبأ غالقاً نفسه.

لفرادة الصمت في البيت القديم، لم يلاحظ باب المخبأ مرة أخرى...

إلى أن حل القاطن الجديد في البيت بعد حوالي عشر سنوات.

الطائرة الذهبية والريح الفضية

(على شكل خنزير؟) صاح الحاكم.

(على شكل خنزير) قال الرسول ومضى.

(آه، أي يوم شرير في سنة شريرة) صاح الحاكم.

(مدينة كوان شي خلف التل، كانت صغيرة في أيام طفولتي. الآن نمت لتصبح كبيرة للحد الذي راحوا يبنون جداراً حولها).

(لكن لماذا يجعل جدار على بعد ميلين أبي حزيناً وغاضباً خلال ساعة واحدة؟) سألت ابنته بهدوء.

(إنهم يبنون جدارهم على شكل خنزير، ألا ترين؟ جدار مدينتنا بني على شكل برتقالة. ذلك الخنزير سيلتهم البرتقالة بنهم).

(آه) قالت ابنته ثم جلسا يفكران.

كانت الحياة مليئة بالرموز والنذر. الجن يتجول في كل مكان. الموت يسبح في رطوبة العين، استدارة جناح النورس تعني المطر، الريشة كذلك، وخيمة السقف، نعم وحتى جدار المدينة له أهمية عظيمة. المسافرون، السائحون، القوافل، الموسيقيون، الفنانون، يأتون إلى هاتين المدينتين يحكمون بالتساوي على تلك العلامات (مدينة على هيئة برتقالة؟ لا لا. سوف أدخل إلى المدينة التي تشبه الخنزير، آكل كل شيء، أسمن، مع حظ سعيد ووفرة).

بكى الحاكم قائلاً (لقد انتهى الجميع. هذه العلامات والنذر مرعبة. مدينتنا قادمة إلى أيام سيئة).

(إذن استدع معلميك وبنائي معابدك. سوف أهمس من خلف الستارة الحريرية وسوف تعرف الكلمات).

صفق الرجل العجوز يديه بيأس وقال (تعالوا أيها المعلمون! تعالوا يا بنائي القصور والمزن، تعالوا).

* * *

لم الرجال يعرفون الصخور جيداً بسرعة. واجههم الحاكم قلقاً منتظراً الهمس من خلف الستارة التي وراء كرسيه جاء الهمس أخيرا .

(لقد استدعيتكم إلى هنا) قال الهمس.

(لقد استدعيتكم إلى هنا) قال الحاكم (لأن مدينتنا كانت تشبه البرتقالة، ومدينة كوان سي شكلت اليوم نفسها لتكون خنزيراً مفترساً). وهنا بدأ البناءون بالصراخ والنحيب. الموت صار في الباحة الخلفية. الفقر صنع صوتاً يشبه سعلة جافة في ظلال الغرفة.

(ثم) قال الهمس وردد الحاكم (أنتم بنائي الجدران عليكم بحمل الصخور والموالج لكي تغيروا شكل المدينة).

المصممون والبناءون تلاهثوا، وكذلك الحاكم نفسه. الهمس تصاعد، استمر الحاكم بالكلام (وسوف تغيرون مدينتنا إلى عصا ستضرب الخنزير وتطرده بعيداً).

نهض البناءون صائحين. حتى الحاكم وقف مسروراً لتلك الكلمات التي خرجت من فمه، وصاح من كرسيه (بسرعة إلى العمل بسرعة).

حين مضى رجاله، استدار متبسماً مليئاً بالحب نحو الستارة الحريرية. (بنتي!) همس (أريد أن أحتضنك). لم يسمع رداً، مضى خلف الستارة وكانت ابنته قد غادرت.

أي أدب، وفكر، لقد انسلت خارجة وتركتني مع الانتصار، كما لو كنت أنا من صنعه!!

انتشرت الأخبار في المدينة، وكان الحاكم مسروراً. الجميع حملوا الحجارة إلى الجدار. انطلقت الاحتفالات وشياطين الموت والفقر ولّت هاربة، حيث اشتغل الجميع سوية. وفي نهاية الشهر تغير شكل الجدار. إنه الآن هراوة ضخمة لطرد الخنازير، والدببة والأسود بعيداً. نام الحاكم مثل ثعلب سعيد طوال الليل. (أحب أن أرى حاكم كوان سي حين يسمع الأخبار. أي هستيريا وأي خبل، لابد من أن يقذف نفسه من الجبل! المزيد من النبيذ، آه، ابنتي التي تفكر مثل شاب).

* * *

السعادة مثل أزهار الشتاء، تموت سريعاً. في ذلك العصر اندفع الرسول إلى غرفة الحكم.

(آه أيها الحاكم، مرضٍ، أحزان، وباء جراد، مياه ينابيع مسممة..) اهتز الحاكم وخاف. (مدينة كوان سي التي كانت مبنية لتشبه خنزيراً، ذلك الحيوان الذي أبعدناه حين بنينا سياجنا ليشبه العصا، تحول النصر إلى رماد شتائي، لقد بنوا جدران مدينتهم لتشبه محرقة وذلك كي تحرق هراوتنا!). اعتصر قلب الحاكم في صدره مثل ثمرة خريفية على شجرة عتيقة. (آه يا إلهي. المسافرون سوف يحتقروننا، التجار ما إن يقرأوا الدلالات، حتى ينحرفوا عن العصا السريعة العطب إلى النار التي تحتل الجميع).

(كلا) قال الهمس مثل رقاقة ثلجية، من وراء الستارة الحريرية.

(كلا) قال الحاكم.

(خبروا البنائين، ليبنوا الجدران على شكل بحيرة مشعة). قال الحاكم بصوت عال وقد راح قلبه يمتلئ بالحرارة. (ومع بحيرة الماء هذه، سوف نطفئ النار إلى الأبد).

امتلأت المدينة بالسعادة، مرة أخرى تنقذهم امبراطورة الأفكار الرائعة. ركضوا إلى الجدران وغيروها لتصبح ملائمة للفكرة الجديدة، وكانوا يغنون، لكنليس عالياً كما في السابق، لأنهم الآن أصبحوا أكثر تعباً، فإعادة البناء أخذتمنهم شهراً كاملاً، أهملوا خلاله أشغالهم وزراعتهم، لذا فهم اليوم أضعف وأكثر فقراً من ذي قبل. ثم تعاقبت أيام سيئة وأخرى جيدة على المدينة مثل صناديق مغلقة لا يعرف الواحد ماذا في داخلها. إلى أن جار الرسول (آه، أيها الحاكم، كوان سي أعادوا بناء جدرانهم لتأخذ شكل فم كما لو أنه سيشرب بحيرتنا). (لهذا، ابنوا الجدران لتكون ما يشبه الابرة، كي نخيط ذلك الفم). أمر الحاكم وهو يقف جنب الستارة الحريرية. جاء الرسول (لقد صنعوا الجدران مثل سيف ليحطموا الإبرة). وقف الحاكم جنب الستارة الحريرية. (غيروا الصخور لتصبح قراباً يمتص ذلك السيف). (الرحمة) نشج الرسول، في الصباح التالي، (لقد اشتغلوا طوال الليل ليجعلوا جدرانهم تشبه البرق الذي سيفجر ذلك القراب).

انتشر المرض في المدينة مثل كلاب ضالة. أغلقت المحلات، السكان راحوا يشتغلون طوال الشهر لتغيير شكل الجدران، فتقمصت الموت ذاته، وهو يصفق بعظامه البيضاء مثل أجهزة موسيقية في الريح. بدأت التوابيت تظهر في الشوارع، رغم أن الوقت وسط الصيف، الوقت الذي يفترض فيه أن الجميع مشغولون بالحصاد. مرض الحاكم وسحب فراشه جنب الستارة الحريرية، فاستلقى هناك تعيساً يصدر أوامر التصاميم. الصوت خلف الستارة كان ضعيفاً الآن، وناعماً أيضاً مثل ريح في طنف.

(كوان سي أصبحت نسراً، لهذا ستكون جدراننا شبكة. أصبحوا شمساً لحرق شبكتنا. سنكون قمراً يمكنه أن يكسف الشمس).

مثل آلة صدئة سقطت المدينة في الخمول. وفي النهاية قال الهمس من خلف الستارة باكياً (باسم جميع الآلهة استدع حاكم كوان سي.) وفي آخر يوم من الصيف، جلب الحاكم المريض إلى المدينة بواسطة أربع رجال جائعين.

جلس الحاكمان بمواجهة بعضهما. كانت أنفاسهما ترتعش مثل ريح الشتاء. قال الصوت من خلف الستارة (دعونا نضع حداً لهذا). أومأ الرجلان موافقين. (هذا لا يمكن أن يستمر، شعباناً لا يعملان أي شيء عدا إعادة بناء مدينتينا كل يوم، كل ساعة. لا يملكان وقتاً للصيد للحب، لصيد السمك، ليكونوا جيدين مع أبنائهم وأحفادهم). هكذا كان الصوت يهمس.

(نحن نقر بذلك) قال حاكمالمدينتين اللتين كانتا قفصاً وقمراً وناراً وسيفا، هذا وذاك وغيره.

(احملونا إلى الشمس) قال الصوت.

كان الحاكمان قد ولدا تحت الشمس فوق تلة من التلال. وفي نسيم الصيف المتأخر كان ثمة أطفال يطيرون طياراتهم التنينية ذات الألوان العديدة، بلون الشمس لون الضفادع والعشب ولون البحر والنقود والقمح. وقفت ابنة الحاكم جنب سرير أبيها وقالت (انظرا).

(إنها ليست أكثر من طائرات ورقية). قال الحاكمان.

(لكن ماذا تعني الطائرة على الأرض؟ لا تعني شيئاً، ما الذي تحتاجه لتنهض وتصبح جميلة ومؤثرة؟).

(الريح طبعاً!)

(وماذا تحتاج السماء والريح لتصبحا جميلتين؟)

(طائرات ورقية، كثيرة تكسر رتابة السماء. طائرات ملونة محلقة).

(لذلك، أنت يا حاكم كوان سي ستعيد بناء مدينتك للمرة الأخيرة لتصبح شبيهة بالريح. ونحن سنعيدها لتشبه طائرة ذهبية. الريح سوف تحمل الطائرة إلى إرتفاعات هائلة والطائرة سوف تكسر رتابة الريح وتعطيها مغزى ومعنى. الواحد دون الآخر لا يعني أي شيء معاً، الجميع جميلون ومتعاونون وهذا يطيل الحياة).

كان الحاكمان مليئين بالمتعة، تناولا غذاءهما أول مرة منذ أيام، مما أعطاهما القدرة على احتضان بعضهما وعناق بعضهما داعين ابنة الحاكم بالصبي والرجل والصخرة الأساس والمقاتل والابن الحقيقي الذي لا ينسى. وفي اللحظة ذاتها نزلا إلى مدينتيهما مغنيين وصائحين، ضعيفين لكن سعيدين.

وهكذا، خلال الوقت، أصبحت المدينتان تسميان مدينة الطائرات المذهبة ومدينة الريح الفضية. المحاصيل حصدت وراجت الأشغال ورجعت الصحة واختفى المرض مثل ثعلب مذعور. وفي كل ليلة في السنة يستطيع سكان مدينة الطائرات سماع الريح الصافية تحملهم. وأولئك في مدينة الريح يسمعون غناء الطائرات، وهمسها وارتفاعها جميلة في السماء.

(وهكذا كان) قال الحاكم أمام الستارة الحريرية.